سلسلة تاريخ العرب والإسلام

دراسات في تاريخ الخلافة العبّاسيّة

المعتصم وعسكرَة الخلافة العبّاسيّة

تأليف:

د. عثمان سيد أحمد أسماعيل البيلي

ترجمة:

حسن محمّد إسماعيل البيلي

قدم له: د. ابراهيم بيضون

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

المعتصم

وعسكرة الخلافة العباسية

دراسات في تاريخ الخلافة العباسية

المعتصم
وعسكرة الخلافة العباسية

تأليف: د. عثمان سيد أحمد إسماعيل البيلي

ترجمة: حسن محمد إسماعيل البيلي

قدّم له: د. ابراهيم بيضون

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص. ب. ٨٣٧٥: ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخراج الفني: تركية التالي

الاهداء

إلى والدينا..

ووالدي والدينا...

الذين ربونا على تقوى الله، ومحبة رسوله، واحترام الناس ...

اللهم اجعل قبورهم رياضاً من رياض الجنة، وأسكنهم الفردوس الأعلى، وألحق بهم ذريتهم.

عثمان و حسن

ربيع الأول ١٤٢٤- مايو ٢٠٠٣م

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

مع أعمال العديد من أفذاذ العلماء في مجالي الدراسات الإسلامية بعامة وتاريخ الخلافة العباسية بخاصة، فإن أملي أن تحظى هذه الاسهامة المتواضعة بانتباه القراء وألاّ يبخلوا عليَّ بالتعليق عليها. وإن نظرة في حواشي هذا الكتاب ومراجعه لتُوضح بأنني قد أفدت من أعمال الكثيرين من أولئك العلماء قدامى ومحدثين، وإني لممتن لهم جميعاً.

وأنا مدين بالشكر للبروفيسور ب. لويس الأستاذ السابق بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، لاهتمامه ولنصائحه طوال إعداد هذه الدراسة، وللراحليْن ف. جـ. باري من مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، والبروفيسور عبدالله اسمث بجامعة أحمد بل بزاريا لاقتراحاتهما القيمة وتشجيعهما.

والشكر لجامعة الخرطوم التي لولا ابتعاثها لي (أكتوبر١٩٦٠ - فبراير١٩٦٣) للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة لندن لما تمكنت من القيام بمثل هذه الدراسة.

ولأسرة مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، وأخص منهم السيد ج. اسكوفيلد والسيدة براون، ولأسرة المكتبة الشرقية بالمتحف البريطاني، ولمكتبة جامعة لندن وكلهم بلندن، ولأسرة كلير هول ومكتبة الجامعة بكيمبردج لهم كلهم عظيم شكري.

ولا بد أن أشكر بصفة خاصة أعضاء هيئة تحرير مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية الذين سمحوا لي بأن أُضمّن في هذا الكتاب بحثين لي، كنت قد نشرتهما في مجلتهم الغراء بالمجلد ٢٩ الجزء الأول لعام ١٩٦٦، والمجلد رقم ٣٢ الجزء الأول لعام ١٩٦٨.. وهما مدرجان في هذا الكتاب الفصل الثالث والرابع بعد أن تمت مراجعتهما وتحديثهما. وشكري الجزيل للسيدة منال الشيخ دقنو لعنايتها بطباعة هذا العمل.

وأضمِّن هنا بصفة خاصة تقديري العظيم وشكري لإدارة جامعة قطر التي موَّلت رحلتي بين الدوحة ولندن ذهاباً وإياباً في صيف عام ١٩٨٦م، حينما كنت باحثاً زائراً بكلير هول بجامعة كيمبردج ما مكنني من مراجعة هذا العمل وتصويبه، وفي الصيف ذاته كرمتني تلك الكلية العريقة بانتخابي عضواً دائماً فيها.

والشكر لإدارة جامعة قطر ثانياً لتفضلهم مشكورين بنشر هذا الكتاب، بعد أن عرضوا مخطوطه لمحكمين مرموقين تحت عنوان:

Prelude to the Generals

A study of some aspects of the reign of the eighth ‘Abbasid Caliph,Al-Mu‘tasim Bi-Allah (218-227 AH /833-842 AD)

وأخيراً وليس آخراً فإني أحمل عظيم التقدير للبروفيسور ب. م هولت الأستاذ السابق بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، وللدكتور مارتن هايندز المتوفى المحاضر بجامعة كيمبردج سابقاً، اللذين قرآ بصبر وأناة مخطوطة هذا الكتاب، وقدما الكثير من المقترحات ولفتا انتباهي إلى العديد من الأعمال الحديثة في هذا المجال، وقد أفدت فائدة عظيمة من ملاحظاتهما، وإن كان ثمة تقصير فإنه مني، وأستغفر الله.

ويسعدني أن أضيف أن الكتاب في أصله باللغة الإنجليزية قد نُشر مرة ثانية، نشرته دار نشر اتاخا ITACHA PRESS بلندن عام ٢٠٠١م، وإذ تسنى لي بإذن الله نشر هذا الكتاب باللغة العربية، فإن امتناني لأخي ابن عمي وصديقي وزميلي الأستاذ حسن محمد إسماعيل البيلي الذي تعهد ترجمته إلى اللغة العربية، والشكر مع عظيم الامتنان لأخي الدكتور الشيخ أحمد محمد اسماعيل البيلي الذي عنى بمراجعة المخطوط وضبطه،

والله أسأل أن يكون فيه ما نرجوه من فائدة لمن يقرأه، وأن يجعله في ميزان حسناتنا، إنه سميع مجيب.

عثمان سيد أحمد إسماعيل البيلي

مركز إسهامات المسلمين في الحضارة

الدوحة - قطر/يونيو ٢٠٠٢م

تقديم

كان وما يزال التاريخ الاسلامي الذي نشأ في رحاب «الحديث» وتأثّر بآلياته، مكتسباً بعض قدسيته ومحاطاً بالكثير من هالته، محكوماً بذلك الموروث على الرغم من تحذير ابن خلدون في «مقدمته» ـ مما أسماه «التقليد» لمناهج الأوائل وما انطوت عليه مروياتهم من أخطاء وفجوات وغيبيات. وإذا كان المستشرقون قد تركوا بصمة واضحة في الدراسات التاريخية الاسلامية، فإن المؤرخين العرب، وبعضهم كانوا من تلامذتهم، لم يقتبسوا عنهم النظرة العلمية في نقد الرواية التي ظلت تعاني الترهّل في سياقها التراكمي الرتيب. عدا ذلك فإن المستشرقين لم يكتنهوا من جانبهم خصوصية الاسلام، فجاءت دراساتهم عموماً متّسمة بالتحليل الجاف، المبني غالباً على التفسير الاقتصادي، غير المطابق تماماً لحركة التاريخ الاسلامي في عالمه الخاص. ولكن الربع الأخير من القرن الماضي شهد تطوراً مهماً على صعيد الكتابة التاريخية العربية، مُحدِثاً بصورة ما التغيير المرتقب، من خلال قراءة إبداعية لتاريخ استحق الخروج من حصار الماضي ونهجه العقيم. بيد أن ذلك على

أهميته، لم يتعد نخب المؤرخين ممن توغلوا في التراث وواكبوا الحداثة، بينما الأكثرية أمعنت في التوكؤ على المرويات التي شكّك في بعضها المصنّفون الأوائل أنفسهم، مما كان له انعكاسه السلبي على الدراسات الحديثة والمعاصرة في التاريخ الاسلامي بصورة عامة.

والدكتور عثمان البيلي يندرج بين النخب الذين أغنوا الفكر التاريخي بدراساتهم المعمقة، نائياً بها عن التقليد، ومستفزّاً الاشكالية في محاولته الدائبة لمقاربة الحقيقية التاريخية، مما يتجلى في كتابه الصادر تحت عنوان «المعتصم وعسكرة الخلافة العباسية». وهي موضوعة طالما تناولها المؤرخون، واجدين، خصوصاً في العهد الأول من هذه الخلافة، مادة خصبة لأقلامهم. وكان اختيار المعتصم تحديداً، ما يعبّر عن أهمية هذه الدراسة في منحاها الإشكالي، لما يمثّله عهده من محطة مفصلية في مسيرة خلافة العباسيين، وما ينطوي عليه من معضلات لم تجد لها حلولاً، على الرغم من جهوده التي أخذت به إلى عسكرة الخلافة، لمجابهة انقسام المجتمع والصراعات المتفشية فيه.

إن الكتابة التاريخية تؤدي رسالتها، بقدر ما يتصف به المنهج من متانة ووضوح، من الأسباب إلى النتائج، مما يتجلى على كثير من الأسباب في هذه الدراسة المتكاملة إلى حدّ كبير انطلاقاً من العناصر الأساسية الآتية:

١ ـ المصادر التي استهل بها المؤلف دراسته، مضيفاً إليها قراءة نقدية تعزّز توظيفها في المكان والسياق الملائمين.

٢ ـ حركية المساءلة التي أضاءت جوانب البحث وأغنته بالأفكار الجديدة، بما يسوّغ عملياً الخوض في الموضوعة المطروحة.

٣ ـ عدم الاستغراق في التفاصيل، لاسيما المعروفة والمتداولة.

٤ ـ الاستنتاج الذي يشكل زبدة البحث وخلاصته وأطروحاته.

وهكذا تتوافر الآليات المناسبة لكتابٍ يتناول أزمة الخلافة العباسية، بدءاً من التأسيس العاصف، وما نجم عنه من صراعات على السلطة والنفوذ، ومن ظهور طبقة العسكر، أو مقدماته، من الترك والرقيق، وانتهاءً بعهد المعتصم واتخاذ سامراء عاصمة جديدة للخلافة. فلم يكن هذا العهد كما في الوعي التاريخي ـ مسؤولاً عن تلك المتغيرات التي لم ينتج منها النظام السياسي، كذلك المجتمع المدني في الانعكاسات السلبية عليه، وإنما رهصت بها الأحداث السابقة التي اضطرب بها عهد المأمون. وفي ضوء ذلك مهّد المؤلف في قراءة ثاقبة للفترات السالفة، متوقفاً عند نشوء المدن مرتبطةً بحركة السلطة، ادارةً واجتماعاً وثقافة، من غير أن تكون خاضعة بالمطلق لها، بقدر ما تحكّمت بها اعتبارات جعلتها في بعض الأحيان على تناقض

معها، الأمر الذي أوجد هوّة بين الحكّام والمحكومين على الرغم من محاولات نخب الفقهاء لردمها. ولعل بعض هذه المدن، مثل قرطبة في الأندلس، ابتعد عن السلطة المركزية إلى حدّ الانفصال عنها، ومن ثم التجرؤ، فيما بعد، على إعلان الخلافة، في سياق العودة إلى «الشرعية» الأموية التي أطاحها بنو العباس.

وتوقف المؤلف خصوصاً عند عهد المأمون، راصداً، عبر تمهيد تاريخي العلاقة مع الترك، وإرهاصات ظهور طبقة العسكر، مترافقاً مع ذروة الصراع على السلطة في ذلك العهد. وقد جاء بتبويب الكتاب منسجماً مع الأطروحات في المقدمة، ومتّسقاً في فصوله الخمسة مع الإشكالية موضوع البحث.

في الفصل الأول، وهو الأكثر تفصيلاً وعنوانه «إرث عهد المأمون»، تناول فيه الظروف التاريخية التي وجد المعتصم نفسه في مواجهتها، ومن أبرز مظاهرها الحرب مع البيزنطيين، ومشاكل ولاية العهد، متوّجة بالحرب بين الأمين والمأمون، والثورات التي كان أكثرها خطورة، حركة بابك الخرّمي، فضلاً عن نشاط المعتزلة ومقولاتهم التي أثارت جدالاً حاداً على مستوى العقيدة، متمتعين بحصانةٍ ما لدى الخليفة المأمون. وفي ظل هذه الظروف ازداد تورّط الجيش في الحروب الداخلية، مؤدياً إلى بروز قيادات عسكرية جديدة من غير العرب والفرس، مادة الصراعات الآنفة، بعد ارتياب الخلافة في ولاء القيادات القديمة المتناصرة. وكان «أشناس» على رأس الترك المنخرطين

في الجيش العباسي حينذاك، مكتسباً شهرته خصوصاً في الحملات على الثورة البابكية، وحائزاً على ثقة المعتصم كواحد من أقرب القادة إليه.

وإذا أضفنا إلى ذلك الأزمة التي أحرجت المأمون، والناجمة عن علاقته بالعلويين محاولاً اجتذابهم بتعيين الامام الشيعي الثامن (الرضا) ولياً لعهده، فإن سياسته الداخلية لم تحقق الاستقرار الذي توخّاه، تاركاً لخليفته إرثاً كبيراً من المشاكل، لم يستطع الخروج منها، سوى بالمضي قدماً في سياسة عسكرة الخلافة، التي تبلورت صورتها على نحو ذلك الوضوح في عهده.

وفي الفصل الثاني (نشأة المعتصم وتوليه الخلافة)، تتبّع المؤلف سيرة الخليفة الجديد واصفاً شخصيته بالغموض، ومناقشاً الرواية المتواترة عن «أمّيته» بخلاف أسلافه المثقفين، لاسيما الأخير منهم، كما توقف عند الأصل التركي غير المحسوم لأمّه، بخلاف أسلافه أيضاً، المولودين من أمهات عربيات، مما حدا بالمؤرخين إلى ربط خياراته السياسية بالعنصر التركي المتمرّس بفنون القتال. لقد ظلّت شخصية المعتصم بغموضها، مما يثير تساؤلات المؤلف فيه. فهو بالتأكيد لم ينل حظاً كبيراً من الثقافة، ولم تجذبه «الدوائر الفكرية والعلمية». مؤثراً الابتعاد عن الأزمات التي عاصرها في فجر شبابه. كما أنه لم يشارك في حرب الأخوين الأمين والمأمون، ولم يتدخّل في البيعة للإمام الرضا بولاية العهد، أو في جدل مقولات

المعتزلة، أو في غيرها من الأزمات الداخلية. بيد أن المعتصم، وإن لم يكن مؤثّراً في سياسات البلاط والادارة، فإن الكفاءة العسكرية العالية التي تمتّع بها، جعلته قريباً من المأمون، حائزاً على ثقته، ومتبوئاً دوراً قيادياً على الجبهة البيزنطية، حيث نال شهرة واسعة في عملياته الحربية المظفرة.

ولا يقلّ غموضاً في هذا المجال، اختيار المأمون للمعتصم خليفةً من بعده، لما رافق ولاية العهد حينذاك من تقلّبات، لم يكن في سياقها، إذ كان العباس بن المأمون قد تداولته الروايات مرشحاً للخلافة. فقد جرت البيعة في ما كان المأمون يقود حملة على البيزنطيين، ومعه ابنه وأخوه، مؤثراً الثاني ربما لشعوره، وهو على الجبهة، بأنه أكثر ملاءمة للمرحلة من الأول، آخذاً في الاعتبار «إرث» المشاكل والتحديات من عهده.

ويخوض الفصل الثالث (المعتصم والترك) في الاشكالية المحورية للكتاب، مستهلاً بتاريخية العلاقة بين المسلمين والترك، والتي كان من تعبيراتها في عهد المأمون، انخراط جماعات كثيرة من السغد وفرغانه وأشروسنة والشاش وغيرها في الاسلام. وقد سعى المعتصم بعد أن آلت إليه الخلافة إلى تجنيد أعداد إضافية من هؤلاء الترك في جيشه، ليس تعزيزاً ـ كما هو متداول ـ لموقعه السياسي أمام معارضي عهده فحسب، بل وجدهم أكثر كفاءة لخدمة أغراضه العسكرية.

وقد أثبت الترك فعلاً جدارتهم في ميادين القتال، محقّقين ما توخاه المعتصم من استخدامهم في جيشه، بأن يحفظ للخلافة

وحدتها وهيبتها، ويدفع عنها الأخطار المحدقة بها. ولكن ثمن ذلك كان باهظاً، وسرعان ما انعكست نتائجه السلبية على المجتمع الذي أصبح محكوماً من هذه الطبقة العسكرية الجديدة، على نحو اضطر الخليفة إلى اتخاذ قرارات صعبة لتفادي العزلة التي أخذت تحيط بالخلافة. فلم يدع له إرث سلفه خياراً سوى الاعتماد على المجموعة نفسها التي اعتمد عليها وكان لها نفوذها في عهده، في وقتٍ وجد المعتصم ـ برأي المؤلف ـ «صعوبة في تجنيد أهل العراق»، العازفين عن التعاون معه وتلبية «احتياجاته العسكرية».

وهكذا بات المعتصم أمام واقع «عسكرة» الخلافة، والذي اكتمل فصولاً بانتقال مركز الخلافة من بغداد، مندرجاً تحت عنوان الفصل الرابع «تأسيس عاصمة جديدة (سامراء)». وقد رأى «المسعودي» أن هذه المدينة، واسمها في الأصل سُرّ من رأى، «كانت آخر المدن العظيمة في الاسلام (بعد) البصرة والكوفة والفسطاط وواسط والرملة وبغداد». أما الأسباب الموضوعية التي حدت بالمعتصم إلى التخلّي عن العاصمة الأكثر تألقاً في ذلك الوقت، فقد اختصرها المؤلف بقولٍ لياقوت الحموي إن «المعتصم لم يكن يحبّ بغداد»، حيث وجد نفسه غريباً في صخب حركتها الفكرية المتوهجة، مما لا يتّفق ومزاجه العسكري، لاسيما وأنها تقبّلت كأمر واقع خلافته، ولم تُظهر حماسة لها. ولعلها آثرت حينذاك رحيل بلاط الخلافة عنها، على بقائه تحت رحمة الجنود العابثين بأمنها واستقرارها وحرية الفكر فيها. ولكن المفارقة أن العاصمة الأولى، وإن تخلت عن

مركز الحكم وشجونه، فإنها احتفظت ـ برأي المؤلف ـ بكل عناصر التفوق المادي والثقافي، بينما عجزت الثانية عن مجاراتها في الاستقطاب، وعانت عزلة اضطرت الخلافة بعد عقود من السنين، إلى الخروج منها والعودة إلى بغداد.

لقد بدت سامراء، على الرغم من جهود المعتصم، ربما متماهياً مع المنصور، في أن تكون له مدينته الخاصة، الحافلة بأرقى فنون العمارة الاسلامية، عاصمة عسكرية أكثر منها مدنية، فلم تشجّع، في ضوء ذلك، العلماء والشعراء ـ باستثناء قلة قليلة ـ على إقامة علاقة مع بلاطها، فاقدةً الدور التوجيهي لهؤلاء، وتأثيرهم، عند الحاجة، في سياسات الخلافة. فقد خضعت لهيمنة الترك، السائرين بها نحو العسكرة التامة، بما يخالف طبيعتها في بغداد التي أطلق عليها المؤرخون «مدينة السلام»، تعبيراً عن مجتمعها المدني المتنوّع. ولكن ثمة ما يبقى خاضعاً للنقاش، هو القول بأن العسكريين من أئمة الشيعة قد دُفنوا في سامراء.. إذ يتوقف المؤرخ عند هذه الصفة لهؤلاء، متسائلاً إذا كان وجود قبري الإمامين علي (الهادي) والحسن (العسكري)، فضلاً عن «غيبة» ثالثٍ (محمد بن الحسن) فيها، ما يسوّغ هذا القول؟ وهل يكفي اتخاذ الإمام الحسن هذا اللقب، بمحلة «عسكر» في سامراء، لاعتماد مثل هذه المعلومة؟ كان ذلك إلى توضيح في هذا الفصل.

أما الفصل الخامس والأخير، فقد تناول (أهم الأحداث في

عهد المعتصم)، متّسقةً مع الإشكالية المحورية في الكتاب، ومتوائمةً والنزعة العسكرية لشخصية الخليفة، والظروف التاريخية التي أحاطت بعهده. وقد استهلّ هذه الأحداث بثورة بابك الخرّمي، الأكثر خطورة في إرث المأمون، هادفةً إلى إقامة استقلال في إقليم البذ، ومتكئةً على ما يُروى عن نسبٍ ينتهي بهذا الثائر إلى أبي مسلم الخراساني، بحسب رواية الدينوري. وقد نجح المعتصم بفضل جهود قائده التركي البارز اشناس، في السيطرة على الموقف، والقضاء على الثورة، ومن ثمّ القبض على قائدها الذي صُلب بعد محاكمته في سامراء. كما نجح في القضاء على ثورة متّصلة أيضاً بالإرث المأموني، وهي ثورة الزط التي اندلعت في ظلّ شعارات اقتصادية في منطقة المستنقعات من أعمال البصرة، وأحدثت قلقاً للخلافة وتهديداً لطرق التجارة في ذلك الوقت.

لقد كان عهد المعتصم قصيراً، لم يتعدَّ السنوات الثمان، ولكنه كان حافلاً بالأحداث الجسام، ثورات وحروباً خارجية، فضلاً عن المؤامرات التي استهدفته معبّرةً عن اتساع جبهة المعارضة ضده. وإذا كان قد اجتاز بصعوبة تلك التحديات، معتمداً بصورة خاصة على آلته العسكرية وما حققه بفضلها أيضاً من انتصار باهر على البيزنطيين في عمورية، فإن ذلك لم ينعكس قوةً على الخلافة التي أصبحت مفتوحةً على الأخطار الداخلية والخارجية. فلم تعد هذه بطابعها العسكري الصرف، ممسكة بزمام السيطرة على أطرافها، بعد ضمور المركز وثنائية الاستقطاب، على كثير من التناقض بين مدينتين: إحداهما

(بغداد)، احتفظت ببريقها عاصمة شرعية للخلافة، في وجدان المسلمين، وثانيتهما (سامراء)، انحرفت عن طبيعتها وصادرت إرادتها، لمصلحة الطبقة العسكرية المهيمنة عليها.

وتبقى كلمة أخيرة، أن هذا الكتاب، غابت عنه «الخاتمة» التي وعد بها المؤلف في خطة الدراسة، بما تحمله من إضاءات ومحصّلات للأفكار الجديدة. بيد أن القارىء لا يجد صعوبة في التعرّف إلى كثير من هذه الاستنتاجات في خواتيم الفصول الخمسة، التي عكست في انسيابها وتحليلها، المنهج المتين والمقاربات اللمّاحة لكتاب مرجعي في موضوعه.

الدكتور ابراهيم بيضون

استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية

مقدمة

المعتصم بالله الخليفة العباسي الثامن المتوفى عام (٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) إعتلى سدة الخلافة بعد قرنين من وفاة الرسول ﷺ عام (١١هـ/ ٦٣٢م). وقد وقعت أحداث جسام خلال هذين القرنين. ففي عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق (ر) بين عامي (١١-١٢هـ/ ٦٣٢-٦٣٤ م) استطاعت دولة المدينة إخضاع كل الجزيرة العربية وبدأت غزو الشام والعراق. وفي نهاية عهد الخليفة عثمان بن عفان (ر) (٣٥هـ/ ٦٥٦م) وصلت الخلافة إلى ما يمكن أن نسميه حدودها التقليدية، وما أُضيف إلى دولة الخلافة لاحقاً ولو أنه كان أكبر مساحة إلاّ أنه تم بعد غزو تم ببطء، ولم يكن في مثل عظمة الفتح الذي تم خلال الأربعة وعشرين عاماً من حكم الخلفاء الثلاثة الأول. إن الفتوحات التي تمت أولاً هي التي جعلت الفتوحات اللاحقة ممكنة. ومع أن الأمويين هم الذين أكملوا غزو شماليّ أفريقيا وتجاوزوها إلى أسبانيا غرباً، وجاوزوا خراسان شرقاً، إلاّ أن الأتراك هم الذين قربوا المسلمين من أمجاد أسلافهم في تلك السنين. وكان ذلك بعد عدة قرون مع السلاجقة والعثمانيين.

يضاف إلى ذلك أن موجة الهجرة العربية التي تسارعت خطاها بفعل النمو السكاني في الجزيرة العربية وتحت قيادة الإسلام قد وصلت إلى نهاية مداها تقريباً بنهاية حكم الدولة الأموية في الفترة (٤١-١٣٢ هـ / ٦٦١-٧٥٠م). لقد تبددت قوى ذلك المد العربي بفعل حربين أهليتين عظيمتين، أنهت أُولاهما عهد الخلافة الراشدة وجاءت بالخلافة الأموية بدايةً بمعاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦٢-٦٧٩م)، ورسخت الثانية حكم الأمويين نفسه تحت قيادة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م). وفي هاتين الحربين الأهليتين كان النصر حليف السياسات العملية للأمويين القائمة على توافر المال والقوات النظامية في الشام، تساندها القبائل العربية القوية، على حكومة المدينة لتثبيت سلطتها على الإمبراطورية التي أوجدتها مستعينة في ذلك بكل قوى الجزيرة العربية.

لقد حلت دولة بني أمية محل الخلافة الراشدة (١١-٤٠هـ/ ٦٣٢-٦٦٠م) وهم يتهمهم الكثيرون بالخروج على السنن الإسلامية في الحكم (حتى ولو كانت هذه السنن قد تبلورت بعد زوال دولة بني أمية ومع الإعتبار لدعاوى العباسيين والشيعة في هذا المجال).

لقد نحى الحجاز والجزيرة العربية إلى مكان ثانوي، أما بالنسبة للمدينتين المقدستين «مكة والمدينة» فقد كانتا تعنيان القليل جداً بالنسبة للخلافة فيما يتعلق بالسلطة والسياسة.

وإذا كانت المدينة المنورة والحجاز قد تلقتا الهزيمة على يد دمشق والشام، فإن روح المدينة التي كانت تقود القوى في العراق وخراسان مستفيدة من التطورات السياسية التي تمت على يد بني أمية هي التي صارت لها الغلبة في النهاية على كل معارضيها. إنه ما كان للخلفاء الأمويين لما أثير حولهم من نقد أن يحكموا إمبراطورية إسلامية. وجاء الدور الآن لإعادة بناء دولة إسلامية حقيقية. لقد نظم معارضو بني أمية أنفسهم تحت شعار التنادي من أجل إمام مقبول من أهل بيت النبي ﷺ - الرضا من آل البيت - وسعوا لتقويض دولة بني أمية ومن ثم فإن حرباً أهلية أخرى كانت في الانتظار!

لقد حملت حروب الفتح العرب إلى أصقاع نائية ومتعددة، وبينما كان العرب الغزاة يعربون وتدخل الشعوب التي غزوها بدعوتهم في دين الله أفواجاً، إلاّ أنهم هم أنفسهم لم يسلموا من التأثر بالبيئات التي عاشوا فيها. تبدل الحال الذي كان فيه المسلم يعني العربي وحل محله مفهوم آخر هو أن المسلم يعني غير العربي إلاّ في حالات نادرة، وهي حالة بدو الجزيرة العربية أو بدو الجزيرة بالشام. صارت أغلبية المسلمين من غير ذوي الأصول العربية (وإن كان الكثيرون يصرون على أن لهم أصولاً عربية). ولم يكن كل المسلمين من العرب ممن يؤيدون حكم الأمويين بل إن من أهم ما أضعف الأمويين الصراعات الدامية المتكررة بين عرب الشمال وعرب الجنوب. أدت هذه العوامل مجتمعة مضافاً إليها وجود مظالم إجتماعية وإقتصادية لحقت بالغالبية من المسلمين ـ عرب وغير عرب على حد سواء ـ إلى

قيام ثورة العباسيين في عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. وكان العباسيون أسرة قرشية مكية عربية مثلهم مثل الأمويين، وقد تسلموا السلطة لا كورثة شرعيين لأهل بيت النبي ﷺ فقط، ولكنهم كانوا يدعون أنهم حماة الإسلام ويبشرون بالحكم العدل، لذلك كان مؤيدوهم يسمون خلافة العباسيين «الدولة المباركة».

وعلى كل، فلم تكن هذه نهاية الحروب الأهلية التي ثارت خلال المائتي عام السابقة لتسلم الخليفة المعتصم للسلطة. كانت هناك حرب أهلية رابعة وشيكة الوقوع (ناهيك عن ثورات العلويين والخوارج وانتفاضات أُخر ظلت تتوالى بين الحين والآخر). كان لغياب نظام واضح محدد ومقبول لكيفية انتقال السلطة (ولاية العهد) الأثر الأعظم تقريباً في كل المآسي التي وقعت خلال هذه الحقبة. حدث الكثير من هذه الفوضى حتى حينما كان الإجماع يعني إجماع المدينة أو دمشق أو بغداد (حينما كانت هذه المدن تدعي أنها تمثل رأي المجتمع المسلم مجتمعاً، أو رأي أهل الحل والعقد). والحقيقة هي أن هذا الإجماع المتحدث عنه كان يجد مكاناً له في المدينة المنورة فقط، وإن ذلك إنتهى مع عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ر) في عام (٢٣هـ/ ٦٤٤م). أما فيما بعد ذلك لا سيما مع الفتنة الكبرى التي قتل في أولها الراشد عثمان بن عفان (٣٥هـ/ ٦٥٦م) كما قتل فيها الراشد علي، فإن القوة وحدها هي التي كانت تقرر كيفية انتقال السلطة. وكان التعبير عن تلك القوة يأتي غالباً في صورة حروب أهلية. تمثل ذلك في الحروب الأهلية إبان الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية وبين يزيد والحسين وبين مروان

وعبدالله بن الزبير، كما تمثل في الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون إبني هرون الرشيد وأخوي المعتصم. كان النصر حليف المأمون في هذه الحرب وكان هو الأبن الأكبر للرشيد كما كان الأقدر ولكن والده الرشيد جعله الثاني في ولاية العهد. هذا الانتصار لم يغير في الأسرة الحاكمة، ولم يعن انتصار غير العرب على العرب، فقد استمرت الأسرة العباسية وهي عربية قرشية كما أسلفنا حاكمة. لقد كان من السهل العثور على ذوي الكفاية والإخلاص ممن تسهل قيادتهم من الرجال في الولايات الشرقية أكثر مما هي الحال في المناطق الحضرية المستقرة في العراق وغيرها.

ومع أن هذين القرنين قد تميزا بعدم استتباب الأمن إلاّ أنهما في مجالات أخرى قد أشبها قرني السلام اللذين شهدتهما الأمبراطورية الرومانية، إذ شهدا تطورات عظيمة في كل مناحي الحياة. ويكفي أن نشير هنا إلى أن بغداد قد بلغت أوج عظمتها خلال هذه الحقبة، كما عرفت هذه الحقبة عدداً من المدن العظيمة الإدارية والعلمية في سائر أرجاء الأمبراطورية الإسلامية، وغدت تلك المدن والمراكز الإدارية ساحات للعلم والتجارة والإدارة، وأخذت تطور خصائصها وتقاليدها المحلية تدريجياً. خمس من هذه المدن كانت عواصم للخلافة تلك هي: المدينة المنورة، والكوفة، ودمشق، وبغداد، ومرو.

إن هذه المدن التي كانت مثالاً للتمدن الإسلامي الإقليمي والتطور الإقتصادي والعمراني والثقافي ينبغي النظر إليها من خلال نظرة تأخذ في الاعتبار سرعة نشوء أمبراطورية مترامية

الأطراف، مع طرق مواصلات تقليدية وانتشار واسع للقبائل العربية مع نسبتهم الضئيلة مقارنة بالسكان المحليين، ومع انتشار نحل دينية متعددة، ومع وجود الكثير من الحركات الدينية. وكجزء من قلب بلاد العالم القديم المتمدن فإن التاريخ الاسلامي لأقاليم هذه المدن لا يمكن فهمه إلاّ إذا أخذنا في الاعتبار تاريخ تلك المناطق قبل الاسلام. وفي مثل هذه الظروف كان بروز عوامل التجزئة والتفكك من طبيعة الأشياء. وفي هذا الوقت أقام الأمويون دولة لهم في الأندلس، وأقام الأدارسة أسرة حاكمة في المغرب، واستبد الأغالبة بالحكم في إفريقيا، وكان الطاهريون يمهدون السبيل للسيطرة على خراسان. يشير إلى ذلك ابن خلدون عند حديثه عن «الدولة الإسلامية بعد افتراق الخلافة» حيث يقول:

«لم يزل أمر الإسلام جميعاً دولة واحدة أيام الخلفاء الأربعة وبني أمية من بعدهم لاجتماع عصبية العرب. ثم ظهر من بعد ذلك أمر الشيعة وهم دعاة لأهل البيت فعلت دعاة بني العباس على الأمر واستقلوا بخلافة الملك. ولحق القل من بني أمية بالأندلس فقام بأمرهم فيها من كان هنالك من مواليهم ومن هرب فلم يدخلوا في دعوة بني العباس. وانقسمت لذلك دولة الإسلام لدولتين لافتراق عصبية العرب. ثم ظهر دعاة أهل البيت بالمغرب والعراق من العلوية ونازعوا خلفاء بني العباس واستولوا على القاصية من النواحي، كالأدارسة بالمغرب الأقصى، والعبيديين بالقيروان ومصر، والقرامطة بالبحرين، والدواعي بطبرستان، والديلم والأطروش فيها من بعده.

وانقسمت دولة الإسلام بذلك دولاً متفرقة . . .» (ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠).

يضاف إلى ذلك آثار التمدن والنمو الاقتصادي التي بدت واضحة في الزراعة، والتجارة، والصناعات، وحياة المدن التي كان التعبير عنها واضحاً في الأدب وفي الحوليات ومكتشفات الآثار. ولم تكن نتيجتها الوحيدة هي فقط خلق مجتمع منفتح ومتسامح، ولكنها تعدت ذلك إلى تغيير نمط العلاقة بين الخلفاء ورعاياهم. إن اهتماماتهم لم تكن متجانسة، فأهل المدن من المتحضرين والمستقرين لم يكونوا مصدراً للقوى البشرية التي كان الخلفاء يحتاجونها لتثبيت دعائم سلطتهم وخوض حروبهم. وفي غيبة مهددات حقيقية للخلافة ولأنفسهم وعقيدتهم، وبعد اكتسابهم التدريجي لمعرفة واجباتهم وحقوقهم، فإن المسلمين لم يعودوا مثل أسلافهم الذين كانت الخلافة كدولة وكسلطة تعني لهم الكثير. ومن المهم أن نشير هنا في هذا الخصوص إلى أنه بينما كان إثنان من الفقهاء الذين سميت بأسمائهم المذاهب الفقهية السنية الأربعة، وهما الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل من معاصري المعتصم، فإن الآخرين مالك وأبوحنيفة قد سبقا عصر المعتصم، إذ توفي أبو حنيفة عام ١١٠هـ / ٧٣٠م ومالك توفي عام١٥٠هـ / ٧٦٧ م. كانت الدولة والمجتمع يتحركان في اتجاهات مختلفة تحكمها مصالح مختلفة بل ومتضادة أحياناً.

إن الفجوة بين الحكام والمحكومين لم تكن لتملأ أبداً. وعلى الرغم من إصرار الصفوة من علماء الدين، الذين بدأوا

يبرزون كقادة طبيعيين للمجتمع المسلم والأمة المسلمة، على الحاجة لقبول الرعية لحكامهم، فإن القوة لإرضاء الناس هي التي صارت الضمان للسلطة. حقاً لقد كان العلماء مبادرين إلى توضيح مهام وواجبات الحكام تجاه رعاياهم، وكانوا يرددون باستمرار بأنه ما من إثم يقع على الرعية إن هم خرجوا على طاعة الحاكم الذي يخرج عن طاعة الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولكن مفهوم الحق السياسي المدني وواجب الرعية في اختيار حكامهم كحق مغاير ومختلف لمفهوم الموافقة على الوضع الفعلي لم يتبلور بوضوح أبداً. لقد وصف القرآن الكريم المسلمين كمجتمع تمارس فيه الشورى لمعالجة شؤونهم «وأمرهم شورى بينهم» [الشورى، الآية ٣٨]، ومع ذلك فإن بعض العلماء كانوا يتجادلون حول الشورى أهي ملزمة أم معلمة فقط!.

وبعد المعتصم سرعان ما صار الخليفة أسيراً لقائده العسكري - أمير الأمراء - ولم تكن إلاّ حالات نادرة تثبت القاعدة إن كان الخليفة سيد نفسه، حتى انتهى به الأمر أن يقع تحت نفوذ السلاطين والملوك والأمراء إلى أن زالت دولة الخلافة العباسية على أيدي المغول في بغداد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م. وكما هو معلوم فإن سقوط خلافة بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م لم يعن نهاية الخلافة العباسية إذ ظلت خلافة ظل ضيفاً على المماليك في مصر منذ عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، حين هزم المماليك المغول في معركة عين جالوت الشهيرة، إلى أن سقطت مصر للسلطان العثماني سليم الأول عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

وكان بقاء الخلافة مهماً لإكساب السلطة والدولة شرعيتهما، وإن كان الخلفاء بلا سلطة ولا دولة.

لقد استمرت ولايات الدولة العباسية تحت حكم الأمراء والملوك والسلاطين والذين كانوا يصعدون للسلطة من بين صفوف الغزاة والمماليك، وحل عهد حكم قادة العسكر (عسكرة السلطة) في العالم الإسلامي منذ ذلك التاريخ. وظل قائماً في العديد من بلدانه حتى اليوم.

إن هذه الدراسة في بعض جوانب عصر المعتصم التي نقدمها هنا ليست مقصودة لذاتها فقط، ولكن وعلى وجه الخصوص لمعرفة هذه التطورات الهامة في تاريخ المسلمين.

الكتاب ومصادره

إن مصادر هذا الكتاب معروفة لدارسي التاريخ الإسلامي فقد كانت مجالاً لدراسات متعددة، إما لذاتها، أو كجزء من مسح عام للأدب التاريخي، أو كمصادر لدراسات محددة. من هذا على سبيل المثال لا الحصر ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية ومدخلات محرريها عن المؤلفين وأعمالهم، وكتاب مرجليوث «محاضرات عن المؤرخين المسلمين»، وكتاب روزنتال «تاريخ علم التاريخ الإسلامي»، وكتاب لويس وهولت «مؤرخو الشرق الأوسط» وغيرها. إعادة ما سبق تقريره ليس ضرورياً ولكن لعله من المفيد أن نلفت النظر إلى بعض الأعمال التي نشرت حديثاً كمصادر تضيف إلى المصادر المعلومة سلفاً، أو كدراسات تلقي بعض الضوء على الأوجه المختلفة للموضوعات التي عالجها هذا الكتاب.

وبما أن المرجع الرئيسي للفترة التي نؤرخ لها هو كتاب الطبري (المتوفى ٣١٠هـ / ٩٢٣م) «تاريخ الرسل والملوك»، فإن نشر أعمال أحد السابقين عليه، وأعمال اثنين من معاصريه ومن أمكنة غير بغداد - حيث كتب الطبري مؤلفه - لأمر هام. فما

كتبوه يلقي الضوء على كتاب الطبري ومصداقيته، ويضيف أو يعدل في المعلومات التي جاء بها، أو يعكس مراحل التطور التي مرت بها الكتابات التاريخية في عصره.

أول هؤلاء خليفة بن خياط العصفوري (٢٤٠ هـ / ٨٤٤م). لقد حقق الأستاذ سهيل ذكار كتاب خليفة بن خياط الموسوم (تاريخ خليفة بن خياط) ونشر في دمشق عام ١٩٦٨، كما حققه ونشره أ.د العمري في النجف في عام ١٩٦٧. كان خليفة سابقاً للطبري وكتب في البصرة، ومن هنا تأتي أهميته من حيث مكانته في تاريخ الكتابة التاريخية. وتميزت حوليات خليفة بالقِصر والبساطة، كما كانت نظرته ضيقة ومحددة ومحايدة. ومع أنه يذكر معظم الأحداث المهمة في تلك الفترة حتى وفاة المعتصم (٢٢٧هـ / ٨٤٢م)، ويسجل سياسة المأمون في ولاية العهد، إلاَّ أنه لا يساعد في مجال السياسة الدينية لهذين الخليفتين. إن المحنة التي كانت قمة تلك السياسات لا تجد لها مكاناً في كتابه، انظر (الفصل الأول -١-).

أما الثاني فهو يزيد بن محمد بن قاسم الأزدي (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) وقد سمى مؤلفه (تاريخ الموصل) حققه علي حبيبة، ونُشر في القاهرة عام ١٩٦٧م. كان الأزدي معاصراً للطبري، وكان مؤرخاً مثله، وكتب من الموصل يؤرخ للأحداث والشخصيات في الموصل والجزيرة، تلك الأحداث التي كان هو نفسه من صناعها. يظهر ذلك جلياً في كتاباته التي تمثل انحيازاً واضحاً للجزيرة و العرب. الأزدي لا يناقض الطبري في

أخباره، وعادة ما يتفقان على جوهر الموضوعات التي يعرضان لها، ولكن الأزدي يضيف في كتابه إلى هذا بعض الأحداث التي تعرض لها الطبري.

في الهجوم البيزنطي على زبطرة نجد الأزدي يسجل أن وفداً من الثغور والجزيرة وأرمينيا جاء إلى المعتصم ليشكو ويطلب الحماية، ويصفهم بأنهم كانوا يبكون ويتصايحون (فخرجوا صارخين) ولكن الأزدي لم يذكر استغاثة تلك المرأة التي صاحت: «وامعتصماه!» التي أوردها الطبري. إن الإشارة إلى تلك الاستغاثة التي حفلت بها المصادر اللاحقة له تضيف إلى الموقف الدرامي للحادثة والحملة التي صاحبتها، والتي ظهر من خلالها المعتصم كخليفة فارس مغوار (الفصل الخامس).

والمؤلف الثالث هو: أبو العرب محمد بن أحمد (٣٣٣هـ ٩٤٤م) كتب مؤلفه بمدينة القيروان بإفريقيا. وعنوان مؤلفه هو «كتاب المِحَن» حققه يحيى الجبوري، ونشر في بيروت عام ١٩٦٣م. والمِحَن جمع محنة وهي تعني ضمن أشياء أخر الابتلاء أو الاختبار أو الاغراء أو الكارثة.. ومن خلال هذا المعنى الواسع قدم المؤلف موضوعاته. وعرض كل المحن التي طالت المؤمنين بمن فيهم الرسول محمد ﷺ، كما عرض محنة الإمام أحمد بن حنبل بتوسع في كتابه في الصفحات ٤٣٨ الى ٤٤٤. لقد اختار المؤلف الإمام أحمد بن حنبل كواحد من سلسلة طويلة من الممتَحَنين من الرجال. والإمام أحمد كما هو معلوم هو إمام علماء الحديث في زمانه. والطبري، وهو يسجل

خطابات الخليفة المأمون التي قادت إلى المحنة، بما في ذلك محنة أحمد بن حنبل، سكت عما حدث للإمام أحمد في عهد المعتصم. ولعل ذلك كان للموقف العدائي لتلاميذ الإمام أحمد من الطبري. إن أهمية مؤلّف «أبو العرب» تأتي من حيث البعد الذي أعطاه للمحنة ولما يلغيه الكتاب على مدى انتشار المذهب الحنبلي السني وظهوره في مدينة بعيدة عن المركز هي مدينة القيروان في إفريقيا، أي تونس الآن.

إن أهم اطروحات هذا الكتاب الذي بين أيديكم هي: أزمة الخلافة (الفصل الأول)؛ وسيرة المعتصم حتى توليه للسلطة (الفصل الثاني)؛ تجنيد العسكر الجدد بعضهم من الترك ومنهم من كان رقيقاً (الفصل الثالث)؛ تأسيس عاصمة جديدة للخلافة هي: سامراء لسلامة الخليفة ولإيواء العسكر الجدد (الفصل الرابع)؛ الحوادث الرئيسية للعهد التي كانت تشير إلى دولة تعاني من الاضطراب وتشي بحقيقة ضعف (الفصل الخامس)؛ والخاتمة وهي تُلقي الضوء على ما حدث لاحقاً نتيجة لهذه التطورات. إن كل هذه الأطروحات قد سبقت معالجتها بطريقة أو بأخرى في كتب أو بحوث، والحق يُقال إن كل عهد الخلافة، العباسية في بغداد الممتد من عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م إلى عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م يلقى عناية متجددة من دارسي التاريخ الإسلامي. وقد تمخضت مجهودات الدارسين عن تحقيق عدة نتائج مهمة.. ففي مجال الطبيعة العامة للثورة العباسية والخلافة هناك أعمال عبد العزيز الدوري ولويس وكنيدي وعمر وغيرهم، أما في مجال المحن التي واجهتها الخلافة خاصة، هناك أعمال

كروني وهايندز، وفي موضوع فرق العسكر المماليك، فإن هناك بحوث حازت قصب السبق وهي بحوث ديفيد أيالون، وكُتب كروني وهاينز، وقد أصبحت سامراء بدورها مجالاً لدراسات عديدة مثلها مثل بغداد. وحول هذه الموضوعات هناك عدة بحوث منها بحوث الأساتذة: حوراني، العلي، لاسنر، نورث ادج وروجرز. أما بحوث ريكايا الجادة عن مشاكل الولايات الإيرانية خلال العهد العباسي، فإنها لا تضيف فقط إلى فهمنا لطبيعة تلك الولايات والحوادث التي وقعت فيها، ولكنها أيضاً تغير بصورة كاملة كل ما سبق من تقويم لتطور النظام السياسي في الإسلام، وتطور الثقافة الإسلامية خلال تلك العهود.

وهذا الكتاب يسعى لأن يضع كل هذا في منظوره الصحيح، وفي الوقت ذاته يسعى لتوضيح الظروف التي مهدت الطريق لنشوء طبقة من العسكر أصبحت ترجح للوصول إلى الخلافة، إلى أن انتهى الأمر بالعسكر للاستيلاء على السلطة بأنفسهم فيما عرف بفترة «أمرة الأمراء». أما الظروف التي أدت إلى نشوء السلطنات بعد ذلك بفترة وجيزة، كما أدت في النهاية إلى أفول نجم الخلافة ـ وكان ذلك مسألة وقت فقط ـ فإنها ستفرد بمعالجة قادمة في عمل مستقل إن شاء الله.

وبالله ومنه التوفيق.

الفصل الأول

إرث عهد الخليفة المأمون

١٩٨- ٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م

- ١ -

كان عهد الخليفة المعتصم في الكثير من جوانبه استمراراً لعهد الخليفة المأمون، ومعظم المشكلات التي كان على المعتصم أن يواجهها كانت من مخلفات الحقبة السابقة، فسياسة المعتصم الدينية وصِلته بالعلويين وصلته بالوزراء والكتاب الذين كانوا يمثلون الإدارة المدنية، وإلى حد كبير سياسته في انتقال الخلافة منه لإبنه الواثق، كانت كلها اتباعاً مخلصاً للمأمون. لقد حظي عهد المأمون بدراسات عامة وخاصة، ومع ذلك تبقى بعض جوانب سياسات المأمون - خاصة ما تعلق بالجيش والإدارة والخلافة - مثلها مثل بعض الأحداث الهامة في عصره في حاجة إلى مزيد من الاستقصاء.

بدأ عهد المأمون بحرب أهلية بينه وبين أخيه الأمين وانتهى بسلسلة من الحملات ضد الدولة البيزنطية، ومع ذلك كانت

ثورتا بابك الخرمي والزط. وخروج العديدين على الدولة. كما شهد العهد تسلط المعتزلة وسعيهم لفرض مذهبهم على الآخرين. وشهد العهد جلب عناصر جديدة بأعداد كبيرة للجيش، كما ظهر فيه تناول جديد لمسألة ولاية العهد. لقد حكم المأمون حقبة طويلة، إذ حكم لعشرين سنة (١٩٨هـ/ ٨١٣م، إلى ٢١٨هـ/ ٨٣٣م). شهدت الحقبة كلها منذ أيام الرشيد (١٧٠هـ / ٧٨٦م -١٩٣هـ /٨٠٩ م) اضطرابات متصلة شملت معظم ولايات الدولة العباسية؛ ولكن تلك الاضطرابات لم تكن مشاكل فترة حكم واحد بل كانت مشاكل الخلافة في عمومها.

كان المأمون يسعى من خلال مواجهة هذه المشاكل لإيجاد ما حسبه الحل الدائم لها. ومن هنا تأتي أهمية تلك الأحداث والسياسات التي اتبعها المأمون لمعالجتها. ومع أن أسرة بني العباس كانت تواجه مشكلة ولاية العهد أي انتقال السلطة داخلها ومع آل البيت من العلويين، فإن الخلافة كانت مواجهة أيضاً بالمشاكل الناجمة عن سعيها لفرض سلطتها على أمبراطورية مترامية الأطراف، وعلى مناطق حادة التباين، ومجتمع مدني متنام[١]. وفي هذه الأثناء كان الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بدورهما يتصارعان مع الثقافات الفارسية الهلينية ونفوذ ديانات أخر[٢].

---

(١) F. Gabrieli: **al-Mamun e gli Alidi** passim; Gibb: The Evolution; of Government; idem, Government and Islam.

(٢) Gibb: **The Social Significance**; Goldziher: **Muh Studien**, P. 176-207.

هذه المشاكل كانت من طبيعة تطور الأمبراطورية الإسلامية التي سريعاً ما وجدت نفسها وهي تضم داخل حدودها مناطق وديانات وشعوباً وثقافات مختلفة. وقد كان من الطبيعي أنه بعد قيام الثورة العباسية مع كل ما سبقها وما تلاها من تطور اقتصادي واجتماعي وعمراني، واعتناق أعداد كبيرة من الناس للديانة الإسلامية، واندماج أولئك في المجتمع، أن بدأ التنافر والتنافس بين الديانات والمناطق والثقافات يطفو إلى السطح(١). لقد عُرف المأمون بإدراكه لتلك المشاكل، وبدوره وإسهامه في الحياة الفكرية لعصره الذي وجدت فيه هذه الصراعات أحسن تعبير(٢). لكن يبدو أن المشاكل التي كانت مثار اهتمام المأمون بالدرجة الأولى هي مشاكل السياسة، وهي مشاكل كانت بالنسبة له ملحة وعاجلة ومباشرة. وفي هذا الصدد ينبغي ألّا تُغفل تجربة المأمون الشخصية في ولاية العهد وفي الحرب الأهلية وما تلاها من أحداث(٣).

وإذا كانت سياسة الخليفة هرون الرشيد في عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة: الأمين ثم المأمون ثم القاسم على التوالي مسؤولة جزئياً عن الحرب الأهلية التي ثارت بين الأمين والمأمون (١٩٣-١٩٨هـ / ٨١٣ ـ ٨٠٩م)، فإنه وبالقدر نفسه

(١) Becker: **Islam Studien**, p. 13; الدوري: العصر العباسي الأول، ص ٤٠-٤٥.

(٢) انظر الرفاعي: عصر المأمون.

(٣) See: Sidqi Hamdi, **The Civil War between Amin and Mamun**; Gabrieli, F:**La Succession**

كانت تلك الحرب نتيجة لطموح الإبنيْن الأكبرين وطموح حزبيهما، وأصبحت الحرب ممكنة لأن العراق «الولاية الحاكمة ومقر الخليفة» لم تكن الأقوى اقتصادياً أو عسكرياً أو المتماسكة سياسياً واجتماعياً[(١)]. إن الواقع يظهر أن توزيع الثروة والسلطة في الأمبراطورية العباسية لم يكن ليتيح لأية ولاية منفردة أن تكون هي الأقوى على سائر الولايات مجتمعة. وهذه الحقيقة تجعل المرء ميالاً للإعتقاد بأن الرشيد ربما كان يفكر في تأمين بقاء السلطة في الولايات وفي حاضرة الدولة في يد أسرته عندما قسم الأمبراطورية بين أبنائه الثلاثة، وجعل للأمين العراق، وللمأمون خراسان، وللقاسم الشام ومصر. ولكن كان من الصعوبة بمكان أن يكون ذلك هو الحل، إن هرون الرشيد كما يقول ابن الأثير لم يتعظ من تجربته الشخصية مع شقيقه الهادي الذي كان حريصاً جداً على التخلص منه في ظروف مشابهة[(٢)].

كان الصراع بين الأمين والمأمون واضحاً في عهد الرشيد نفسه، ولكنه غدا حاداً بعد وفاته مباشرةً. أبدى الأمين عقب توليه الخلافة مباشرة تجاهلاً لوصية والده وللعهود التي قطعها على نفسه في وثيقة الكعبة الشهيرة[(٣)]. كانت تلك الوثيقة تتضمن التزاماً بمنح المأمون كامل السيطرة على خراسان مع الجيش العباسي، كما تعطيه الحق في تحديد ولاية العهد إذا ما اعتلى

(١) الطبري: ص ٦٥٣.
(٢) الكامل ج ٦، ص ٦٥.
(٣) الطبري: ص ٦٥٥-٦٦٠؛ المسعودي: ج ٦، ص ٣٢٦.

سدة الخلافة بما يمكنه أن يحجب ولاية العهد عن أخيه القاسم[1]. ولم يفاجأ المأمون وحزبه بتحركات الأمين العدائية. وبدأ الصراع بين الأخوين من خلال حرب رسائل متبادلة استمرت لعامين (١٩٣-١٩٥هـ/٨٠٨-٨١١م) ثم تحولت بعد ذلك إلى نزاع مسلح (١٩٥-١٩٨هـ/ ٨١١-٨١٣م) وانتهت بانتصار المأمون على الأمين وبانتصار خراسان على العراق الولاية الحاكمة.

ومن المؤكد أن القضايا التي أثارها ذلك النزاع لم تكن متعلقة فقط بولاية العهد وانتقال السلطة. ولكنها تعلقت وبقدر كبير بوحدة الدولة العباسية، ووحدة الخلافة العباسية، ووضع الخليفة العباسي بين ولاته وفي ولايات دولته. كانت محاولات الأمين لمعالجة هذه الأمور رغم مخالفتها لعهود قطعها على نفسه محاولة من قبل الخليفة لفرض سلطته على رعاياه وأقاليم دولته[2]. وأنه من الضروري أن نتذكر في هذا الصدد أنه ولو أن الحرب قد بدأت بعد عامين من وفاة هرون الرشيد إلا أن اقتسام الأمبراطورية والخلافة قد حدث فور وفاته[3]. لم يكن المأمون حاكماً مستقلاً لخراسان فقط ولا ولياً للعهد وفق وصية والده

---

(١) الطبري: ص ٦٥٨-٦٥٩ ؛ المسعودي: ج ٦ ص ٣٢٨ ملفت للنظر أن هذا يفترض بقاء المأمون بعد الأمين .

(٢) قيل إن الإمام الشافعي كان يرى أنه من حق المأمون تغيير ولاية العهد باعتباره الخليفة لما يراه مصلحة الأمة. عبد الحسين: مواقف، ص ٢٩١-٢٩٢.

(٣) الطبري: ص ٧٦٥-٧٦٦ .

وصاحب حق في تعيين ولي عهده، بل قد نودي به خليفة في حياة أخيه الأمين[١]. وهكذا صار هناك خليفتان عباسيان للدولة العباسية، وبذلك أصبحت خراسان ولأول مرة منذ ضمها إلى الخلافة الإسلامية مستقلة وتحت خليفة عباسي منافس للخليفة العباسي المعلن، وهما أخوان من أبناء هرون الرشيد.

إن هذه الحقبة التي بدأت باستقلال خراسان وعدائها للعراق متبوعة بانتصارها الذي جعلها الولاية الحاكمة للعباسيين خلال الفترة التي كانت فيها مرو عاصمة للمأمون (١٩٨-٢٠٤هـ/ ٨١٣-٨٢٠م)، كانت حقبة هامة بالنسبة للتطورات اللاحقة في تلك المنطقة. لقد كان المأمون رائداً في الاستقلال بالسلطة في إقليم خراسان وهو ما قلّده الطاهريون في عهده. إن ما فعله المأمون في خراسان أكد الاتجاه نحو ما أسماه ابن خلدون إستبداد الولاة والاستقلال بالسلطة اللذين ظهرا في عهد الرشيد في شمال أفريقيا مع الأغالبة، وفي خراسان نفسها حينما واجه علي ابن عيسى بن ماهان ثورة كانت تهدد أي حاكم عباسي في المنطقة[٢].

لم تقتصر انعكاسات هذه التطورات على الميدان السياسي وحده، ولكنها كانت في الوقت نفسه تؤثر في الإدارة والمجالات المالية والثقافية. وإذا كانت العراق مركز السلطة قد عانت فيما بعد من هذه التطورات إلاّ أن قيام مراكز حكم

---

(١) الطبري: ص ١١٤٠ ؛ المسعودي: ج ٧، ص ٢.

(٢) انظر: الهامش (٢) في الصفحة التالية.

إقليمية فيما بعد كان له الأثر المفيد على الإدارة والثقافة والتجارة في الأقاليم. وإن تكدس الثروة و تكريس الحياة الثقافية في بغداد قد تلاه الاحتفاظ بالثروات الإقليمية عند ولاتها وكانت الثروة فعالة في ازدهار التجارة والعمران والثقافة. وتأثراً ببغداد ومنافسةً لها، فإن العواصم الإقليمية والحواضر صارت قادرة على الحفاظ على وحدة الثقافة الإسلامية مع إفساح المجال للخصائص المحلية(١).

كما أن الطريقة التي أديرت بها الحرب الأهلية وما ألقته من أضواء على تطور المجتمع في تلك الفترة كانت أهم من بروز تلك الإقليمية. ومع أن الأمور التي كانت تثار كانت عظيمة الخطر إلاّ أنه يبدو أن أهميتها كانت مثار اهتمام الدوائر الحاكمة وحدها دون سواها. يضاف إلى الجوانب الإقليمية في هذه الحالة المزايا المادية التي صاحبت تحول خراسان إلى ولاية حاكمة، مما جعل الخراسانيين عامة أنصاراً للمأمون(٢)؛ فيما تقاسم تجار بغداد وسكانها وفتيانها مع القوات النظامية عبء الدفاع عن بغداد في مواجهة جيوش طاهر بن الحسين. كانت

(١) Gibb: **An Interpretation**, p.39.

(٢) كانت سياسات المأمون في خراسان مغايرة تماماً لسياسات علي بن عيسى ابن ماهان والي الرشيد عليها، تلك السياسات التي تسببت في العديد من الثورات أهمها ثورة رافع بن الليث. وقد سعى المأمون لاستمالة رافع إليه. ولم تبدأ الحرب بينه وبين الأمين إلاّ بعد السيطرة على الأوضاع في خراسان.; Barthold: **Turkestan**-pp. 200-8 (الطبري: ص ١١٤٢ ـ يورد أن أحد الأعراب قال للمأمون «كن لعرب سوريا كما أنت لعجم خراسان»)؛ طيفور: كتاب بغداد، ص ١٤٤- ١٤٥ يورد الخبر نفسه.

الحرب أساساً حرب صراع على السلطة بين الأمين والمأمون. وإذا قارنا هذه الحرب بالحروب الأهلية السابقة في الإسلام فإن الأمور محل الخلاف لم تكن هي ذات المسائل الدينية المعقدة ولا المسائل الخلافية والفكرية والاجتماعية الحادة؛ فالمجتمع المسلم لم يكن في عمومه معنياً بما يجري إلاّ في حدود ضيقة جداً. لقد ضمنت سياسات المأمون المالية المتحررة في خراسان ولاء أهلها له، ورعايته المنتظمة لجنده ضمنت له ولاءهم ونصرهم إياه. واحتفظت أعطيات الجند للأمين بجنده أيضاً، ويذهب البعض إلى أن سياسته الخرقاء المسرفة التي بدد بها ثروته أضرت بمكانته[1]. وفي الواقع أن الذي خلع الأمين أولاً هو قائده حسين بن علي بن عيسى، كما ثارت عليه بعض وحداته العسكرية، وانقلبت ضده وكانت على استعداد أن تبدل ولاءها لصالح المأمون حينما بدا واضحاً أنه سيكون المنتصر.

بروز هذا الجانب المادي مع الجانب السياسي من الصراع غدا واضحاً جداً في معارضة بغداد لجيوش طاهر بن الحسين. وطاهر كان يعلم أن صمود بغداد يرتكز أساساً على نشاطاتها التجارية أكثر مما يرتكز على أسوارها وقواتها المدافعة، لذلك قرر طاهر محاصرتها. وفي خلال الحصار الطويل تقاسم عبء الدفاع عنها تجارها وسكانها وفتيانها خاصة من العراة والعيارين ـ وهم متطوعون من الشباب نظموا أنفسهم للدفاع عن المدينة، وتصدوا لمقابلة احتياجات الناس وكانوا يتولون توزيع الأغذية

---

(١) الطبري: ص ٨٦٥ ؛ الريس: الخراج، ص ٤٤٨-٤٥١ .

والمواد التموينية خلال فترات الاضراب والفوضى ـ إن كل هؤلاء لم يكونوا بالطبع فوق مستوى الشبهات في مسلكهم، لذلك فقد أُطلق عليهم اسم «العراة والعيارين» تندراً[1]. والطبري يروي عن أحدهم قوله:

(إذا ما العيش ساعدنا فلسنا

نبالي بعد من كان الإماما)[2]

إذا كانت بغداد تحتفظ بمكانتها كعاصمة وتستمر مكاناً للبلاط الحاكم ومركزاً للتجارة، فإن السؤال عمن يصبح بعد ذلك إماماً أو من يكون خليفة غدا أمراً قليل الأهمية إن كان ثمة أهمية له، إنه لم يكن هناك تهديد بتغيير الأسرة الحاكمة في الظروف السائدة وقتها، ولم يكن ثمة خوف على بقاء الخلافة. بيد أن أسباب عدم المبالاة الواضحة لهذا الأمر لم تكن لتبرر في مجال السياسة وحدها، فقد تجلّى ذلك في التطورالذي حدث في المجال الاقتصادي والاجتماعي. والشواهد تدل على أن ذلك العصر كان عصر يسر مادي وانشغال بالأمور الدنيوية. إن ما حدث من ازدهار في مجال الزراعة والتوسع في العمران والصناعة والحرف لهو أوضح دلالة على ذلك. كما كان يفصح عن ذلك نشوء مدن جديدة وامتداد مدن أخرى كانت قائمة من

(١) الطبري: ٨٦٧-٩٠٨؛ المسعودي: ج ٦، ص ٤٥٢؛ Cahen: Mouvement Populaires, pp. 34-6؛ الدوري: نشوء الاصناف، ص ١٤٣؛ يذهب شعبان إلى أن اشتقاق كلمة عيّار من عِيار.

(٢) الطبري: ص ٨٩٠.

قبل[١]. إن الوصف التفصيلي للمدن القديمة والمناطق والشعوب وطرق التجارة والمنتجات والحرف المضمن في أدب البلدان[٢]، يدل نفسه بوضوح على هذه التطورات، وهو فوق ذلك لا يشير إلى الثراء الواسع العريض فقط، ولكنه يقوم دليلاً على روح الانتماء إلى عالم واسع متحد رغم الخلافات ورغم تعدد الشعوب وتنوع المناطق. إن الكتابات عن «الخراج» والتي عالجت كل المسائل المتعلقة بموارد الدولة المالية والضرائب، كانت علامة مميزة لهذه الحقبة وكانت تشير إلى إلتقاء إهتمامات الحكام والدوائر العلمية أو تعارضها حول موضوع أصبح هو أساس العلاقة بين الحكام ورعاياهم، ذلك هو الخراج.

إن مما يستوجب الالتفات هنا أن نشير إلى أن هذا الموضوع قد تمت معالجته من خلال كتابات ذلك العصر من زاويتين مختلفتين، ويمكن وصف إحداهما بأنها إدارية ويمثلها كتاب «الخراج» لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم قاضي القضاة المتوفى عام ٧٩٨م. وقد كان كتابه عبارة عن مرشد تفصيلي بقواعد قننت وفق المذهب الحنفي. والكتاب أُلف بناءً على طلب من الخليفة هرون الرشيد. أما الزاوية الأخرى فقد كانت معنية في المقام الأول بالشريعة وجاءت في أسلوب تقليدي

---

(١) See X. de Planhol: **The Muslim World; al-Fakhri**, pp. 201-2; Goitein: **The Rise**; B.Lewis, **An Epistle**.

(٢) البلدان جمع بلد، وأدب البلدان المشار إليه هو جمع بين الجغرافيا وأدب الرحلة والأسفار، وعادة ما يتضمن معلومات تاريخية واثنية واجتماعية واقتصادية هامة. انظر: ياقوت الحموي، واليعقوبي.

ويمثلها كتاب القاسم بن سلام المتوفى عام ٨٣٨م وقد سمى كتابه «كتاب الأموال». لم تكن لابن سلام صلة بالدوائر الحاكمة، لذلك فقد كان يمثل أغلبية طبقة العلماء الذين نأوا بأنفسهم عن الخدمة في الدوائر الحكومية. ولم يقتصر أيّ من الكتابين على المسائل المالية وحدها وإنما عالج عدة موضوعات أخر مثل: العلاقات الخارجية خاصة مع الدولة البيزنطية، وموضوع الرعايا غير المسلمين في الدولة المسلمة. لقد كان أبو يوسف عظيم الثقة في مؤلفه وقد وصف فيه الخلفاء بأنهم «ظلُّ اللهِ في أرضه»، وكان بالغ النفوذ والتأثير على الخليفة الرشيد إلى الحد الذي جعل الرشيد يوقف الحرب، وبذلك توصل إلى عقد اتفاق سلام مع الأمبراطور البيزنطي وتبادلا العلاقات الودية(١). وعلى عكس ذلك، فقد كانت روح المؤلف الآخر مذكرة بالجهاد ومؤكدة للوضع الخاص للمسلمين في الدولة الإسلامية(٢). لقد كانت هذه الخلافات عظيمة الأهمية، وهي نفسها تبدو واضحة في بعض سياسات المأمون الداخلية والخارجية كما سيتضح لاحقاً.

لقد تجلت صورة ذلك المجتمع وسماته الاجتماعية والثقافية ومشاكله المختلفة التي انشغل بها بصورة واضحة في كتابات

---

(١) أبو يوسف: الخراج، ص ٦؛ Vasiliev, I, p. 90; Canard: **Quelques a-cote, p. 103**

(٢) يحتوي كتاب الخراج لقدامة بن جعفر على معلومات عن أحوال الولايات مع بعض المعلومات الجغرافية والتاريخية، والفقه فيها يأتي عرضاً. توفي قدامة عام ٩٤٨م.

كاتب معاصر هو الجاحظ[١]، وفي الشعر يجد المرء آثار تلك الرفاهية في شعر الشعراء ذوي الأصول العربية من حيث تعبيرهم عن تذوق أشياء مادية أو إجتماعية أو فكرية بصورة تخالف نظرة أسلافهم[٢]. ولم تخلُ أخبار تلك الحقبة من معلومات توضح هذا الجانب. والإشارة العارضة التي أوردها الطبري عن غلاء أسعار القمح في بغداد والبصرة والكوفة في عام ٢٠٧هـ/ ٨٢٢ - ٨٢٣م تعبر أفصح تعبير عن ثبات الأسعار عموماً[٣].

هذا التطور الذي مهد مع أمور أخرى إلى قيام الثورة العباسية نفسها، لم يكن يتهدده الصراع على السلطة بين أفراد العائلة الحاكمة خلال الحرب الأهلية إلّا في نطاق إقليمي وشخصي ضيق، ومن ثم كان عدم انغماس السواد الأعظم من المجتمع في تلك الأحداث. ومع الأسلمة والتعريب مضافاً إليها طبيعة المجتمع المسلم الحريص على المساواة بين شعوبه تحت حكم العباسيين والأخذ بالشريعة، أخذ المجتمع المسلم يتابع مشاكله اليومية مع إفساح المجال لطاقات توظف في مجال تدافع الثقافات بعضها البعض، واختلاف أساليب العيش التي كانت

(١) For a list of his works see Pellat: **Essai d inventaire**, or Pellat, **The Life and Works of Jahiz**.

(٢) البستاني: منتقيات، ص ١٠٦-١٠٧: أبوتمام يصف الربيع، ص ١٣٥؛ دعبل لذة العيش؛ ص ٢٠٧-٢١١؛ البحتري: إيوان كسرى.

(٣) الطبري: ص ١٠٦٦. الزمان والمكان مهمان. مناطق القمح في الشمال في الشام ومصر كانتا في فترة اضطراب مما أثر في إمدادات القمح للعراق في الجنوب فغلت الأسعار.

حركتا المعتزلة والشعوبية تعبران عنها أصدق تعبير[1]. لقد عبرت هاتان الفئتان ـ إذا نحينا جانباً الدور الذي لعبه المعتزلة في المحنة ـ عن مجتمع متسامح ومرن في مجمله، كان يجد في الحوار بديلاً عن المواجهة المتزمتة والعدوانية.

إن الذين أختاروا أن يطبقوا معايير عرقية أو وطنية[2] على هذه المشاكل، أو على انتصار المأمون، لم يتجاهلوا فقط هذه العوامل الحاسمة ولكنهم تجاهلوا أيضاً التركيبة الحقيقية لهذه العناصر التي انتصرت للمأمون. ويكفي أن نشير هنا إلى أن الخراسانيين الذين أعانوا المأمون وحققوا انتصاراته كانوا من الفرس والعرب والترك أو من خليط من كل هذه المجموعات، وأن الحجاز قد ساندت المأمون أيضاً، وأن قبيلة خزاعة العربية كما يؤكد ذلك الشاعر دعبل (الخزاعي) كانت تفاخر بأنهم كانوا قتلة الأمين. ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى أن مناصري الأمين لم يكونوا جميعاً من مجموعة عرقية واحدة.

ـ ٢ ـ

خلافة المأمون الحقيقية بدأت بنهاية الحرب الأهلية في عام ١٩٨ هـ/ ٨١٤م واستمرت حتى عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م. لقد أتاح انتصار المأمون على الأمين الفرصة للمأمون ليوحد الخلافة

(١) For the Shuubiyya, see: Goldziher's views in his **Muh. Studien**, pp. 147-77, and Gibb's views in his **The Social Significance of the Shuubiyya**

(٢) Goldziher: p.149؛ م. أ. أحمد: الخلافة والدولة.

العباسية ولكنه تحمل أيضاً عبء مواجهة المشاكل الناجمة عن ذلك التوحيد، وكان من ضمن هذه المشاكل مسألة السلطة في علاقتها بالجيش والذي صار بعد اتساع الهوة تدريجياً بين المجتمع وحكامه، بالإضافة إلى الأجهزة الإدارية، السند الحقيقي لحكم العباسيين[1]. حتى وفاة الرشيد عام ١٩٣هـ/ ٨٠٩م لم يكن الجيش أداة في يد الخليفة العباسي فقط، ولكنه كان ذراعاً من أذرعة الدعوة لحكم العباسيين، وعندما اندلعت الحرب بين الأمين والمأمون ـ ولم تكن مسألة الدعوة جزءاً منها ـ تغير الوضع تماماً[2].

وفي وقت لم تكن الخلافة العباسية في خطر وجد الجيش نفسه متورطاً في حرب صراع على السلطة. وغدا واضحاً خلال تلك الحرب أن ولاء العسكر لم يكن للخليفة أو الحاكم ولا حتى للمنطقة، ولكن كان ولاءً للقائد المباشر وللأعطيات الأسخى[3]. يضاف إلى ذلك أن قدامى الجند قد انقسموا بين الجانبين المتحاربين في الحرب الأهلية بين الأخوين. وانغمس كل فريق في جانب من جوانب تلك الحرب، وأصبح الولاء النهائي لأي من الخليفتين مشكوكاً فيه. وعلى الجانب الآخر فإن انعدام الإهتمام بما يجري بين أفراد الأسرة الحاكمة الذي

---

(١) يذكر الطبري أنهم ساندوا المأمون لأنه مظلوم مبغي عليه (الطبري: ص٨٦١).

(٢) الطبري: ص ١١٥٥٠؛ البستاني: مقتنيات، ص ١٢١.

(٣) الطبري: ص ٧٨٢-٧٨٥. المزيد عن الجيش في الفصل الرابع.

بدا واضحاً لدى السواد الأعظم من رعايا الدولة العباسية، جعل من الضروري اعتماد الحاكم على جنود نظاميين محترفين[١].

إن هذا الموقف الذي زاد من تأزمه مخاطر الانتفاضات العديدة داخل الأمبراطورية العباسية مع التهديد الخارجي كان وراء السياسات التي اتبعها المأمون في تعامله مع الجيش. وقد تمثلت تلك السياسة أولاً في استيعاب عناصر جديدة في الجيش، وبما أن هذه العناصر كانت في معظمها مجلوبة من الأقاليم الشرقية، فقد أطلق عليها المتأخرون من الكتاب اسم «الترك» دون تمييز ونسبوها إلى المعتصم.

في البداية تشكلت القوات العباسية من الخراسانية، والأبناء، والموالي.. وبالطبع فقد كانت هناك بعض القوات من العرب. وكان الخراسانية خليطاً من العرب والفرس وقد أطلق عليهم الإسم نسبة إلى خراسان، حيث هبوا لنصرة الثورة العباسية منذ انطلاقها أو بعد قيامها مباشرة، وشكلوا مع أخلافهم «الأبناء» عصب الجيش العباسي، ومن ثم عملوا في مجالات خدمة الدولة في العاصمة والأقاليم. وهكذا صار «الأبناء» يلقبون «بأبناء الدولة» أو «أبناء الجيش»، وتحت هذين الإسمين كان للأبناء مكانة بارزة في بغداد في الجيش و دوائر الحكم وفي الدوائر الأدبية والدوائر التجارية مما جعل الناس يسمون بغداد (خراسان العراق). ولكن ومنذ عهد السفاح

(١) Goitein: A Turning Point p.122. الحرص على عدم انتقال الخلافة للعلويين هو الذي حرك مناصري العباسيين للاحتفاظ بالخلافة في بيت العباس.

(١٣٢هـ-١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٤م)، وعهد المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م) وبسبب ما حدث لبعض أهم وأشهر قادة الخراسانية مثل: «سليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراساني» فقد اضطر الخلفاء للتحوط ضد ثوراتهم وتطرفهم إلى التخلص منهم ومن دوائر نفوذهم. ولهذا السبب بدأ صعود نجم الموالي منذ عهد المنصور، لقد كان موالي العباسيين من الرجال الأحرار أو العتقاء وكانوا في معظمهم من غير العرب. وقد استوعبهم الخلفاء في خدمتهم في البلاط والدواوين أو رؤساء لأجهزتهم الأمنية «مثل صاحب البريد». وعين بعضهم في الإدارات المالية أو في إدارة الولايات. وبالطبع فقد كان ذلك مدعاة لسخط الأبناء وحسدهم لهؤلاء الموالي الذين حلوا محلهم. ونتيجة لتضافر كل هذه الأسباب، وما أفرزه وجود هذه المجموعات أصبح الطريق ممهداً لظهور العناصر الجديدة القادمة من الشرق[١].

ومن المهم أن تتم التفرقة ليس بين الترك الذين جاؤوا ضمن العناصر الجديدة وأولئك الترك الذين كانوا من قبل في خراسان وبلاد ما وراء النهر منذ أزمان بعيدة سابقة لغزو العرب لتلك الديار فحسب، بل لابد من التفرقة أيضاً بين هؤلاء وبين الذين

---

(١) C.Cahen: **The Turkish Invasion**, pp. 135-7; Barthold: **Turkestan**, pp. 180-203; Frye and Sayili: Turks in Khurasan and; Transoxania pp. 180-203; الجاحظ: رسالة في مناقب الترك ؛ الطبري: ص ١٠٦٧ ؛ طيفور: كتاب بغداد، ج ٧، ص ١٢ (تحقيق كلر)، ص ٨٠ (تحقيق كوثري).

سبق لهم أن التحقوا بخدمة الخلفاء العباسيين منذ عهد الخليفة المنصور. وإذا كان من الممكن اعتبار الأخيرين ممثلين للعالم الإسلامي في تلك المناطق في ذلك الحين، فإن هؤلاء قد كانوا في الجملة من الوافدين الجدد عليه. لقد برزت هذه التفرقة بوضوح في رسالة للجاحظ عن الترك[1]. لقد كان منسجماً تماماً مع التحول نحو الجنود المحترفين أن صار الجدل في رسالة الجاحظ حول الخبرة لا الولاء وحده، كما كان الحال في عهد ابن المقفع حينما كتب «رسالة في الصحابة» ووجهها للخليفة المنصور. كانت مقارنة الجاحظ الترك بالخوارج علامة بارزة، إذ كانوا في مثل شجاعتهم ولكنهم كانوا من عناصر بدوية يصعب قيادتها. وهنا كان خطرهم الذي بدا واضحاً في عهود لاحقة. لقد تم ضمهم على عجل للجيش العباسي حينما كانت الإدارة تفتقر إلى رجال مقتدرين وسياسات حكيمة، وتفاقم الخطر عندما وجد الخليفة نفسه وهو يسعى لتأمين نفسه ضد مخاطر الاقليمية والولاء للقادة المباشرين، يزيد في اعتماده على العناصر الجديدة، ذلك أن خطر هذه العناصر الجديدة في الجيش والإدارة سيطال الخليفة نفسه[2].

---

(١) Shaban, II, pp. 9-10, 30; Kennedy; 104. Also. Jahiz, **Manaqib**.

(٢) مع أن طاهر بن الحسين جاهر بالخروج على المأمون بحذف ذكره في الخطبة فإن المأمون عمل على قتله سراً. أما مقتل هرثمة بن أعين فقد أعقبه العديد من الثورات على المأمون. الطبري: ص ١٠٤٢، ١٠٦٢ ؛ ياقوت: البلدان، ص ٩٠-٩١؛ Bala mi, IV: pp504-6, 521 ; E.I.I.S.V. Mutawakkil.

الاعتماد على العسكر، وعلى وجه التحديد استيعاب الترك في الجيش بأعداد كبيرة يعتبر عموماً أفدح أخطاء المعتصم[1]. ومع ذلك فإن كل الشواهد تدل على أن التغيير مثله مثل استيعاب الترك في الجيش قد تم في عهد المأمون[2]. إن الوصف الذي سجله الكتاب لتلك الفترة يوحي بأن الترك كانوا أنسب العناصر لحماية الخليفة والخلافة في ذلك الوقت. ورسالة الجاحظ المشار إليها أعلاه كانت تشير إلى جدل ثار بسبب سؤال طرحه المأمون على مجموعة من القادة العسكريين، إذ سألهم عمن يفضلون ملاقاته في حالة قتال: مائة من الترك أو مائة من الخوارج؟ أجمع القادة ممن وجه إليهم السؤال بأنهم يفضلون ملاقاة مائة من الترك إلاّ حميد بن عبد الحميد الذي قال إنه يفضل ملاقاة الخوارج. ومضت الرسالة تعدد مزايا الترك كمقاتلين. ومما يلفت الانتباه ما جاء متعلقاً بمسألة الولاء والحكم في رسالة الجاحظ إذ يقول:

«والملك يحتاج الى أواخ شداد وأسباب متان، ومن أمتنها سبباً وأعمقها نفعاً ما ثبته في نصابه، ومكنه في قراره، وزاده في تمكينه وبهائه، وقطع أسباب المطمعة فيه، ونزع أيادي البغاة من الإشارة إليه فضلاً عن البسط عليه»[3].

لقد كانت هذه هي المشاكل بعينها تقريباً التي كانت تواجه المأمون. وكانت الاستعاضة عن العسكر القديم التي فرضتها

---

(1) حسن ابراهيم حسن: التاريخ، ج ٣، ص ١٧١-١٧٢. الفصل الثالث ادناه.

(2) Goitein: **A Turning point** p. 122.

(3) الجاحظ: رسالة في مناقب الترك، ص ٤٥.

الظروف والأحداث واضحة في الرتب العليا للجيش، إذ كان المأمون يبحث عن رجال يثق بهم. وتمهد الطريق لذلك بالتخلص من القادة القدامى. قتل هرثمة بن أعين، وتمرد أبو السرايا الذي ترك قائداً على قوات العراق ولكنه قتل أيضاً. وتوفي طاهر بن الحسين ـ حاكم خراسان ـ في ظروف مريبة. وحل محل هؤلاء المعتصم أخو الخليفة والعباس ابنه، وظهر الافشين والمازيار بن قارن الذي اعتنق الإسلام حديثاً، وكان ولاؤه الشخصي للمأمون[1]. ولعله ليس غريباً أن نكتشف أن المحارب الوحيد من القادة القدامى الذي ظل على قيد الحياة وهو عجيف بن عنبسة لقي المصير نفسه الذي لقيه الآخرون على يد المعتصم.

وأكثر من هذا، فإنه من الملاحظ أن كثيرين من الرجال الذين كانت لهم الحظوة في عهد المعتصم كانوا ممن انخرطوا في خدمة الدولة في عهد المأمون. ويذكر الطبري في هذه الفترة إسم كل من بغا وأشناس إلى جانب المعتصم، الذي كانت الإشارة إليه تأتي غالباً وهو مع غلمانه الترك:

«وكان مع أبي إسحاق غلمان له أتراك فلقوا الشراة فطعن رجل من الأعراب أبا إسحاق فحامى عنه غلام له تركي وقال له: يامولاي «مرا أشناس» أي أعرفني فسماه يومئذ أشناس»[2].

ولم يكن ذلك التركي سوى أشناس الذي أصبح فيما بعد

(١) Cf.E.M. Wright, **Babak of Badhdh**.

(٢) الطبري: ص ١٠٦٧؛ تجارب الأمم، ج ٦، ص ٣٤٧.

قائداً عظيماً من قواد المعتصم[١]. إن القصة تصوّر الصلة بين المعتصم وغلمانه من الترك، كما توضح ولاءهم وشجاعتهم مما انعكس فيما بعد على ما حققه أشناس من مجد. أو لربما كان ذلك إشادة من الطبري بمعاصره أشناس. أما الحادثة بالنسبة لدارسي تاريخ العباسيين فإنها تشير إلى حقيقة مؤداها أن صعود نجم الترك إنما تأكد في عهد المأمون.

- ٣ -

إذا كان إدخال عناصر جديدة في الجيش في عهد المأمون وتم بأعداد أكبر نسبياً في عهد المعتصم قد كان ضرورياً، فإن غلبتهم ورجحان كفتهم وتدخلهم في شؤون الدولة مؤخراً لا يمكن تفسيره إلاّ إذا تعرضنا بالتحليل للمشاكل الخطرة التي أحاطت بإدارة دولة العباسيين في عهود سابقة[٢]. ولتقويم هذه الأمور لابد أن يؤخذ في الاعتبار مصائر كثير من كبار رجال الدولة من الوزراء والكتاب ومن في مرتبتهم. لقد كان لتأثير التقاليد السامية والساسانية، مضافاً إليها الدعم الذي لقيه الخلفاء العباسيون من الدوائر الدينية، دور في أن يكون للعباسيين نفوذ أقوى نظرياً من نفوذ الخلفاء الأمويين، وإن كان بنو أمية أنفسهم لم يقصّروا في التركيز على القول بأن دولتهم كانت تقوم على

(١) E.I.2 S.V. Ashinas.

(٢) Gibb, **Interpreation**, pp. 45-6 ; Cf. Crone and Hinds.

الدين، وأنهم لذلك كانوا يطلبون طاعة الرعية ويبنون حكمهم على ذلك. أما واقعياً فقد مكن بعد الخلفاء عن الالتقاء المباشر مع رعاياهم للوزراء من التمتع بسلطات واسعة لتسيير أمور الإدارة اليومية بل التدخل في شؤون الدولة. كان هذا هو الحال حتى في عهد خلفاء مثل السفاح والمنصور. لم يعد الوزراء هم قادة الخدمة المدنية فحسب، ولكنهم غدوا من واضعي السياسات. وفي حالات معينة بدأوا يسعون لإظهار سلطتهم وكأنها تعلو فوق سلطات الخليفة. مثل هذه الإتجاهات هي التي جعلت الشاعر بشار بن برد يطالب الأمويين بالإنتفاضة في وجه المهدي، وقال فيما قال إن الخليفة حقاً هو يعقوب بن داؤد وزير المهدي لا الخليفة المهدي:

بني أمية هبوا طال نومكمو
إن الخليفة يعقوب بن داؤد
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفة الله بين الرق والعود[1].

إن عظمة العباسيين ترتبط دائماً بعهد البرامكة، ونجد أن الطقطقي يستعمل كلمة «دولة» نفسها فيما يتعلق بالعباسيين والبرامكة[2]. وقد كانت الكلمة تعني بالنسبة للأول «الخلافة»

---

(١) الطبري: ص ٥٠٨.
(٢) الفخري: ص ٢٠١، ٢٦٩.

وبالنسبة للآخر تعني فترة نفوذهم وتوليهم السلطة، وواضح أن لاستعمال الكلمة تداعيات مهمة، لذلك فإن تدهور الخلافة ينبغي أن يُبحث عنه بالنظر في أسباب تدهور إدارتها.

يقول المسعودي، وهو يعلق على حكم الرشيد، إن أمور دولته قد تدهورت بعد أفول نجم البرامكة، إذ غدت إدارته الضعيفة وسياساته الخرقاء بادية للعيان «واختلت أموره بعد البرامكة وبان للناس قبيح تدبيره وسوء سياسته»[(١)].

وهذا الرأي نفسه قال به الجهشياري:

«ولما أنقضى أمر البرامكة وحصل التدبير في أيام الرشيد على ما بيناه اختلت الأمور وقصر الفضل بن الربيع لخدمة الرشيد في حضرته وأضاع ما وراء بابه»[(٢)].

إن من الممكن التأكيد على أن أمور الدولة قد صارت تعتمد أكثر على نوعية أولئك الأعوان من الوزراء وإخلاصهم أكثر من اعتمادها على الخلفاء. ومع ذلك ورغم عظم نفوذهم وسلطانهم، أو بسبب ذلك النفوذ وتلك السلطات[(٣)]، فقد كان مآل حال جُل أولئك الوزراء العظام، إن لم يكن كلهم، النكبات

---

(١) التنبيه: ص ٣٤٦.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص ٢٦٥. (الجهشياري كان من الكتاب، وما كان المسعودي كذلك. الرأي اذن لا ينقصه السند).

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ١، ص ٤٥.

أو الموت أو هما معاً. كان ذلك هو الحال منذ عهد أبي سلمة الخلال الذي كان مسؤولاً عن الحركة العباسية تحت اسم وزير آل محمد قبل تعيين السفاح خليفةً. وقد كان مقتله بتدبير من السفاح عام ٧٥٠م، ما دعا شاعراً ساخراً إلى القول:

إن الـــوزيـــر وزيـــر آل مـــحـــمـــد
أودى فـــمـــن يـــشـــنـــاك كـــان وزيـــرا

وموت أبي سلمة ربما أمكن تفسيره بضرورات الثورة، أو بسبب اتهامه بانحيازه للعلويين في وقت كان العباسيون يسعون فيه لإقامة دولتهم. وعلى كل فقد تحققت نبوءة الشاعر الساخر بما صار إليه أمر يعقوب بن داؤد في عهد المهدي، وما صار إليه البرامكة في عهد هرون الرشيد، وما آل إليه مصير الفضل بن سهل في عهد المأمون. وغير هؤلاء فيما بعد كثير. ففي كل حالة من تلك الحالات كانت مؤامرات البلاط، والصراع على السلطة من قبل البدلاء المحتملين لمن كانوا يشغلون تلك المناصب، أو تخوف الخلفاء من وزرائهم الأقوياء ذوي الكفاية. وكل هذا كان يعني انتقاصاً لكفاية الإدارة التي عانت من زوال الرجال المقتدرين، ومن تدخل خلفاء تنقصهم الدراية والخبرة، وكثيراً ما كانت السلطة تؤول من المقتدر إلى متوسط القدرة إلى الذي لا قدرة له!

وكان تغيُّر الرجال متبوعاً بتبدل في السياسات، وفي دوائر

النفوذ حول السلطة. وتركت تلك التغيرات آثارها على كفاية الإدارة ووحدة الدولة وتماسكها عموماً. وبرزت هذه المشاكل بوضوح عند نكبة البرامكة الذين كان سقوطهم مؤذناً بنهاية الإدارة المقتدرة الموحدة للدولة العباسية. كان نجاحهم قائماً على قدرتهم وولائهم وإخلاصهم كموالي للبيت العباسي. وكانوا كعائلة يسيطرون فعلاً على الإدارة في حاضرة الدولة وفي سائر الأقاليم. وكأسرة يخلصون لبعضهم بعضاً، ويخلصون للدولة العباسية في عمومها، ويخلصون للخليفة بصفة خاصة. وباسم الخليفة وباسم الدولة أقاموا سلطتهم وبنوا أمجادهم. أما أسباب نكبتهم فلا زالت تختلف حولها التفسيرات، وأضعف تلك التفسيرات ما جاء في الحديث عن العباسة وجعفر البرمكي.

كانت مسألة الصلات العائلية بين كبار الإداريين في الدولة مسألة عظيمة الأهمية. وقد لعبت، ولمرات عديدة، أدوار بالغة الأهمية في توحيد الأمبراطورية ووحدة الإدارة نفسها، وفي مصائر الخلفاء ومصائر الأسر الحاكمة الصغرى[١]. وفي تلك الفترة فإن المرء يلاحظ ذلك في حالات أسرة البرامكة، وآل سهل، وآل طاهر، ويلاحظ ذلك لاحقاً في حال أسر السامانيين والصفاريين والبويهيين (وبصورة أخرى كان ذلك حال السلاجقة والعثمانيين). يشير سوردل إلى أن الفضل بن الربيع وحده لم

(١) الطبري: ص ٦٠.

يكن قادراً على أن يحل محل أسرة البرامكة[1]. والجهشياري يشير إلى أن بغداد أهملت شؤون المقاطعات في عهد الرشيد بعد سقوط البرامكة[2].

«وذكر الفضل بن مروان أن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد كانت مهملة، وأن مسرور الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ويخلفه عليه ثابت الخادم، فحدثني ثابت أن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض».

تضخمت المشاكل بعد عهد الرشيد بسبب نمو وتفاقم الصراعات بين الفرق المتعادية خلال فترة الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون. وبرزت إلى السطح بعض الخلافات،لأن الحرب كانت أيضاً بين حزب الفضل بن الربيع وزير الأمين، وحزب الفضل بن سهل وزير المأمون. وأهم من ذلك كله فقد كانت الحرب بين إدارتين مستقلتين تماماً عن بعضهما. كانت تلك حقبة برزت فيها استقلالية حكومة إقليم خراسان، وهكذا وضعت سابقة أمكن أن تحتذى فيما بعد. وحتى بعد نهاية الحرب فإن الأمور لم تعد إلى سابق عهدها، إذ لم تسترد الحكومة المركزية وضعها السابق مطلقاً.

كانت الأسباب التي دعت المأمون إلى إدخال عناصر جديدة

(١) Sourdel: **Le Vizirat Abbaside**, I, pp. 183-4.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص ٢٦٥.

في الجيش هي عينها التي دعته إلى فعل الشيء نفسه في مجال إدارة الدولة، فعدم ثقة المأمون في الخراسانية يظهر بوضوح حيث صاحب انتقاله إلى بغداد سعيه للبحث عن أعوان جدد[1]. يظهر ذلك جلياً في نقاش دار بينه وبين طاهر بن الحسين، ورواه الطبري حينما قال المأمون: إن الخراسانية يسعون لخدمة مصالح بعضهم بعضاً وهو يقصد بالطبع أن مصالح الخليفة تأتي في مرتبة ثانوية بالنسبة لهم. «إن أهل خراسان يتعصب بعضهم لبعض»[2].

إن الوحدة والكفاية الإدارية التي ميزت عهد البرامكة لم تستمر بعد سقوطهم. كان الأمل في آل سهل، وقد كانوا أعواناً للبرامكة وتدربوا على أيديهم، أن يسيروا على نهجهم نفسه[3]. ولكن المصير المشؤوم الذي حاق بكبار قادة المأمون من العسكريين كان هو نفسه الذي حاق بكبار إدارييه. مات كل من الفضل بن سهل، والفضل بن الربيع، والحسن بن سهل، وطاهر بن الحسين في عهد المأمون. ويبدو أن بعضهم مات بتدبير من المأمون نفسه. وعليه فقد كانت هذه الحقبة بكل المقاييس حقبة رجال جدد بمثل جديدة. وقد رأوا بأعينهم حتوف من سبقوهم.

(١) Sourdel: Le Vizirat Abbaside, I, pp. 240.

(٢) الطبري: ص ١١٠٤؛ طيفور: كتاب بغداد، ج ٦، ص ١٨-١٩.

(٣) الفخري: ص ٣٠٤.

وما يصور حيرة المأمون أصدق تصوير أنه استخدم عدة رجال لشغل وظيفة كاتبه الأول، ولكن ما من أحد منهم استطاع أن يملأ الفراغ الذي نجم عن وفاة الفضل بن سهل[1]. عرض المأمون على القاضي أحمد بن أبي دؤاد منصب الوزير الذي خلا بوفاة الفضل، وقد كان هذا القاضي عظيم النفوذ في مجال سياسات المأمون الدينية، ولكنه رفض المنصب، لأنه كما قال ما من أحد تسلم المنصب وأمن على حياته[2].

أما الكاتب الصولي، فإنه يورد مسألة سرعة وتعدد وتبدل كتاب الدولة في صورة معبرة، إذ يقول:

«قال: أبوبكر محمد بن يحيي حدثني محمد بن سهل الأحول بن أبي يوسف، قال: سمعت ابن إسرائيل يذكر قلة مدة الوزراء فقال: كان هذا الأمر مزامنة، ثم صار معاومة، ثم صار مشاهرة، ثم صار مياومة، ثم صار وتلجلج، ثم قال مساعات وأخطأ أراد مساوعة . . .» [3].

وعلى كل، فينبغي أن نذكر أن الكتابة لم تضر بذلك بل على العكس أخذت تزدهر لتصبح مهنة لطبقة من الكتاب المحترفين لهم زيهم الخاص، ولهم تدريبهم وأدبهم. وكانوا

---

(١) الفخري، مصدر سابق؛ المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٢ also see D.Sourdel, op. cit.

(٢) التنوخي: نشوار ص ٨ ؛ أحمد أمين: ضحى الاسلام، ص١٣٥.

(٣) أدب الكتاب، ص ١٨٥-١٨٦.

يتميزون بعصبية مهنية خاصة جمعت بينهم[١]. وغدت خدمة الدولة في الجيش وفي الإدارة مجالاً مفتوحاً لطالبي الخدمة من الكتاب. أما رجال الدولة السابقين، فإن المرء يجد في كتابات ابن المقفع وعلى الخصوص في «رسالة في الصحابة» ميلاً للكتابة في السياسة وفن الحكم[٢]. ومؤخراً حينما غدت خدمة الدولة مهنة لكسب العيش، فإن الأدب الذي صاحبها أخذ يهدف أساساً إلى الوفاء بمتطلبات العمل الروتيني المعهود لدواوين الدولة[٣]. والتصوير الأدق للبيروقراطيين الجدد هو الذي جاء في رسالة للجاحظ في «مدح التجار وذم عمل السلطان» حيث عرض لتعليمهم، وزيهم، وأخلاقهم، واتجاهاتهم، واستهزأ بهم في براعة وحذق، ولكنه أحسن وصف أحوالهم[٤].

- ٤ -

مشاكل الجيش والإدارة على حدتها وإلحاحها لم تكن في

(١) الجهشياري: الوزراء ٣، ١٢٦، ١٦٦ ؛ الجاحظ: ذم أخلاق الكتاب ؛ Gibb, **The Social Significance**, pp. 106-7; التنوخي: الفرج بعد الشدة ص١٠٠، كان يوم الخميس عطلة الكتاب لشراء حوائجهم وقد أوقف المعتصم هذه العطلة. الجهشياري: ص ١٦٦.

(٢) Goitein, **A Turning Point**, pp. 120-9 ؛ محمد كرد علي: رسائل، ص ١١٧-١٣٤.

(٣) انظر: الصولي: أدب الكتاب؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب؛ الخوارزمي: مفاتيح العلوم؛ إبن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٣.

(٤) ذم أخلاق الكتاب، مدح التجار وذم عمل السلطان.

أهمية وقدر المشكلة الأساسية التي كانت السبب الرئيسي لتلك المشاكل. وكما يُلاحظ من سياسات المأمون كانت المشكلة ذات حدين، أولهما استعادة الخلافة مكانتها في القوة والنفوذ اللذين كانا لها من قبل[1]، وثانيهما إيجاد حل لولاية العهد بحيث يجد الخليفة أقصى قدر من السند، إن لم يكن كل السند من رعاياه.

وفي محاولته لإيجاد الحلول عَهَد المأمون إلى إتباع نهجين سياسيين واضحين، وربما ثلاثة. كان سعيه في المقام الأول حل مشكلة ولاية العهد على أساس هاشمي لا على أساس عباسي. وكما أراد فإن اختيار ولي العهد يجب أن يتم على وفاق بين الأسرة العباسية والأسرة العلوية، وهما العائلتان الهاشميتان اللتان تمثلان أهل البيت[3]. كانت هذه هي السياسة التي اتبعها في المقام الأول بعد نهاية الحرب الأهلية، وكان لها دلالة خاصة إذ إن تلك الحرب نفسها لم تثر إلاّ بسبب ولاية العهد، وإذا قارنا توجه المأمون هنا بتوجهه في نهجيه السياسيين الآخرين يتضح بجلاء إدراكه بوجود مشكلة حقيقية تواجه الخلافة، التي سبق لها أن أفرغت من محتواها الديني والسياسي الذي تميزت به المؤسسة تحت الخلفاء الراشدين الذين جاؤوا بعد الرسول ﷺ مباشرة، ولكنها صارت بعد الفتنة الكبرى

(١) See Gibb, An Interpretation, and **Government and Islam**, ; Crone and Hinds.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٨٥.

(٣) E.I.2, S.V.Ahl al-Bayt.

وظهور الفرق تفقد السند الشعبي العام تدريجياً. أما المنهج الثاني فقد تمثل في محاولة المأمون خلق فكر ديني تؤيده الدولة، كانت الدعوة له تتم بالإغراء والعقوبات أوالقسر. وقد تزامن الاتجاه الثالث مع الاتجاه الثاني لسياسة المأمون، وهو تجديد الدعوة للجهاد في سبيل الله ضد الدولة البيزنطية.

كانت سياسة المأمون في ولاية العهد مجالاً لدراسات متعددة، لكن تلك الدراسات كانت إما أن تكون محدودة كأن تتناول العلاقات بين المأمون والعلويين، أو تسعى لتفسير تلك السياسات على افتراض صراع بين العرب والفرس(١). وفي السابق قبل الكثيرون فكرة أن الحركة كلها في هذا التوجه كانت من الفضل بن سهل، الذي كان دافعه الوحيد في تلك السياسة هو أن يعيد للعنصر الفارسي قوته وتأثيره في الخلافة. وعلى الجانب الآخر كان هناك من كان يقول إن الفضل بن سهل، كان معارضاً لهذه السياسة لدرجة أنه طلب الاستقالة من منصبه. ويلفت الانتباه هنا أيضاً محتويات خطاب نسب إلى المأمون وهو يروي عن والده الرشيد عن كتاب سمي «كتاب الدولة»، الذي جاء فيه أنه بعد الخليفة العباسي السابع لن يبقى عمود واحد لبيت العباس، وإنه سيأتي علوي من بيت الحسين يتسلم السلطة ويقضي على معارضيه وينتقم منهم.

---

(١) الدوري: العصر العباسي الأول ص ٢٠٢-٢١٠؛ F.Gabrieli, **al-Mamun e qli Alidi**; M.H. A.Chejnc: **Succession to the Rule in Islam**; W. Madelung: **New Documents** Concerning al-Ma mun. Ahmad, al-Khilafa wa l-Dawla.

وهناك هجاء دعبل الخزاعي للمعتصم الذي يشير فيه إلى تلك النبوءة، إذ يقول:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة

ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب

ووفقاً لهذا التفسير، فإن سياسة المأمون في ولاية العهد كانت محاولة لإنقاذ نفسه وعائلته من هذا المصير السيّئ. وعلى كل، فإن صحة هذا الخطاب تظل مثار شك. يضاف إلى ذلك أن المأمون لم يكن ممن تؤثر فيهم مثل هذه النبوءات مع أن العباسيين قد أفادوا من مثلها في دعايتهم سابقاً، إذ كان لهم في هذا المجال مهديهم الخاص قبل المأمون[1]. ويمكن أخذ اختيار المأمون لعلي بن موسى[2] الرضا لولاية العهد لا تأييداً لسياسة علوية ولكن اتباعاً لسياسة هاشمية، قصد منها أن يحشد إلى جانب الدولة كل العناصر التي أزالت دولة بني أمية لتأتي بالعباسيين إلى السلطة[3].. ولا شيء أكثر تذكيراً بالحركة المعادية لبني أمية من لقب الرضا، وهو اللقب الذي اختاره

(١) دعبل: ديوان دعبل الخزاعي.

(٢) الطبري: ص ١٠١٣ ; Tajarib, VI, p. 436 ؛ القلقشندي: ج ٩، ص ٣٦٢- ٣٦٦ ؛ Bal ami, IV, pp. 508-10; E.I. (2), S.V. Ali b. Musa al-Rida.

(٣) يلفت النظر وصف ابن خلدون الدولة العباسية أنها دولة شيعة: العبر ٣، ص ١٧٠-١٧٣.

المأمون لعلي بن موسى. لقد كان اللقب بالكامل هو: «الرضا من آل البيت» أي الشخص المقبول من بيت النبي ﷺ، إذ كان ذلك هو الشعار الذي طرح كشعار التف حوله معارضو الأمويين قبل إعلان الخليفة العباسي الأول السفاح[1]. لم تكن الحرب الأهلية حرباً من أجل ولاية العهد فقط، ولكنها انتهت وأعقبت نهايتها سلسلة من انتفاضات مسلحة للعلويين[2]، وربما كان المأمون متأثراً بهذه الأحداث حينما اختار أول ولي عهد له.

والشاهد أن صلات المأمون بالعلويين لم تكن مسألة مخطط سياسي، ولكن مشاعره نحو العلويين كانت فيما يبدو صادقة جداً[3]، فقد احتفظ بصلات طيبة مع العلويين طوال فترة حكمه، ونصح ولي عهده المعتصم باتباع السياسة الطيبة نفسها معهم[4]. وعليه إذا كانت سياسة موالاة العلويين في مسألة ولاية العهد تمثل علاقة مميزة لفترة مرو، فالحقيقة التي تظل قائمة، ولا ينبغي تجاوزها هي أن المأمون كان حريصاً باستمرار على سياساته الموالية للعلويين دون اعتبار لولاية العهد، كما لا ينبغي أن نغفل أن خراسان كانت المركز الرئيسي للمشاعر المناهضة

(١) E.I. (2) S.V. Abbasids and Alids ؛ الدوري: العصر العباسي الأول، ص ١٨-٤٠.

(٢) الطبري: أخبار الاعوام ١٩٨-٢٠٤هـ في ص ٥٠٧، يورد البلعمي في تاريخه أن الفضل بن سهل ذكر للمأمون أن الثورات كلها من صنع العلويين.

(٣) الطبري: ص ١١٠٢؛ الكامل، ج ٦، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٤) الطبري: ص ١١٣٩.

للأمويين والداعية للتمسك بالهاشميين[1] وكان المأمون في سياساته وفي خطبه في خراسان وخلال الحرب الأهلية يركز كثيراً على ذكر المشاكل التي حملت أهل خراسان على الثورة ضد الأمويين[2].

لا بد أن المأمون قد شعر بأنه رغم أن العباسيين قد أخذوا الخلافة باسم أهل البيت إلاّ أنهم في الحقيقة قد دعموا سلطتهم بالسيطرة على أجهزة الحكم (الدواوين)، وبجيوشهم، وبالصلات الطيبة التي احتفظوا بها مع العلماء[3]، ولابد أن المأمون قد شعر أيضاً بأنه لم تكن لمنافسيهم العلويين حقاً أكثر من العباسيين في الخلافة فحسب بل كان هناك أتباع للأمويين أيضاً. كانت هناك شواهد على حديث يدور حول إمامة معاوية[4]. إن كل هذه الأحداث مع الحرب الأهلية وتطورات أخرى حفل بها عهد المأمون، لابد أن تكون هي التي نبهت المأمون لمخاطر

(١) هذه كانت أكثر ميلاً للعلويين، فاحباطات العلويين في العراق دفعتهم لخراسان، كما أن خوف الخراسانيين بعد قتل أبي مسلم جعلهم اكثر قبولاً لدعاوى العلويين. See Ibn Isfandiyar, **History of Tabaristan** and al-Qummi **Tarikh-I Qum**. والمأمون كان في العراق يعتمد على العلويين في حربه للأمين. شعر دعبل الخزاعي يوضح ذلك ويكشف شعور العطف على العلويين آنذاك. انظر ديوانه ومنتقيات البستاني، ص ١٢٠-١٢٣.

(٢) الطبري: ص ٧٧٤، ٧٦٩.

(٣) احمد أمين: ضحى الاسلام، ص ٣٧٤.

(٤) الجاحظ: رسالته في النابتة ؛ Pellat, **Le Culte de Mu awiya**, pp.53-67؛ حسن الزيات: التشيع لمعاوية؛ الطبري: ص ١٠٩٨ ؛ المسعودي: ج ٧ ص ٩٠، ٩٣ ؛ طيفور: كتاب بغداد، ص ٤٥، ٤٦، ٥٤.

سياسة تقوم على الموظفين والجيوش المحترفة فقط، وجعلته يبحث عن أسس أمتن وأكثر رسوخاً لتقوم عليها الخلافة، ومن ثم كانت سياسته الموالية للعلويين (الموالية للهاشميين) والتي كانت متسقة مع المذهب الشيعي الزيدي وأفكار المعتزلة. ويبدو أنه تأثر بكليهما. ومع أن الزيدية كانوا يحتفظون بحقهم في الخلافة، إلاّ أنهم كانوا يعترفون بخلافة المفضول مع وجود الفاضل أي بالخلفاء الذين ترتضيهم الأمة، أما المعتزلة فقد كانوا يركزون على مؤهلات الخليفة من حيث العلم والتجرد والمقدرة الأهلية للمنصب، وغيرها من الميزات المماثلة(١).

وعلى كل، فقد فشلت سياسة المأمون في ولاية العهد، إذ اصطدمت بالولاء الشديد للعباسيين الذي حققه العباسيون لأنفسهم منذ قيام الدولة، ورأى فيها العباسيون ومن والاهم من عناصر تفضيلاً للعلويين على أنفسهم. لقد رأى هؤلاء في إقرار مثل هذه السياسة ما يسلبهم حقهم في السلطة، ولذلك فقد وقفوا ضد هذه السياسة إلى الحد الذي نادوا فيه بخليفة بديل للمأمون هو عمه ابراهيم بن المهدي(٢). ولقد ورد في الأخبار أن المأمون قد أحصى أعداد عائلة بني العباس في عام ٢٠٠ هـ/ ٨١٥-٨١٦ م واتضح أن عددهم يصل إلى ثلاثة وثلاثين ألفاً، ومع ذلك يبدو أن الخليفة المأمون قد أخطأ تقدير قوتهم

(١) Watt, W.M. The Formative Period, pp. 175-6 ; Zahniser, Insights, p.

(٢) الطبري: ص ١٠١٣، أحداث الأعوام٢٠١-٢٠٤هـ ؛ المسعودي: ج ٧ ص ٦٠- ٦١ ؛ Bal ami IV, pp. 510-5.

ونفوذهم[١]. إن من الضروري أن نتذكر هنا أن المعارضة الفعلية لتلك السياسة قد تركزت حول بغداد والبغداديين. كانت بغداد مركزالسلطة والثقل لحكم بني العباس، ورأت في تلك السياسة إمكانية تحويل العاصمة نهائياً إلى مرو حيث كان المأمون وقتها[٢]. كما أن الفكر الديني كان يسيطر عليه العلماء، إذ زاد نفوذهم وتأثيرهم زيادة عظيمة في عهد الخلفاء العباسيين السابقين. ورغبات أولئك العلماء وما كانوا يلقونه من دروس كانت مضادة لسياسة المأمون، التي ربما كانت في حال نجاحها ستخدم أهداف الشيعة في كل الميادين.

لقد وضح للمأمون بجلاء من معارضة بغداد عظم الأخطار التي كان يمكن أن تنجم عن التغيير في الأسرة الحاكمة والشبهة في السعي لنقل عاصمة العباسيين بصفة دائمة إلى مرو. وقد كان رد فعل المأمون أن تخلى عن سعيه في هذين المجالين. لقد أعفته وفاة علي بن موسى الرضا عام ٢٠٤هـ /٨١٨-٨١٩م من المشكلة الأولى، أما بالنسبة للمشكلة الثانية، فإن الوضع في العراق مع إعلان خليفة منافس جعل المأمون يسارع بالتوجه إلى بغداد التي كانت مركز السلطة الحقيقية للدولة العباسية، كما كانت بالتأكيد عاصمة أحسن من مرو البعيدة جداً عن وسط

(١) الأزدي: تاريخ الموصل، ص ٣٣٩ ؛ المسعودي: ج ٧ ص ٥٩. هذا العدد الكبير ربما شمل نسل بني العباس ومواليهم.

(٢) لمعرفة مكانة العباسيين في بغداد، انظر اليعقوبي: البلدان، ص ٤٠.

ولايات الدولة العباسية. إن من الأهمية بمكان أن نلاحظ هنا أن المأمون لم يسم ولياً للعهد بعد وفاة علي بن موسى الرضا، لكن اختيار ولي العهد تم في اللحظة الأخيرة في وقت أصبح حتماً لازماً أن يختار ولياً للعهد. لقد كان اختيار المأمون لولي العهد الجديد لصالح الدولة أكثر منه لصالح بيته، إذ تخطى ابنه العباس وعهد لأخيه المعتصم(١).

- ٥ -

وهكذا فشلت سياسة المأمون لولاية العهد، تلك السياسة التي كان يهدف من ورائها إيجاد السند للخليفة وللخلافة كنظام مركزي للسلطة الشرعية لدى المسلمين، لقد أدت تلك السياسة فعلاً إلى تضعضع مركز الخليفة لما أثارته من معارضة. إن المرء ليلاحظ أن المأمون قد توفي دون أن ينجح حتى في حشد تأييد جمهرة العباسيين لسياساته كما أوضحت ذلك تعليقات قالها في آخر أيامه(٢). كما أنه لم ينجح في كسب تأييد أولئك الذين جلبت سياساته عداوتهم له، وبصفة خاصة العلماء مع ما كان لهم من عظيم نفوذ عند الناس. وحقيقة، فإن الشق الثاني من سياساته، وهو المحنة، قد زاد من نفور العلماء منه، ومن ثم برز سؤال: لماذا أدخل نفسه في مثل تلك السياسة إذا لم يكن

(١) انظر: الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٢) الطبري: ص ١١٣٩.

قد وضح له بجلاء أن الخلافة قد صارت تدريجياً تفرغ من محتواها وتهتز مكانتها؟[1].

إن كلمة المحنة مشتقة من الفعل «مَحَنَ» ومعناها: اختبر، نقى، استصفى، أو حمل شخصاً حملاً أو قسراً على أن يعترف بفعل شيء لم يكن قد فعله، أو ليؤمن بما لم يكن يؤمن به.

(مَحَن ‍َ المحنة، الخبرة.. ومحنته وامتحنه عزله خبره واختبره، وبلوته وابتليته. وأصل المحنة الضرب بالسوط. والمحنة واحدة من المحن التي يمتحن بها الإنسان من بلية يستجير بكرم الله منها.. وفي حديث الشعبي المحنة بدعة، وهي أن يأخذ السلطان الرجل فيمتحنه فيقول قلت كذا وفعلت كذا، فلا يزال به حتى يقول ما لم يفعله أو ما لا يجوز به ليعرف ضمير قلبه)[2].

لقد أطلقت كلمة «المحنة» على السياسة الدينية التي بدأها المأمون في عام ٨٣٣م، وانتهت بالمتوكل في عام ٨٤٩م، وكانت تعني كل المعاني التي ذكرناها. وبسبب ما صاحبها من تعذيب وقهر فقد وصفت بأنها كانت بدعة منكرة[3].

كان جوهر المحنة هو مسألة «خلق القرآن» وقد اشتقت من

---

(١) Gibb: **Government and Islam**, p. 120; Crone, **Slaves on Horses**, pp. 61-65.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: مادة م ح ن.

(٣) المصدر نفسه. ولا شك أن هذه زيادة تعكس نظرة حنبلية للمحنة.

أحد المبادئ الخمسة التي عرف بها المعتزلة[١]، وهي العدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلين. وعلى ذلك، على زعمهم، فإن طبيعة الله المنزهة تقتضي القول بأن صفات الله ليست إلاّ هو نفسه. يقول البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق»:

«نفيها عن الله عز وجلّ صفاته الأزلية، وقولها بأنه ليس لله عز وجلّ علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا صفة أزلية ... ومنها اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجلّ وحدوث أمره ونهيه وهم يزعمون أن كلام الله عز وجلّ حادث. وأكثرهم اليوم يسمون كلام الله مخلوقاً...»[٢].

وكل شيء ما خلا الله فهو مخلوق ولا بقاء دائم له وكذلك كان القرآن. إن المعتزلة يعتقدون أن تعريف صفات الله بشيء مختلف عنه أو اعتبار أي خلق من خلق الله مساوياً له في المقام إنما هو كفر صراح، وقد سموه تشبيهاً؛ وعندهم أن القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق له شبهة بالعقيدة المسيحية[٣]، التي تؤله وتقدس المسيح باعتباره كلمة الله وابن الله.

---

(١) E.I. (I), S.V. Mu' tazila.

(٢) الخياط: كتاب الانتصار، ص ١٣-١٤ ؛ الأشعري: مقالات: ص ١٦٩-١٧٠ ؛ الشهرستاني: الملل ص ٢٨ ؛ إبن المرتضى: طبقات، ص ٢ ؛ ز.ح.جار الله: المعتزلة ص ٢٧-٢٨ ؛ أحمد امين: فجر الأسلام، ص ٣٤٣ ؛ Tritton: **Muslim Theology**, p. 79.

(٣) الطبري: ص ١١٨٠ ؛ Becker: **Islam Studien**, pp. 442-3. ؛ جاء في القرآن «كلمة منه اسمه المسيح» [البقرة آية ٤٥].

إن الدعوة إلى الدين الحق أو تصحيح العقيدة إنما هي واجب كل مسلم وعلى الأخص الخلفاء نظراً لمكانتهم ولما يتاح لهم من وسائل تعين على ذلك. لقد كان هذا الفهم عاماً لدى كل مدارس الفقه الإسلامية المختلفة، لكنه ما من خليفة أومؤسسة معينة انفردت بذلك، أو ادّعت في أن يكون لها دون غيرها حق تحديد ماهية الدين الصحيح ناهيك عن حمل الناس عليه[١]. يضاف إلى ذلك أن الحديث بخلق القرآن كان يتعارض مع المتفق عليه من اعتقاد الناس عالمهم وجاهلهم على حد سواء. لقد اتبع الناس بإخلاص ما استقرت عليه تعاليم مدرسة الحديث التي كانت وقتها تضم أغلبية العلماء[٢]. وكان هؤلاء يعتقدون بأن القول بخلق القرآن تكون محصلته النهائية القول بحدوثه ومحدودية صدق وصلاحية محتواه.

إن المعتزلة مثلهم مثل باقي الفرق الدينية المسلمة يدّعون بأن تعاليمهم تقوم على القرآن و السنة[٣]. وقد كانوا أصحاب أقدام راسخة في فهم كليهما. والمعتزلة لم يكونوا كباقي علماء المسلمين، إذ لم يكونوا فئة منغلقة تقصر حججها على النظر في المنقول الوارد من القرآن أو السنة وحدهما. ولم تكن براهينهم

---

(١) الشيعة الاسماعيلية يعطون ذلك الحق لأئمتهم ؛ cf., B.Lewis **Origins of Ismailism**.

(٢) E.I. (2), S.V. Ahl al-Hadith.

(٣) طبق المعتزلة المنطق في النظر للأحاديث. والواقع أن اهل الحديث كانوا قد سبقوا في علوم الجرح والتعديل في النظر في أسانيد ومحتوى الحديث.

تعتمد فقط على ما جاء في القرآن والسنة. وفي الحقيقة أنهم يقفون كثيراً عند بعض الأحاديث، لقد كانت لهم معرفة بالديانات الكتابية، اليهودية، والمسيحية، والديانات الفارسية وغيرها من الديانات. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا من بين المسلمين الأوائل الذين تعلموا واستخدموا ونشروا الفلسفة اليونانية ونظام منطقها. وهم بذلك يفتخرون بأن إيمانهم لا يقوم فقط على النقل وإنما يقوم أيضاً على العقل وهو استخدام علم المنطق والكلام[1]. ويكونون بفعلهم هذا قد عرضوا قضية الإسلام بالطريقة نفسها التي عرض بها معارضوهم من الديانات الأخرى قضاياهم.

ويبدو أن التطورات التي أدت بالمعتزلة لتحديد مقولاتهم والسعي لإكسابها مكانة العقيدة كانت إلى حد كبير ردة فعل للتحديات المماثلة من الديانات الأخرى. وطبيعة الجدل الذي ثار آنذاك والحجج التي كانت تساق من قبل المتجادلين كانت تشير إلى أن ذلك الجدال كان في معظمه في مواجهة المسيحية أكثر منه في مواجه أي ديانة أخرى، وإذا كان الإسلام قد حقق انتصاره في مواجهة ديانة الفرس الثنوية، وضد الأمبراطورية الساسانية، فإن العالم المسيحي ممثلاً في بيزنطية كان ما يزال العدو الأول للخلافة[2]. وفي ظل الخلافة كان المسيحيون الذين

---

(١) الجاحظ: نفي التشبيه، ص ٢٨٥ ؛ cf. Anawati and Gardet: **Introduction a la Theologie**, pp. 46-52; Schacht, **The Origins**, use index for **Mu'tazila**.

(٢) الجاحظ: الرد على النصارى، ص ١٧-١٩.

دخلت عن طريقهم إلى الإسلام - ضمن أشياء أخرى - المعرفة بالأناجيل والفلسفة اليونانية والتفكير الديني، في حالة ازدهار، وبدا وكأنهم يهددون العقيدة الإسلامية إذ تقلدوا مناصب ذات نفوذ في الإدارة والمجتمع فقد أصبحوا وزراء وكُتّاباً وأطباء[١]. والجاحظ يلفت الانتباه إلى حقيقة أنه قبل الإسلام وبعده كان هناك مسيحيون عرب[٢].

إن المعتزلة في سعيهم لتكوين فكرهم والدفاع عنه في مواجهة المسيحية قد بدوا وكأنهم يخوضون المعركة نفسها التي خاضها من قبل الزرادشتيون ضد المسيحية وضد اليهودية في عهد الساسانيين، وفي وقت هدد فيه النفوذ المتعاظم للتعاليم الدينية الكتائبية، والفلسفة اليونانية وحدة دولتهم[٣]. لقد ورثت الخلافة مكانة الساسانيين في مواجهة بيزنطية في المجال العسكري والمجال السياسي، وقد كانت في المجالين الديني والثقافي أكثر بروزاً. وفي هذا الخصوص نلاحظ أن ابن المقفع من قبل المعتزلة كان قد أشار على الخليفة المنصور توجيه رسالة في العقائد تكون مرشداً للجنود الخراسانية[٤]. وأن الساسانيين كانوا قد لجأوا إلى ما يشبه المحنة حينما هددت الخلافات بين طوائفهم الدينية استقرار السلطة والحكم[٥]. إن مبدأ المنزلة بين

(١) الجاحظ: الرد على النصارى.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Zaehner: **Dawn and Twilight of Zoroastrianism**, pp. 177-8.

(٤) محمد كرد علي: رسائل، ص ١١٧-١٣٤؛ Goitein: **A Turning Point**, p. 123.

(٥) Zachner: Dawn and Twilight, p. 186.

المنزلتين وهو الشرارة التي انطلقت منها دعوة المعتزلة تذكر بفكرة الوسطية عند الزرادشتيين مع الفارق في التطبيق، وفي أن حجج المعتزلة كانت إسلامية صرفة. ومما يلاحظه المرء على هاتين الفرقتين هو تركيزهما على المنطق - الايمان المنطقي - وميول الفئتين نحو ملاذ الحياة مع غاية الزهد[١]. ولكن هذه التحليلات التي تبدو مغرية لأول وهلة تصعب البرهنة عليها[٢].

ولكن من المؤكد أن الجاحظ حينما كان يحرض أحمد بن أبي دؤاد على الاستمرار في المحنة، كان يذكره باستمرار أن خصومهم كانوا يستخدمون كل وسيلة تسعفهم لإجهاض أفكار المعتزلة[٣]. وهكذا فإن وجهة النظر القائلة بأن فقه المعتزلة كان يمثل الدين الرسمي للثورة العباسية[٤]. لا يناقضها فقط ما قام من أدلة على مواطن المساندة الدينية للحركة، وإنما يناقضها أيضاً ما جاء من إشارة الجاحظ إلى محن تعرض لها المعتزلة[٥]. يضاف إلى ذلك أن المعتزلة لم يكونوا كلهم ممن يجمعون على وجهة نظر سياسية واحدة. وبينما لم تظهر نظرية

(١) ربما يفيد النظر في الفكر الكالفيني البروتستانتي: For further information on the Mu'tazila. see: Bibliography: Steiner, H. and Zuhdi, H.J.A.

(٢) يرى جيب أن الفكر المعتزلي ربما كان ردة فعل على حركة الشعوبية. Gibb: **The Social significance**, p.112 idem: **Interpretation**, p. 46-7.

(٢) الجاحظ: نفي التشبيه، ص ٢٨٥ .

(٤) تريتون لا يرى ذلك، ويشير إلى أن المعتزلة سمّوا الأمويين في بعض الأحيان.

(٥) Watt, W.M., **The Formative Period**, pp. 175-6.

الإمامة من ضمن نظرياتهم فإن روح تعاليمهم تشير إلى أنهم يعتمدونها كوسيلة لا كواجب ملزم. ومما يستحق الذكر هنا أن نشير إلى أن المعتزلة يعتقدون أن الحاجة إلى النبوة ليست حاجة مطلقة لأن الإنسان خير بطبعه، ومن ثم يستطيع التفرقة بين الخطأ والصواب.

ومن الصعب أيضاً وبالقدر نفسه أن نقبل وجهة النظر القائلة بأن المعتزلة قد ظهروا كحركة سياسية أصلاً[1]، بسبب موقفهم من الخليفة وبسبب التطورات التي أدت إلى ظهورهم. ويصبح من المنطقي والمعقول أكثر أن يؤخذوا كمدرسة فكرية متعددة الآراء قامت إلى جانب مدارس علماء الحديث التقليديين ومن بين ظهرانيهم، ثم صاروا من أنشط معارضيهم. صحيح أن دعاة المعتزلة قد نشطوا في خراسان في نشر الإسلام وفي نشر الدعاية المناهضة للأمويين مما خدم أغراض العباسيين، ولابد أن نذكر إن الدعاية التي كانت تروج لم تكن باسم العباسيين وإنما كانت باسم آل البيت. إن الأمر بالنسبة للمعتزلة كان هو الحكم بالعدل ولا يهم من يكون الخليفة، والمأمون الذي تميز عهده بعلو صوت المعتزلة ونفوذهم في الدولة العباسية اختار أن يكون ولي عهده علوياً لقَّبه: الرضا من آل البيت، ولم يكن العباسيون وهم من آل البيت بمستثنيين من ذلك. ومن الواضح أيضاً أن المعتزلة كانوا يقولون بنظرية «القدر» أو «الإرادة الحرة»، وعليها بنوا اتجاههم المتطرف في مواجهة العصاة (ومن

(١) E.I.(1), S.V. Mu'tazila.

ثم عدل الله في عقوبتهم) وقد كان لهذه العقيدة بالغ الأثر في عدد من الثورات التي عرفها التاريخ الإسلامي، ولكن هذا كان عينه ما اعتقده الشيعة الزيدية، وما اعتقده الجهمية الذين اعتبرهم المعتزلة من المشبهة.

لم يكن ظهور المعتزلة كظهور الفرق الدينية السياسية الأخرى: الخوارج والشيعة، نتيجة ظروف سياسية وإنما كانت نتيجة للجدل الديني والخلافات الناجمة عن تلك الظروف. لكن تسنمهم بعض مقاليد السلطة تحت المأمون، واستمرار سلطتهم في عهد المعتصم والواثق كان شأناً سياسياً. لقد أعلن المأمون عن اعتقاده بخلق القرآن في عام ٢١٢هـ / ٨٢٧-٨٢٨م لكنه لم يحاول فرض اعتقاده على العلماء ـ ومن خلالهم على كافة المسلمين ـ إلاّ في عام ٢١٨هـ /٨٣٣م، وهي السنة التي مات فيها. وبدأ تطبيق تلك السياسة حينما كان المأمون يواجه مشاكل بالغة الخطر في مصر، وفي وقت كان يعد فيه لحملات شرسة ضد بيزنطية، ولنا أن نتساءل لماذا بدأ المأمون تنفيذ سياسته تلك في مثل ذلك الوقت؟ ولماذا اختار مقولة ثانوية ولم يختر فكرة أساسية من أفكار المعتزلة لتكون مرتكزاً للمحنة؟ ولماذا وجه المحنة ضد مجموعة معينة من العلماء؟ هل كان الأمر أمر موضوع ديني فقط، أم أنه كان أمراً سياسياً عُرض في ثوب ديني؟

ربما كان الذي زيَّن للمأمون ذلك الأمر هو أحد المعتزلة. لكن المرء يلاحظ أن المأمون استغرق ست سنوات ليصل إلى أقصى تطرفه لفرض فكره عنوة واقتداراً. إن النتيجة

الحتمية لتلك السياسة فيما لو نجحت ما كانت لتصحّح عقيدة خاطئة فقط، ولكنها كانت ستؤدي إلى صراع بين الخليفة والقيادات الدينية للمجتمع. وفي الحقيقة، فإن النتيجة كانت حطاً لمكانة العلماء التقليديين الذين كانوا يمثلون القيادة الدينية للمجتمع.

لم تكن هناك أزمة دينية تهدد الإسلام، ولكن كانت هناك أزمة سياسية تهدد الخلافة، وقد اختار المأمون أن يواجه المسألة من خلال الوسيلة الوحيدة الفعالة في المجتمع المسلم، وهي المواجهة من خلال الدين[١]. أراد المأمون أن يضيف إلى سطوة الخلافة نفوذ العلماء، وربما كان هذا تفسيراً لاختياره مشكلة خلق القرآن، وهو موضوع إذا كان يصعب فهمه على العامة فقد رآه الاختيار الأسلم، وبربطه بالمسيحية كان يسعى لكسب التأييد الشعبي لها ؛ وظن إمكانية الدفاع عنها من خلال آيات القرآن نفسه باختيار الفاظ قرآنية توحي بالصنعة أو الخلق[٢]؛ وبسبب علاقتها بالمسيحية فإن المرء يلاحظ علاقتها بالحملات البيزنطية، كما يلاحظ رفض المأمون لقبول أي إجراءات سلام مع البيزنطيين في ذلك الحين[٣].

---

(١) Gibb, See his Interpretation and his **Government and Islam**., Crone, **Slaves on Horses** p.71 ؛ الطبري: ص ١١١٢؛ الجاحظ: النابتة، ص ١٢١.

(٢) الطبري ص ١١٠٨، يذكر بعض ما عرض على الامبراطور البيزنطي؛ Vasiliev, **Byzance et les Arabes**, I, pp. 122-3.

(٣) الشهرستاني: الملل ص ٣٤ ؛ ابن المرتضى: طبقات.

لم يكن المعتزلة أنفسهم متحدين في ميولهم نحو استخدام النفوذ والقهر لفرض آرائهم، أو قبولهم الانخراط في خدمة الدولة، وهو اتجاه كان شائعاً لدى الكثيرين من أهل الحديث أنفسهم. والمعتزلة الأول ممن عرفوا بشدة تدينهم قد نفروا من كلا الاتجاهين[1]، وبعضهم ممن كانوا قريبي الصلة بالمأمون عارضوا ممارسة الإكراه، وكان رأيهم أن ذلك من السياسات السيئة. وهذا مما يزيد في تقوية الافتراض القائل بأن مفتاح المحنة كانت تحركه توجهات سياسية. لقد كان هناك أشخاص بعينهم هم الذين كانوا يمارسون ويدعون، الى سياسة فرض الآراء بالقوة في عهد المأمون ومن بعده، أمثال أحمد بن أبي دؤاد والجاحظ[2].

إن من يطّلع على كتابات الجاحظ يجد أن أسباب نهجه المتطرف يتمثل في خليط من النوازع هي: الحماس الديني، والحقد، وشهوة السلطة. وعززت ذلك كله مؤهلات عالية لكاتب كان يكتب بحرية في كل مجال[3]. إنها فترة كانت فيها طبيعة المعجزة القرآنية مجالاً لجدل محتدم. وقد اختلفت آراء المعتزلة أنفسهم حول الأمر[4]، ولكن كل هذه الآراء المختلفة كانت تتعلق بمسألة خلق القرآن، إن المشكلة كلها يمكن النظر

---

(١) E.I.(2) S.V. Ahmad b. Abi Duad.

(٢) انظر رسالتيه في النابتة ونفي التشبيه. هنا الجاحظ كاتب سياسي أكثر منه إمام معتزلي.

(٣) الأشعري: مقالات، ص ٢٢٥.

(٤) Cf. Bucaille, M.: **La Bible, Le Coran et Science.**

إليها من خلال النزاع الإسلامي المسيحي الذي كان يدور حول مدى صلاحية وصدق كل دين وكتبه المنزلة[1].

والمعتصم لم يكن معتزلياً، ولم يكن مخططاً لسياسة دينية. ولكنه استمر بالمحنة قبولاً بنصيحة أخيه المأمون، وبضغط من أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وآخرين ممن ورثهم المعتصم من حاشية أخيه المأمون.

«بويع له بعد المأمون في شهر رجب سنة ثماني عشرة ومائتين. سلك ما كان المأمون عليه وختم به عمره في إمتحان الناس بخلق القرآن فكتب إلى البلاد بذلك. وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك. وقاسى الناس مشقة في ذلك. وقتل عليه خلقاً من العلماء. وضرب الإمام أحمد بن حنبل وكان ضربه في سنة عشرين ......»[2].

إن أبرز من طالتهم المحنة كان هو الإمام أحمد بن حنبل، الذي كان لوقفته الصلبة في مواجهة الترهيب، والتعرض للأذى البدني بالغ الأثر في صعود نجم طبقة العلماء، وتأكيد دورهم

(١) يعقوبي: تاريخ، ص ٢٠٤ ـ يذكر أن أحمد بن أبي دؤاد كان ذا نفوذ على المعتصم؛ المسعودي يذكر في التنبيه، ص ٣٥٦، أن المعتصم كان من أتباع الحسن البصري وهذا غريب على من سار في المحنة. السيوطي: ص ١٣٣ ـ يذكرأن المعتصم أمر بتعليم الأطفال خلق القرآن. cf. E.M., p. XVII. ؛

(٢) إبن كثير: البداية، ج ٩، ص ٣٣٤؛ أبو نعيم: حلية الأولياء، ص ١٩٧-٢٠٦؛ إبن كثير يذكر أن اسحاق بن ابراهيم نصح المعتصم ألا يطلق صراح أحمد بن حنبل لأن ذلك يعني انتصاره. المصدران حنبليان.

القائد في مجال الأمور الدينية. لقد امتحن ابن حنبل، وسُجن، وقُيِّد بالسلاسل، وهُدِّد بالقتل إن لم يقل بخلق القرآن. ولم ينقذه من ذلك المصير إلاّ موت المأمون الذي ربما كان سيمضي بتهديده إلى آخر مداه. وفي عهد المعتصم صار ابن حنبل محور الأمر كله، وقد بدا كما لو كان نجاح المحنة أو فشلها مرتبطاً بموقف أحمد بن حنبل وحده، وقد كان هذا هو شعور الجاني الممتَحن والممتِحن على السواء[1] فقد سجن بأمر المأمون ولكنه أبدى إصراراً جاداً على عدم التنازل عن رأيه رغم ما تعرض له من متاعب، وفي وقت انهارت فيه مقاومة آخرين، لكل ذلك أصبح ابن حنبل بطلاً شعبياً.

لقد كانت المحنة تباشر في بلاط الخليفة في بغداد عام ٢١٩هـ / ٨٣٤ - ٨٣٥ م في حضرة الخليفة نفسه والأعيان وفي حضور حرس السلطان. وكان الإمتحان يتم بوساطة ابن أبي دؤاد وابن الزيات، مع مشاركات من آخرين بين الحين والآخر[2]، أما المعتصم نفسه فلم يشارك، فقد كان الأمر فوق علمه ومعرفته، وإن كان قد شارك في جلد الإمام أحمد[3]. لقد استمرت المحنة لثلاثة أيام، ولكن الإمام أحمد بن حنبل واجهها بشجاعة فائقة تصل إلى حد الاستعداد للاستشهاد دفاعاً عما يعتقده. لقد واجه الإمتحان والتحقير والجلد الذي أوشك أن

(١) أبو نعيم: حلية الأولياء ص ١٩٨-٢٠٦ ؛ أبو العرب: كتاب المحن، ص ٤٣٨-٤٤٤. ؛ Patton: The Mihna, pp. 147-50 ; also E.I.(2) Mihna.

(٢) أبو نعيم، حلية الأولياء، ص ٢٠٦ ؛ عبد الحسين: مواقف.

(٣) إبن كثير، البداية، ج ٩، ص ٣٣٥.

يودي بحياته، وخلّف على جسده إصابات دائمة[١]. ما كان الإمام ليتنازل أو تثنيه حجج منطقية أو دينية، وظل شديد التمسك بالحديث الذي رفض بموجبه قبول نظرية خلق القرآن[٢].

وفي هذه الأثناء بدأ الاهتمام الشعبي بمجريات أمور المحنة يتزايد بوتيرة عالية. لقد كان صمود أحمد بن حنبل مثار إعجاب الناس، وجلب تعاطفهم معه، وتجسد ذلك في الشعور الشعبي العارم في محاولات مكشوفة للسعي لتخليص ابن حنبل عنوة[٣]. وحتى في بلاط الخليفة نفسه ؛ وبعض رجال الجيش أبدوا تعاطفاً مع ابن حنبل. وعلى كل فقد كانت معظم القوات التي تدين بالولاء المطلق للمعتصم خالية الذهن تماماً عما كان يجري.

وهكذا، فقد صارت الأداة التي صممت لتكون في عون الخليفة حين الجد أداة تنقلب عليه تدريجياً، أما المعتصم الذي لم يكن مقتنعاً أو مهتماً بالخلافات العقائدية فلم يكن ليستمر في

---

(١) اليعقوبي: تاريخ ص ١٥٨ ـ يذكر أن أحمد بن حنبل اعترف بخلق القرآن؛ الجاحظ في رسالته في خلق القرآن يقول ذلك أيضاً. لكن ذلك لا يتماشى مع سياق الرسالة. وزيادة على هذا فإن هذا يتناقض تماماً مع مكانة أحمد بن حنبل في المحنة وبين أهل الحديث. وكيف أن نهاية المحنة كانت إيذاناً بأفول نجم المعتزلة. See also E.I.(2) Mihna.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء، ص ٢٠٤-٢٠٦.

(٣) يذكر أبو نعيم وابن كثير أن المعتصم عبَّر لأحمد بن حنبل عن رغبته في ترك المحنة، وأنه إنما سار عليها لأن المأمون بدأها (إبن المرتضى: طبقات، ص ١٢٣-١٢٥).

جلد ابن حنبل في وقت كان الغضب الشعبي يزداد أمام ناظريه. لقد تخلى المعتصم عن تعذيب ابن حنبل[١] وأخلى سبيله، ولامتصاص غضب الجماهير التي تجمعت أمام الدار التي كان يعذب فيها ابن حنبل حاملة السلاح عندما سمعت أن حياته في خطر، اضطر المعتصم لإبراز أحمد بن حنبل أمام تلك الجماهير في أبهى حلة تستر جراحاته ومعاناته. لقد كانت تلك قمة المحنة، ولكنها لم تكن نهايتها، ومع أن المحنة استمرت في عهد الخليفة الواثق إلاّ أنها جمدت في السنوات الباقية من عهد المعتصم[٢].

- ٦ -

كان المأمون قد بدأ تطبيق سياسته الدينية بالقوة في الوقت الذي شرع في توجيه كتائبه لغزو بيزنطية[٣]. وهو الاتجاه الثالث في سياسته. وكان يهدف بذلك إلى إحياء سنّة الجهاد وكسب تأييد الأمة للخلافة. لكن الموت عاجله في معسكره على الحدود السورية البيزنطية على نهر البدندون في عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م. لقد داهمته الحمى، وربما كانت هي الملاريا، وأدت

---

(١) الطبري: ص ١١١٥-١١١٦ لا يذكر شيئا عن المحنة أيام المعتصم بل يورد أن الفقهاء اطلق سراحهم عند وفاة المأمون. انظر أعلاه الكتاب ومصادره . ؛ cf. E.M., p. XVI

(٢) لم تكن المحنة شيئاً جديداً ; cf. E.I.(1) Zandaqa.

(٣) جدير بالملاحظة أن المأمون بعث لإحضار أحمد بن حنبل وآخرين ليمتحنهم وهو في طريقه إلى غزو بيزنطية. الطبري: ص ١١١٥-١١١٦

إلى سرعة وفاته. ولكن المأمون وجد الوقت الكافي ليسمي المعتصم ولياً لعهده، وأملى عليه وصيته. لقد دل قرار المأمون هذا عن نظرة بصيرة بشؤون وشجون الدولة العباسية، وكشف قراره بأجلى صورة عن التركة المثقلة التي خلفها لخليفته، وهو أمر يفسر استمرار سياساته خلال فترة حكم المعتصم.

الفصل الثاني

نشأة المعتصم وتوليه الخلافة

«قال بعضهم وقد زوى الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أمياً فساقها الله إليه وجعل الخلفاء بعده من ذريته». السيوطي، «أخبار الخلفاء» ص ١١٣.

- ١ -

من الصعب تحديد تاريخ مولد الخليفة العباسي الثامن المعتصم. إن مصادر الأخبار لا تختلف فقط حول اليوم أو الشهر الذي ولد فيه، ولكنها تختلف حتى على السنة التي ولد فيها. لكن ليس من الصعب أن يعرف سبب ذلك، إذ لم يكن مولد المعتصم مثل مولد أخويه الأمين والمأمون ولا حتى مولد أخيه القاسم محل اهتمام حتى يلفت انتباه أولئك الذين كانوا يهتمون بأخبار الخلفاء أو الموعودين بالخلافة. كان يكفي ذكر اسم المعتصم ضمن أخوة وأخوات له كثر من أولاد وبنات هرون الرشيد. وفي الوقت الذي صار المعتصم مهماً يتذكر المؤرخون وأمثالهم يوم مولده، عندما صار خليفة أو ربما عند

موته أو بعده، كان العهد قد بعد وأصبح من العسير التأكد منه. وهكذا اختلفت المصادر. بيد أن الاختلاف لم يكن كبيراً ولم يكن مهماً. ولد المعتصم في الخلد - بغداد - في الشهرالثامن أو التاسع من عام ١٧٨هـ أو ١٧٩هـ أو ١٨٠هـ / ٧٩٤م أو ٧٩٥م أو٧٩٦م[١]. ولقب بالمعتصم بالله، واسمه محمد، وكانت كنيته «أبو اسحق».

إن الصعوبة نفسها تواجهنا فيما يتعلق بالأصل العرقي لأمه، وعلى كل فالرأي السائد أنها من أصل تركي، مما حدا ببعض الكتاب لاعتبار ذلك المفسر لصلات المعتصم بالترك. وتقدم هذه المقولة على أساس أنه بسبب كون أمه تركية نشأ المعتصم يعرف الترك ويحبهم، لذلك جمع أعداداً منهم ووضعهم في مواضع السلطة والنفوذ[٢]. وهو لهذا السبب يكون وحده المسؤول عن نفوذ الترك وأثرهم في مصير الخلفاء والخلافة[٣].

إنه ما من بينات موثوق بها تسند تلك الدعاوى المتعلقة بالأصل العرقي لأم المعتصم، لكن المصادر كلها تجمع على أن أم المعتصم لم تكن من أصول عربية، ولم يذكر أي مصدر أنها

(١) الطبري: ص ١٣٢٣-١٣٢٤ ؛ E.M., p. 127 ؛ المسعودي: ج ٧، ص ١٤٤ ؛ التنبيه ص ٣٥٣ ؛ إبن كثير: البداية ج ١٠، ص ٢٩٥ ؛ اليعقوبي ج ٣، ص ٢٥٤؛ الدينوري: الأخبار، ص ٤٠١.

(٢) حسن ابراهيم حسن: التاريخ، ج ٣، ص ١٧١-١٧٢ ؛ ناجي الأصيل: مدينة المعتصم، ص ١٦٢.

(٣) الخضري: محاضرات، ص ٢١٤.

كانت تركية. وفي الحقيقة أن أصلها العرقي لم يذكر قط. وأقرب ذكر لأصلها العرقي هو ما وصفت به بأنها كانت سغدية[1]، ومن المؤكد أنه قد كان هناك أتراك في السغد وفي غيرها من أجزاء الأمبراطورية العباسية. إن من يشك في صدق الإدعاء بأن أم المعتصم كانت تركية، أو حتى يرفض ذلك الزعم له ما يبرر رأيه لأنه ما من مصدر قد ذكر صراحة أنها كانت تركية. ولو كانت أم المعتصم تركية لذكر ذلك من قبل معاصريه لأنهم كانوا يشيرون باستمرار إلى المعتصم وجنوده الترك كما كانوا على علم بأهمية الأتراك في التاريخ العباسي. إن الطبري يذكر في حذر شديد أن أم المعتصم كانت سغدية[2]، وفيما بعد فإن محمد بن الهاشمي[3] الذي كان مهتماً بتتبع أصول أمهات الخلفاء ممن كن أمهات أولاد ـ وهن الجواري اللائي يكتسبن حريتهن بمجرد ولادة أولاد لرجال أحرار - قد جعل أم المعتصم من بين هؤلاء، لكنه لم يحدد أصلها العرقي[4]. ولهذه الأسباب، وأخذاً من مصادر أخرى، فقد قيل إن أم المعتصم كانت جارية من أصل غير عربي ـ مولدة ـ من الكوفة وكان اسمها ماردة.

---

(١) الوصف سغدية قد يكون عرقياً ومن ثم يعني ايرانية وقد يكون اقليمياً ومن ثم يصعب التحديد عرقياً. ولما كانت من مولدات الكوفة فالأرجح أنها إيرانية

(٢) الطبري: ص ١٣٢٩ . ; E.M., p. 132

(٣) المحبر: ص ٤٥.

(٤) E.I., S.V. Umm walad; E.I. (2) S.V. Abd.

يقول الطبري:

«وذكر عن أبي حسّان أنه قال: كانت أم أبي اسحاق المعتصم من مولدات الكوفة يقال لها ماردة. وذكر عن الفضل ابن مروان أنه قال كانت أم المعتصم ماردة سغدية. وكان أبوها نشأ بالسواد . . . وكان للرشيد من ماردة، مع أبي اسحاق، أبو اسماعيل وأم حبيب وآخران لم يعرف أسماؤهما. . . .»[1].

لقد تأكد هذا وهو يكتسب أهمية لأنه حتى ولو كانت في الأصل تركية، فلا بد أنها قد كانت من الترك الذين سكنوا في السُغد، وبالتالي فقد كانوا بعيدين جداً عن القبائل البدوية التي كانت تنتمي إليها العناصر التركية في جيش المعتصم[2]، يضاف إلى ذلك أنها لم تولد وتنشأ في الكوفة فحسب، بل والدها نفسه قد شب وترعرع في سواد العراق[3].

وهكذا يتضح أن تفسير جلب المعتصم للترك للإلتحاق بجيش الخلافة العباسية بسبب أصل أمه التركي المفترض هو تفسير لا يسنده أي دليل. ونتساءل: هل كان من الممكن أن

---

(1) الطبري: ص ١٣٢٩ ؛ E.M., p. 132 ؛ اليعقوبي: ج ٣، ص ١٩٧ ؛ المسعودي: ج ٧، ص ١٠٣؛ التنبيه: ص ٣٥٢ idem, VII, p. 103.

(2) E.I., S.V. Soghd؛ ياقوت: البلدان، ج ٣، ص ٩٤-٩٥ ؛ Frye and Ayidin: Turks in the M.E., pp. 198-201؛ الجاحظ: مناقب.

(3) الطبري: ص ١٣٢٩؛ M., p. 132 ; E.I., S.V. Sawad, see Duri: Eco. Life of Mesopotamia also؛ المسعودي، ج ٧، ص ١٠٣، يذكر المسعودي أن اسم أبيها «شالب» واسمها «ماردة» كلاهما اسم عربي؛ يقول السيوطي: أخبار، ص ١٣٢ ـ إنها كانت أثيرة لدى الرشيد بينما لا يذكرها ابن الساعي في «نساء الخلفاء».

يكون شخص كالجاحظ وهو ممن عرفوا المعتصم جيداً، وكتب رسالته المشهورة عن مناقب الترك أن يتردد في ذكر أصل أم المعتصم، أو أصل أخوال المعتصم لأمه، إذا كانت فعلاً تركية؟ أما كان ذلك ليعد مثار فخار علماً بأن صراحة نسب الأمهات لم يعد شيئاً هاماً بالنسبة للخلفاء العباسيين مثلما كان للأمويين. وحتى الخلفاء الأمويون كان منهم من أبناء أمهات الأولاد. من المحتمل جداً أن تكون أم المعتصم غير تركية، ومن المحتمل أن تكون من أصل ايراني فقد وصفت بأنها سُغدية عندما كانت في العراق .إن الجهل بأصلها العرقي مثله مثل عدم التأكد من تاريخ مولد ابنها يكشفان عن مدى صلتها بالحياة في بلاط الخليفة وبأمور الدولة وأهميتهما في سلسلة ولاية العهد، لقد كانت أحدى محظيات الخليفة هرون الرشيد، وكان المعتصم واحداً من أبنائه، ولم يكن مرشحاً للخلافة ولا طامعاً فيها، فقد كان للخليفة الرشيد ثلاثة من الولد غيره سماهم لولاية عهده بالتتابع.

إن لهذا الغموض وعدم الدقة الذي أحاط ببواكير حياة المعتصم وتنشئته أهمية خاصة. كانت الإشارة إلى المعتصم حال حياة والده نادرة جداً، ومن الواضح أنه ما كان للأب ولا لواحد ممن كانوا حوله أدنى توقع لأن يصبح المعتصم خليفة (ناهيك عما صار إليه الأمر فعلاً فيما بعد إذ جاء كل الخلفاء العباسيين من بعده من نسله)[1]. ففي الوقت الذي بذل الخليفة

(١) السيوطي: الأخبار، ص ١١٣.

الرشيد عناية فائقة لتعليم وتدريب أولاده الثلاثة: المأمون والأمين والقاسم ليصلحوا لتولي الخلافة، فإن المعتصم لم يحظ بأي تعليم نظامي قط. وفي الوقت الذي كان أخوته يتلقون تعليمهم على أيدي أكفأ المعلمين، كان المعتصم يتلقى تعليمه في كتّاب مثله مثل باقي العامة. وإذا كان معظم العامة يحصلون على قدر من التعليم إذا ما انتظموا في الدراسة إلاّ أن المعتصم ترك الدراسة في سن مبكرة، في وقت لم يكن قد ألم فيه بالقراءة والكتابة بصورة جيدة. وهنا تروى قصة طريفة يوردها إبن كثير وغيره. يقول إبن كثير:

«وكان أمياً لا يحسن الكتابة، وكان سبب ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتّاب غلام فمات الغلام فقال له أبوه الرشيد ما فعل غلامك ؟ قال مات فاستراح من الكتّاب. فقال له الرشيد: وقد بلغ بك كراهة الكتّاب أن تجعل الموت راحة منه! والله يا بنيّ لا تذهب بعد اليوم إلى الكتّاب. فتركه، فكان أمياً. وقيل بل كان يكتب كتابة ضعيفة»[1].

مما يلفت الانتباه أن يكون مصدر هذه القصة أدب الكتاب لا كتب الحوليات، لذلك فهي متأخرة نوعاً ما، وعلى كل فإذا لم تصدق القصة فإنه لا يستتبع ذلك شك في أن تعليم المعتصم لم يكن كافياً. إن مصادر معاصريه أو القريبين منهم أمثال الجاحظ والطبري واليعقوبي والمسعودي وابن قتيبة لم يلقوا أي

(١) إبن كثير: البداية، ج ١٠، ص ٢٩٥٠؛ ابن العبار: أعتاب، ص ١٥٨؛ السيوطي: الأخبار، ص ١٣٢؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٦.

ضوء على تعليم المعتصم، وإن سكوتهم عن مثل هذا الأمر الهام يبدو سبباً معقولاً لافتراض عدم وجوده أساساً. وفي هذا الخصوص يلاحظ أنه لم يرد ذكر المعتصم في كتاب «الأغاني» الذي كان يعبر عن الذوق الأدبي والتعليم والحياة الاجتماعية في تلك الحقبة. ومن اللافت أيضاً أنه ما من رسالة من رسالات الجاحظ كانت قد وجهت إلى المعتصم شخصياً.

إن دور المعتصم كان سلبياً في الجوانب العقيدية في المحنة التي بلغت قمتها في عهده، وتم خلالها جلد الإمام أحمد بن حنبل. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن المعتصم لم يكن ليرقى لفهم المناشط الفكرية للمأمون والمعتزلة، أو ما تميزت به الفترة كلها، بل كان مؤشراً على فقر معرفته وضحالة تعليمه. لقد كان صوت المأمون عالياً في الجدل الدائر حول خلق القرآن، ولم يكن صوت المأمون هو فقط صوت الخليفة الذي يمسك بزمام السلطة، والدولة كلها تتبعه، وإنما كان صوته وبالقدر نفسه صوت مفكر شديد الاعتقاد فيما يقول. أما صوت المعتصم فقد كان صوت القوة وحدها. وكانت الحجج هي حجج أحمد بن دؤاد، وربما كانت أمية المعتصم هي التي عناها الشاعر دعبل حينما وصفه بأنه كان ناقص عقل ودين[1]. وفي قصيدة أبي تمام الشهيرة، التي مدح فيها المعتصم عند انتصاره بفتح عمورية، كانت هناك بعض الفقرات وربما فهمت بأنها تؤيد دعاوى القائلين بأمية المعتصم ،ففي فاتحة تلك القصيدة أعلى

(١) البستاني: المنتقيات ص ١٢٣.

أبوتمام من شأن السيف وأنه أصدق إنباء من الكتب، - وهو يقصد هنا المنجمين - أما في البيت الثاني فإن الشاعر يركز بصورة خاصة على أن بيض الصفائح، أي شفرات السيوف الحادة، لا سود الصحائف من الكتب هي التي فيها جلاء الشك والريب[1].

السيف أصدق إنباءً من الكتب في
حدّه الحد بين الجِدّ واللّعبِ

بيضُ الصفائحِ لا سود الصحائف في
متونهن جلاءُ الشك والريَبِ

إن ابتعاد المعتصم في فجر شبابه عن الدوائر الفكرية والعلمية ومجالس البلاط هو الذي يمكن أن يفسر ضآلة المعلومات عن تلك الفترة من حياته. بعض المراجع تشير إلى أن والده كان معجباً به، وإنه لم يكن حريصاً على تعليمه[2]. ومصادر موثوق بها تشير إلى أن المعتصم كان مهتماً بالصيد والقنص منذ وقت باكر في صباه، وتشير المصادر إلى حدوث ذلك في حياة والده الرشيد[3]. إن المعلومات شحيحة جداً،

---

(١) البستاني: المنتقيات، ص ٧١.
(٢) السيوطي: الاخبار، ص ١٣٤.
(٣) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٢؛ التنوخي: نشوار، ص ٢٨. أول تاريخ لميلاد المعتصم هو عام ١٧٨هـ / ٧٩٤-٧٩٥ م. كان موت الرشيد عام ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ -٨٠٩ م.

ومع ذلك يمكن الاستنتاج منها أن المعتصم كان قد جبل على طبيعة عملية. وكما كان ابن خليفة كان له دور بارز في مجال الحروب والجهاد. لقد بذل المعتصم أقصى جهده وقدراته ليتقن فن الحرب، وربما كانت ألعاب طفولته التي شغلته عن ارتياد الكتّاب أو تلقي التعليم، وربما كانت كلها مصبوغة بروح الحرب والجهاد. ومن الممكن أيضاً أن يكون والده قد شجعه ليمضي في هذا الاتجاه خاصة وأنه كان يصحبه في رحلاته للصيد والقنص، في وقت لم يكن عمر المعتصم يتجاوز الخامسة عشرة. يضاف إلى ذلك احتمال أن يكون احساس المعتصم بقلة زاده من التعليم هو الذي دفعه بوعي أو بدون وعي منه ليجعل مجال تميزه في ميادين القتال. وفي هذا المجال ظهرت عبقريته فعلاً.

- ٢ -

إن الصورة عن المعتصم خلال الحرب بين أخويه الأمين والمأمون ليست بالأكثر وضوحاً. لقد كان المعتصم يافعا وقتها. وخلافاً لإخوانه الآخرين وكبار أقاربه فلم يشارك مباشرة في الخلافات الدائرة حول ولاية العهد، كما لم يكن طرفاً في نزاعات البلاط ومؤامراته. ومن الصعب معرفة أي شيء عن وضع المعتصم في تلك الفترة رغم أهميتها، فقد كان ذلك الحين بعيداً جداً عن الأجواء السياسية السائدة، ولم تكن فرصته

لتولي الخلافة واردة أبداً. وعلى كل فقد ظهر في عهد المأمون تتبعه ثلة من الجنود الأتراك[1]. وكانت الاشارة إليهم أنهم من جنوده الخاصين به، ولم يكونوا كثيري العدد ولم ترد إشارة إلى كيفية أو زمان أو سبب جمعه لهم ؛ إلا أنه كأمير كان يملك الثروة لجمع غلمان والاحتفاظ بهم، وربما كان في ميوله العسكرية وللوضع غير المستقر أثناء الحرب الأهلية مبرراً لإحاطة المعتصم نفسه بما تيسّر من الغلمان.

إن من الواضح آنذاك أن المعتصم ظهر بقواته لا في خدمة الخليفة المأمون لكن في خدمة بغداد وفي خدمة دعاوى العباسيين، حينما بدأ المأمون في تطبيق سياسته في ولاية العهد واختار العلوي علي بن موسى الرضا ولياً للعهد. فهل كان المعتصم يرى في ذلك فرصته لولاية العهد ؟ خاصة وأن الأمين كان قد توفي والقاسم قد أبعد عن ولاية العهد بقرار من الأمين. لقد كان العباس إبن المأمون هو وحده منافس المعتصم على ولاية العهد، إذ كان عما المأمون: ابراهيم والمنصور ابنا المهدي اللذان تركزت حولهما معارضة سياسات المأمون العلوية ـ وكان المعتصم يؤيدهما ـ أكبر سناً من المأمون، ولم يكن يتوقع أن يعيشا بعده وإن كان ابراهيم قد عاش فعلاً بعد

(١) الطبري: ص ١٠٦٧؛ ابن قتيبة: المعارف ص ١٩٨، تجارب، ج ٦، ص ٤٣٧٠ ـ في هذا الحادث حيث واجه المعتصم مع غلمانه بعض الخوارج يتضح أنهم كانوا قليلي العدد؛ وأنهم وصفوا المماليك موالي المعتصم شخصياً.

المأمون. ومرة أخرى فإن كل السوابق المتعلقة بولاية العهد كانت تشير إلى أن الأمور لا تسير لصالح المعتصم. وفي كل الأحوال، فإن المعتصم قد واتته فرصته على بعد توقعها. على أن القول بأن السعي لنيل الخلافة هو الذي حرك المعتصم ليتخذ ذلك الموقف هو أمر بعيد الاحتمال، ولكن المؤكد هو أن ظهوره المتعلق بشؤون الدولة كان مرتبطاً بمسألة ولاية العهد ومصير الخلافة العباسية(١).

بانتهاء مشكلة ولاية العهد بموت علي بن موسى الرضا فإن المرء لا يجد أثراً للمعتصم لفترة من الزمن. لكن لا يبعد عن الحقيقة افتراض أن المعتصم كان وباستمرار وبخطوات متدرجة يثبت جدارته كقائد عسكري مقتدر وأنه كان يجمع حوله المزيد من الغلمان الترك. لقد كان المأمون في أمس الحاجة إليه في ذلك الوقت المائج بالثورات، وبالتغيير المستمر في الجيش وفي الادارة على حد سواء(٢).

إن علينا أن نتذكر أن المعتصم وإن كان قد أبدى معارضة لسياسة المأمون في اختيار علوي لولاية العهد، إلا أنه لم يبلغ بمعارضته حد تأييد عمه ابراهيم بن المهدي منافس المأمون على الخلافة. إن ما يمكن جمعه من معلومات حول موقف المعتصم

---

(١) See A. Chejne: **Succession to the Rule in Islam**. The choice after Four Caliphs was predominantly in favour of the direct line though in actual fact the result was not so in many cases especially when these were minors or in absence of the direct line.

(٢) الكندي: كتاب القضاة، ص ١١٩.

من هذه المسألة هو أنه لم يكن مؤيداً لابراهيم بن المهدي في حركته، بل إن الشواهد تقوم على أن المعتصم والعباس بن المأمون قد نصحا المأمون مؤخراً بقتل ابراهيم بن المهدي جزاء ما اقترفت يداه[1]. يضاف إلى ذلك حقيقة أن المعتصم لم يكن بأي حال من الأحوال متصلاً بدوائر البلاط في بغداد، أو مشتركاً بأي صورة من الصور في مؤامرات البلاط بعد عهد هرون الرشيد. ولا بد أن كل هذه العوامل مجتمعة هي التي زكت المعتصم عند المأمون الذي صار يدير كل أمور الدولة منفرداً بعد وفاة وزيره الفضل بن سهل، وأنه كان فعلاً في حاجة إلى رجال مثل المعتصم ممن يثق بهم[2].

وهكذا بدأ نجم المعتصم في الصعود[3] وأخذ يتمتع بمزيد من النفوذ والأهمية. وفي عام ٢١٣هـ/٨٢٨-٨٢٩م-عين المأمون المعتصم والياً على سوريا ومصر[4] في وقت كانت الاضطرابات تستشري في الإقليمين، إذ كانت سوريا هي معقل معارضي بني العباس ومناصري انتفاضة بني أمية[5]. وفي مصر ظل القبط والعرب على حد سواء يسببون متاعب جمة للمأمون في آخر أيامه، إذ كانت انتفاضاتهم تتوالى ضد ولاته وضد

---

(١) الطبري: ص ١٠٧٨ ؛ ابن قتيبة: عيون، ص ١٠٠؛ التنوخي: الفرج، ص ٤٥.

(٢) المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٢.

(٣) التنوخي: نشوار، ص ٢٨.

(٤) الطبري: ص ١١٠٠؛ الكندي: كتاب الولاة، ص ١٨٥.

(٥) الطبري: ص ١٠٤٢، ١٠٦٩.

سياساتهم[١]. أضف إلى ذلك أن مصر كانت عرضة لهجمات غزاة من الأندلس ومن بيزنطية[٢].

اختيار المأمون للمعتصم ربما كان راجعاً لمقدراته العسكرية أكثر منه إلى خبراته في مجال الحكم أو الإدارة الإقليمية، ويبدو أن المعتصم وقتها كان قد اكتسب شهرة كقائد عنيف فظ. ويقال إن المصريين كانوا يخافون المعتصم أشد الخوف إلى حد جعلهم يوفدون ممثليهم ليطلبوا من المأمون أن يعفيهم من تولية المعتصم عليهم[٣].

أصبح من الواضح أن المعتصم والعباس بن المأمون قد صارا الساعد الأيمن للخليفة، وأصبحا أقرب فردين في عائلة بني العباس الحاكمة إلى المأمون. ومما يلاحظ هنا أنه لم يقم دليل على تنافس أو ملاحاة بين الاثنين بعد. لقد كان المأمون نفسه شاباً ولم يكن موضوع ولاية العهد أمراً ملحاً إلى الحد الذي يجلب مثل تلك المتاعب. يضاف إلى ذلك أن المأمون كان يعاملهما بطريقة لا تتيح لأي منهما فرصة لحسد صاحبه، فمثلاً كان يفوضهما في وقت واحد لمباشرة مهام مختلفة[٤]. وفي بعض المسائل كان يفزع إليهما في وقت واحد للإدلاء

(١) الطبري: ص ١١٠٣، ١١٠٥؛ الكندي: الولاة، ص ١٨٩ - ١٩٢ ؛ المقريزي: الخطط، ص ٣٣-٤٠؛ ابن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٢٥٥؛ Lapidus, I.M., The Conversion of Egypt to Islam.

(٢) الكندي: الولاة، ص ١٦٣-١٦٨.

(٣) الكندي: القضاة، ص ١١٧.

(٤) الطبري: ص ١٠٩٨، ١١١٠.

برأييهما في المسألة المعنية[1]. وكان لكل منهما نصيبه في إدارة الأقاليم، فعندما طلب إلى المعتصم والي مصر وسوريا وقتها أن يجند الجنود ويجمع المواد للتجهيز لحرب بيزنطية طلب إلى العباس والي الجزيرة أن يفعل الشيء نفسه[2].

كان كلا الرجلين - المعتصم والعباس - من رجال السيف لا القلم، لكن ما كان يميز المعتصم أنه إلى جانب الفرق التابعة لجيش الخليفة التي تولى قيادتها، كان يحيط نفسه بمجموعته الخاصة من غلمانه الأتراك، ولم يكن للعباس مثل ذلك. يضاف إلى ذلك أن المعتصم كان الأكبر سناً والأكثر تجربة والأقوى شخصية وتمتع باحترام أوفر مما تمتع به العباس[3]. إن الشواهد تدل على أنه حتى قبل حسم مسألة ولاية العهد للمعتصم كان المأمون أكثر ثقة واعتماداً على المعتصم[4]. رغم ذلك فلم يقم أي دليل على أن المعتصم نفسه أو أي مجموعة من المقربين من الخليفة قد فكروا أو قد عملوا على أن يخلف المعتصم أخاه المأمون. فمن جانب لم تثر مسألة ولاية العهد، ومن الجانب الآخر كانت هناك مشاكل كثيرة تشغل بال المأمون وبال رجاله بمن فيهم المعتصم نفسه؛ كانت هناك سياسات المأمون الدينية

(١) إبن قتيبة: عيون، ج ١، ص ١٠٠ ؛ التنوخي: الفرج، ص ٤٥.
(٢) الطبري: ص ١١٠٠، ١١١٢.
(٣) اليعقوبي: ج ٣، ص ١٩٧.
(٤) الكندي: القضاة، ص ١١٩.

كما كانت هناك الثورات والانتفاضات التي عمت أرجاء الدولة العباسية.

- ٣ -

وعلى الرغم من قرب المعتصم من المأمون إلاّ أن المرء يلاحظ أن المعتصم لم يكن كذلك من دوائر البلاط أو الكتاب، كما لم يظهر أي ذكر للعباس أو المعتصم في ما يتعلق بالمعتزلة أو بسياسات المأمون الدينية. كانت الصورة البادية للمعتصم أنه المحارب البعيد جداً عن السياسة ومؤامرات البلاط، إذ كان برزخ من الثقافات المختلفة والنشأة المختلفة يفصله عن مجموعات رجال القلم. لقد كان مكانه بين رجال السيف، وحتى في هذا المجال كان المعتصم مختلفاً عن قدامى الجند، كما كان اختلاف رجاله عنهم أيضاً واضحاً. وشخصية المعتصم بجانب شخصية المأمون، وهو الخليفة، كانت شخصية الفارس المغوار الشهم أكثر من شخصية القائد مع أنه كان قائداً مقتدراً. و هذا ما يوضح ورود اسمه في قصص وأساطير تصوّر بطولته وأمجاده الشخصية[1]. إن حبه الشخصي للتجهيزات والأزياء البيزنطية، وسعيه الدائم لإثبات قواه الجسدية وتميزه الشخصي كلها أشياء تشير إلى تطور التقاليد العسكرية في زمانه. وهذه

(١) المسعودي، مروج، ج ٧، ص ٣٠٢؛ التنبيه، ص ٣٥٤-٣٥٥؛ الفخري، ص ٣١٦؛ السيوطي: أخبار ص ١٣٣؛ إبن عبد ربه: العقد، ج ٣، ص ٥٥-٥٦؛ المقريزي: السلوك، ص ١٦؛ cf. M. Canard: Les Principaux Personages; H. Gregoire: Digenis Akritas et le Calife Mu'tasim.

كلها يمكن أن تعزى إلى السنوات الباكرة من عمره التي قضاها يتدرب على صناعة الحرب وفنونها، كما يمكن أن تكون ثمرة لسنوات الاضطراب في بغداد خلال نشوب الحرب الأهلية وما بعدها، حينما كان الأمن والنظام يقعان في أيدي جماعات الفتيان والعراة والعيارين وأشباههم، وعندما كانت الشهامة هي الصفة المميزة لهذه المجموعات[١].

خصَّ الله المعتصم بقوة جسدية عظيمة، ولم تكن تنقصه الشجاعة، ولم يكن لينتمي إلى أي طبقة من طبقات المغامرين من العامة. لقد كان أميراً ثم صار خليفة. وفي هذا الخصوص ربما كان هو المثل الأعلى لسيف الدولة بن حمدان الذي قامت شهرته على شجاعته وغزواته الناجحة ضد البيزنطيين. إن الأشعار القليلة التي مجد فيها أبو تمام والآخرون المعتصم صارت هي النهج الذي اتبعه المتنبي في سيفياته التي مدح بها سيف الدولة، ويبدو الأمر أكثر وضوحاً حينما يرى المرء في عهد المعتصم منعطفاً جديداً في تاريخ الحروب الحدودية بين البيزنطيين والعباسيين قبل تفكك الدولة العباسية إلى إمارات. فالمعتصم هو الذي تولى قيادة آخر هجوم رئيسي ضد البيزنطيين حينما كانت الدولة العباسية لا تزال متماسكة[٢].

وكان تميز رجال المعتصم في مثل تميزه هو نفسه، إذ كان مظهرهم وتدريبهم مختلفاً عن باقي جيوش الخلافة خراسانيين

(١) تنظر المصادر العربية الآنف ذكرها. أيضاً الطبري: ص ١٣٢٦ -١٣٢٧. انظر أيضاً الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٢) M. Canard: Les Expeditions.. pp. 105-12.

كانوا أو موالي ممن يمثلون النسق التقليدي لجيوش العباسيين وثقافتهم[1]. وإذا ما تذكرنا أن المعتصم قد حكم بعد المأمون لثمانية أعوام وثمانية أشهر فقط، وأنه اضطر لدخول المواجهات العسكرية الكبرى في عهده بعد وفاة المأمون مباشرة مثل حملاته ضد بابك الخرمي، وضد بيزنطية، وضد الزط، وعليه يحق لنا أن نستنتج باطمئنان أن المعتصم لا بد وأنه جمع قواته الخاصة في عهد المأمون الطويل. يدعم هذا الاستنتاج حقيقة أن المعتصم شرع في بناء مدينة سامراء بمجرد تولّيه الخلافة، وكان أساساً يهدف إيجاد مقرآمن لقواته تلك. هم الذين كانوا يزدادون عدداً وأهمية، وعليه لم يكن ثمة بد من نشوء التنافس بينهم وبين قدامى الأجناد. لقد كان هؤلاء الرجال الجدد هم الذين يحيطون بالمعتصم؛ ومن ثم إذا كان التعليم حاجزاً بين المعتصم ورجال الإدارة والكتاب والمجموعات المتعلمة، فقد كان اختلاف هيأته وهيأة رجاله عن بقية قوات الجيش عازلاً بينه وبين قدامى رجال الجيش أيضاً. والمعتصم لم يكن قادراً على تضييق الهوة بين العناصر الجديدة والقديمة في الجيش. إن الإتجاه نحو الفروسية والنخوة في صورة القائد البطل، ومن ثم المقدرة على كسب ولاء المجموعة وشحذ خيالها، ولو أنه لم يكن جديداً على

(١) لا يوجد الكثير في المصادر عن تدريب هؤلاء العسكر أو حياتهم اليومية. ومن رسالة الجاحظ عنهم ومما أشير إليه في تسكينهم بسامراء يخلص المرء إلى أنهم كانوا عناصر جديدة على المجتمع العباسي. وفيما يرى بابيز أن اصطنع تعني درّب فإن السياق لا يعني أكثر من استمالتهم وكسب ولائهم ،See Ch. I, no. 33.

التقاليد العربية أو الفارسية إلاّ أنه قد كان خطراً أيضاً في تلك الظروف التي قلّت فيها هيبة الخلافة. لقد كان التفاني من أجل الثورة والدولة والولاء للمجموعة هو الذي جلب للعباسيين للسلطة. ولكن المعتصم لم يكن يملك الدافع أو الدراية للاستمرار في التمسك بتقاليد السابقين من الخلفاء العباسيين، لأنه لم ينشأ ليكون واحداً منهم، ولكنه ورغم كل شيء صار خليفة!.

ـ ٤ ـ

تم اختيار المعتصم خليفة عباسياً خلال حملة المأمون على بيزنطية في عام ٢١٨هـ/٨٣٣م[١]، لقد كان الخليفة المأمون القائد العام لتلك الحملة يساعده في ذلك ابنه العباس وأخوه المعتصم وتولى كل منهما قيادة قسم من القوات العباسية[٢]. كان الإعداد للحملة جيداً وأحرزت القوات العباسية انتصارات مبدئية، ولكن مرضاً عضالاً فاجأ المأمون وتفاقم خطره. ولعل الاحساس بدنو أجله وقد عصره المرض، وهو في الحدود بعيداً عن عاصمته وفي وقت كانت الخلافة تعاني من وطأة الاضطرابات الداخلية والخارجية، لعل ذلك ما جعله يبادر باتخاذ قراره في ولاية العهد. ومما يؤكد أن هواجسه كانت

---

(١) الطبري: ص ١١٣٣ - ١١٣٤.

(٢) الطبري: ص ١١٣٥، ١١٣٦ ؛ إبن قتيبة: المعارف، ص ١١٩ ؛ Bar-Hebraeus I, p. 133. ؛ الدينوري في روايته، يقول إن العباس لم يكن هناك.

تلك الأوضاع ما جاء في وصيته لخليفته المعتصم الذي وقع عليه اختياره.

هل كان العباس الاختيار الافضل؟ إن العباس لم يصبح خليفة. لذلك لم يكثر ذكره في المراجع. هل كان الطابع الحرج للمشكلة أو جو الحملة العسكرية مع إمكانية وجود ضغوط من قبل مجموعة المعتصم من العسكريين هي التي حملت المأمون على اختيار أخيه المحارب المعتصم ولياً للعهد؟ أم أن المعتصم كان اختيار المأمون لولاية العهد بأي حال من الأحوال؟ إن من الصعب الإجابة على هذين السؤالين بل ربما الإجابة مستحيلة تماماً، لكن من المؤكد أن المأمون باختياره المعتصم ولياً للعهد دون ابنه العباس قد خالف التقاليد المألوفة في ولاية العهد(١). وإذا كان المأمون قد حافظ على الخلافة في أسرته إلاّ أنه لم يحافظ على التقليد الذي كان يجعلها تستمر في ولده، في وقت لم يكن ابنه العباس قاصراً. إن الأمر يبدو كما لو كان المأمون فعل ما فعل واعياً بقراره محساً بأن من واجبه كقائد للمسلمين أن يختار لهم الأنسب ليصبح خليفة عليهم(٢). وبناءً على هذا، ولما قيل سابقاً عن العلاقة التي كانت تربط بين المعتصم والمأمون فإنه يمكن الافتراض بأن اختيار المأمون للمعتصم لم

---

(١) A. Chejne: Succession to The Rule in Islam.... op. cit.

(٢) القلقشندي: صبح، ج ٩، ص ٣٦٢-٣٦٦ ؛ الطبري: ص ١١٣٧-١١٤٠، رواية الطبري تؤكد تعمد المأمون اختيار المعتصم وتفضيله على آخرين، حيث يقول إنه نقلها إليه من آخرين.

يكن وليد اللحظة التي جاء فيها، كما لم يكن نتيجة لأي ضغوط أو بسبب الوضع الحرج الذي كان فيه المأمون.

ومع كل ذلك فقد جاء اختيار المعتصم مفاجئاً بدون إعداد أو تمهيد وبلا سابقة تماثله ومتفرداً في عدة وجوه. لقد كان الفارق الزمني بين اختيار المعتصم ولياً للعهد وتقلده السلطة فعلاً بضعة أيام فقط. وكان التقليد السابق الذي اتبعه الأمويون والعباسيون هو أن يختار الخليفة ولي عهده حال حياته، وأن يتأكد من إتمام البيعة له قبل مدة طويلة من أيلولة السلطة من بعده إليه. وإذا كان الخلفاء شديدي الحرص على ضمان ولاء رعاياهم لأولياء عهدهم، فقد كانت مسألة تسمية ولي العهد هي الموضوع الأول الذي تتم معالجته فور تولي الخليفة للسلطة. ولقد التزم المأمون نفسه بهذا النهج حينما اختار علي بن موسى الرضا ولياً لعهده، ولكن بموت الأخير طويت صفحة مسألة ولاية العهد، وأرجئت حتى الأيام الأخيرة من حياة المامون.

لا مناص من التساؤل عما إذا كان ترك المأمون لمسالة ولاية العهد حتى اللحظات الأخيرة من حياته سياسة مقصودة، أم أن الحالة غير المتوقعة للأوضاع الضاغطة التي أحاطت به آنذاك هي التي حتمت ذلك؟ ربما كان الأمران سوياً سبباً في القرار. فاختيار ولي العهد باكراً ربما كان قد أدى إلى تشرذم أنصاره في وقت كان المأمون في أمسّ الحاجة إلى وحدة الصف لمواجهة مشاكل عهده المتعددة. أما الأمر بالنسبة للمعتصم، فقد كان يعني أنه وإن لم تكن هناك معارضة منظمة

ونافذة ضده لمفاجأة القرار، إلاّ أنه وبالقدر نفسه لم يكن قد أعد مجموعة لتناصره حينما صار الأمر فعلاً. لكن الذي حدث هو أن المعارضة قد ثارت، كما وُجد المناصرون. وكان كل فريق من المعارضين والمناصرين يمثل فئة معينة، وأن تلك التكتلات حينما تمايزت كانت تعبر عن اختلاف بعضها عن بعض، وهو اختلاف طفا على السطح بسبب ذلك الاختيار في تلك الظروف غير العادية.

وحول هذه المشكلة تبدو رواية الطبري الأكثر تفصيلاً والأكثر دقة[1]، فالطبري يروي أنه:

«في عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م نفذت كتب المأمون إلى ولاته مبتدئة هكذا من عبدالله المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي اسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد»، ثم يمضي الطبري في روايته مضيفاً بأنه «قد قيل إن تلك لم تكن كتابة المأمون، وإن ذلك قد كتب أثناء إفاقة له أثناء مرضه ووفقاً لأوامر قد أصدرها لإبنه العباس، وأخيه أبي اسحق، وعبدالله بن طاهر بأنه إذا مات في مرضه ذلك فإن الخليفة من بعده هو أبو اسحق المعتصم ابن أمير المؤمنين الرشيد. فكتب بذلك محمد بن دؤاد وختم الكتب وأنفذها». ويضيف الطبري أن المأمون قد أرسل يستدعي ابنه العباس حينما اشتد مرضه، ظاناً أنه لن يلقاه حياً؛ لكن العباس قد لحق بوالده ليجده في حالة تغير جسدي وعقلي، وبقي إلى جانبه بعد أن كانت كتب اختيار المعتصم ولياً للعهد قد أرسلت

(١) الطبري: ص ١١٣٣-١١٣٤.

فعلاً، ويزيد الطبري: «وقيل لم يوص إلاّ والعباس حاضر والقضاة والفقهاء والقواد والكتاب»[1].

مما يلاحظ أن شكوك الطبري لم تكن متعلقة بواقعة تولية المعتصم العهد بقدر ما كانت متعلقة بطبيعة الأحداث وتسلسلها، خاصة فيما يتعلق بمكان وجود العباس الذي تشير كل الروايات الى أنه كان موجوداً إلى جوار والده المأمون المحتضر. وفي هذا الخصوص يمكن تفسير الأمور بصورة أفضل لو علمنا حقيقة أن الأمر كله قد تم في معسكر حربي بعيداً عن العاصمة. ولذلك، فإن الأخبار التي وصلت إلى رواة الطبري وغيره من الكتاب مباشرة أو غير مباشرة قد تضاربت بعض الشيء في التفاصيل. ولكن الحقيقة الماثلة هي أن العباس كان في وسط المشكلة. لقد كان العباس هو البديل. ووفقاً للتقاليد كان هو المرشح المحتمل لولاية العهد. ولم يكن العباس نفسه يحمل أي توقع فيما يبدو عن الموضوع وقتها كما يوضح ذلك بجلاء ما عبر عنه من تأييد فوري ودعم لعمه، وكما أوضحه رفضه السريع والحاسم لتحريض تلك القطاعات من الجيش التي أرادت له أن يتحدى سلطة عمه المعتصم[3]. إن هذه الوقائع

(1) الطبري: ص ١١٣٥ ؛ إبن كثير: البداية، ج ١٠، ص ٢٨٠.

(2) الدينوري: الأخبار ص ٣٩٦ له ـ رواية لا يسانده فيها أحد، إذ يقول إن المأمون بايع لابنه العباس وخلفه في بغداد وإن المعتصم أخذ الخلافة عنوة.

(3) الطبري: ص ١١٣٣-١١٣٥؛ E.M., p.1 ؛ اليعقوبي: ج ٣، ص١٩٧؛ إبن قتيبة: المعارف، ص ١٩٩؛ إبن كثير: البداية، ص٢١٨؛ Bar-Hebraeus I, p. 133.

بذاتها تدعم الفكرة القائلة بأن العباس كان على أقل تقدير موجوداً في الوقت الذي أعلن والده رغبته في أن تؤول ولاية العهد إلى المعتصم[١].

لا بد أن المعتصم قد سعد كثيراً بموقف العباس ذلك، وأحس بالتقدير لرفضه لدعوى مؤيديه وتحريضهم له لمنافسة عمه على الخلافة. لقد حسم الأمر لمصلحة المعتصم وتفادت الخلافة شرور صراع حاد. ووفقاً لما رواه الطبري فقد خشي الناس أن ينافس العباس عمه المعتصم على الخلافة لكنهم سلموا من شر ذلك الخلاف[٢]. بيد أن الحادثة نفسها كانت مهمة جداً فيما يتعلق بمصير العباس وآخرين من أمثال عجيف ابن عنبسة ممن كانوا يدعمون حق العباس في ولاية العهد[٣]. إن المصادر لا تذكر شيئاً عن أصول تلك الحادثة أو المجموعات التي وقعت بينها . ويبدو أنها كانت عارضة ولم تبق طويلاً. يتحدث الطبري عن جنود تمردوا حين ولي المعتصم ونادوا بالعباس خليفة وخاطبوه بالخلافة[٤]. ويتحدث اليعقوبي أيضاً عن قادة من العسكر رفضوا أن يقسموا يمين الولاء

---

(١) الطبري مرجع سابق؛ إبن قتيبية مرجع سابق؛ المسعودي: ج ٧، ص ١٠٣ ـ يذكر أن شجاراً وقع بين المعتصم والعباس في أمر ولاية العهد لكن العباس قبل أخيراً.

(٢) الطبري: ص ١١٦٤؛ E.M., p.1.

(٣) E.I. (2) S,V, l-Abbas b. al-M'mun ؛ انظر الفصل الخامس.

(٤) الطبري: ص ١١٦٤؛ E.M., p.1؛ إبن كثير: البداية، ص٢٨١؛ Bar-Hebraeus I, p. 13

للمعتصم[١]. إن الروايتين لا تعدمان التعضيد، ولكنهما خلتا تماماً من أية تفاصيل. وهكذا فقد عارض بعض الجنود و بعض القادة المعتصم، وبالاستناد إلى الشواهد المثبوتة في المراجع على قلة ما فيها خاصة رواية اليعقوبي التي أشار فيها إلى العلاقة بين القادة المتمردين والعباسيين والمأمون، ومما نعرفه عن تكوين الجيش وقتها، فمن المؤكد أن المعارضة قد جاءت من الجنود والقادة القدامى الذين رأوا خطورة في صعود نجم المعتصم وعسكره. يدل على ذلك ما استجد من أحداث في عهد المعتصم. و كانت ثورتهم معارضة للمعتصم وجنده الجدد أكثر منها انحيازاً للعباس. لقد رأى بعض القادة في نجاح المعتصم والتصاقه بالمأمون ما أحنقهم عليه حتى في أيام المأمون.

ومن المهم أن هذه المعارضة اقتصرت على الدوائر العسكرية ولم تشمل دوائر الكتاب. ويبدو أن الأخيرين على عكس العسكر لم يكونوا يخشون تدخل المعتصم في شؤونهم. يضاف إلى ذلك أن الوصية التي تركها المأمون للمعتصم بخصوصهم قد أمنت موقفهم تماماً[٢]. إن ما ينبغي ذكره هنا هو أن هذه المجموعات لم تعد ذات سطوة ونفوذ في أمور الدولة بعد أن انتهى عصر رجال الدولة من الوزراء كالبرامكة وآل

---

(١) اليعقوبي: ج ٣، ص ١٩٧؛ إبن قتيبة: المعارف، ص ١٩٩.

(٢) الطبري: ص ١١٣٨-١١٤٠. ما كان في مقدور المعتصم عمل ذلك لأنه قليل الزاد من العلم ولم يكن من تلك الدوائر.

سهل، وحل عهد الكتاب الذين غدوا أدوات تنفيذ للسياسات أكثر منهم أصحاب مبادرات. لهذا فلم تكن هناك معارضة واضحة في البلاط مثلما كان عليه الحال سابقاً. وصارت العصبية المهنية بديلاً كما تمثل ذلك بوضوح في طبقة الكتاب وآدابهم[١]. لقد حدث ذلك في وقت تزايدت فيه سطوة القادة العسكر عموماً، و كان هذا في حد ذاته تطوراً رئيساً وهاماً في تاريخ الخلافة العباسية. وفي هذه الأوضاع فإن صعود نجم المعتصم لم يكن يمثل استثناءً، إذ إن المعتصم كان قائداً عسكرياً. وبحق فإن تولي المعتصم الخلافة كان واحدة من الحوادث التاريخية النادرة التي بدت معها الأمور وكأن مصادفات عديدة تضافرت لإحداثها.

ـ ٥ ـ

اختيار محمد أبي إسحق المعتصم وتوليه الخلافة ـ وهو الأمير الأمي المقاتل الذي تميزت فترة حكمه بالانتصارات والأمجاد الحربية ـ تم في معسكر أثناء واحدة من الحملات العسكرية ووسط الجنود والقادة. لقد حسم أمر ولاية العهد نهائياً في ذلك المكان. وبالنسبة لموافقة بقية أفراد الأمة من الرعية وحتى بالنسبة لبغداد كانت الطاعة أمراً مرغوباً فيه، أما تسوية الأمر نهائياً فلم يكن مما يعنيهم كثيراً، ولم يبد أنهم كانوا يعيرونه كبير اهتمام، والطبري يروي:

(١) الجاحظ: ذم أخلاق الكتاب.
(٢) الطبري: ص ١١٦٤ ؛ E.M., p.I

«وفي هذه السنة بُويع لأبي إسحق محمد بن هرون الرشيد ابن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بالخلافة وذلك يوم الخميس لإثني عشر ليلة بقيت من رجب عام مئتين وثمانية عشر. وذكر أن الناس كانوا قد اشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له في الخلافة فسلموا من ذلك».

لقد كان ذلك موقفاً سلبياً فاتر الحماس. وبدت الأمور وكأن موضوع ولاية العهد قد صار أمراً بعيداً خارجاً عن اهتماماتهم، بعد أن أصبحت الخلافة من قبل هذا ببعيد ملكاً عضوداً وشأناً أسرياً خاصاً رغم ما أتى عنها في كتب الفقه السياسي من بعد.

وهنا يلاحظ المرء مرة أخرى تطوراً خطيراً في التاريخ العباسي خاصة والتاريخ الإسلامي عامة. لقد كان السائد حتى عهد هرون الرشيد هو أن موافقة الأمة على اختيار ولي العهد أمر يحرص عليه الخليفة حتى ولو كان ذلك أمراً شكلياً. لقد حرص الرشيد مثلاً على أن يستميل حاشيته والعلماء وحتى العامة لقبول ولاية العهد التي عقدها لأبنائه الثلاثة. أما الآن فإن المشكلة قد حلها المأمون وهو على فراش الموت في حضور قادته العسكريين وحاشيته من الرسميين الذين وقع عليهم عبء إنفاذ أوامره[1]. كان قراراً عسكرياً خلفَّ أميراً عسكرياً

(١) هذا يختلف تماماً عن وصية الراشد أبي بكر (ر) لعمر (ر)، فما كان ذلك شأنا أسرياً؛ ومع ذلك فعلى هذه السابقة أسس بعض العلماء حق الخليفة في الوصية بالعهد. انظر الفصل الأول.

أفضى إلى قيام نظام عسكري ليس بسبب طبيعته، ولا بسبب الظروف التي أحاطت به، ولكن لأنه جاء في وقت صار فيه الإنفصام بين الدولة ورعاياها حاداً وبالتالي بعيد الأثر في نتائجه.

ومن اللافت للنظر أن المأمون في آخر وصاياه للمعتصم قد أبدى اهتماماً شديداً بالعامة (العوام) كما كان يسميهم ويصفهم بالرعية[١]. لقد فقدت الأمة المسلمة تدريجياً اهتمامها بمسألة ولاية العهد، وبالتالي فقدت حقها ونفوذها في إقراره، وتدريجياً بدأ المجتمع ينقسم حكاماً ومحكومين، وجانبا رسمياً وآخر غير رسمي. لقد بذل المأمون جهداً كبيراً خلال فترة حكمه لرأب الصدع الذي حدث لكن دون جدوى، وقد كان هذا يعني في النهاية أن الخلافة قد أخذت تفقد سلطتها الحقيقية وأهميتها، وأخذت تتحول شيئاً فشيئاً إلى مجرد رمز، لكن في ذلك الوقت بالذات كانت بداية لذلك التطور. وإنه لمن الأهمية بمكان أن يحدث ذلك في عهد المعتصم وهو الذي كانت نشأته مخالفة لنشأة كل من سبقه من الخلفاء.

وإذا كانت الأمة قد فقدت اهتمامها بالخلافة والخلفاء، فإن الإخباريين لم ينحوا المنحى نفسه. وفي حالة المعتصم الذي أصبح خليفة فإن المصادر قد حوت الكثير مما كان يدور حوله، إذ صار وقتها قطب الرحى والجاذب لكل اهتمام. وبدأت الأخبار عنه تتسم بالدقة والتمحيص.. وعليه يمكن الوثوق بما

(١) الطبري: ص ١١٣٧-١١٣٨.

سجله الطبري بأن البيعة للمعتصم بالخلافة قد تمت في السابع عشر من رجب عام ٢١٨هـ الموافق العاشر من أغسطس عام ٨٣٣م(١).

تمت البيعة على شاطئ نهر البدندون على الحدود بين سوريا وبيزنطية، وكان ذلك في اليوم نفسه الذي مات فيه المأمون. ولم يكن المعتصم قد شفي تماماً من الوعكة التي ألمت به مثلما ألمت بالمأمون(٢). لقد توقفت الحملة ضد بيزنطية، وتحرك المعتصم ومعه العباس وبقية القوات إلى طرسوس حيث شيع المأمون إلى مثواه الأخير وقبر هناك. ثم أصدر المعتصم أوامره بإزالة كل التحصينات التي أقيمت بأمر المأمون في طوانة، إذ كانت الحملة قد علقت وأمرت الجيوش بالعودة من حيث أتت. وكان بقاء تلك التحصينات سليمة يشكل تهديداً أمنياً للدولة العباسية لو وقعت تلك التحصينات في يد الدولة البيزنطية. وتحرك المعتصم قاصداً بغداد وفي معيته العباس فبلغوها لأول يوم من رمضان عام ٢١٨هـ الموافق لليوم العشرين من سبتمبر عام ٨٣٣م(٣).

(١) الطبري: ص ١١٦٤؛ E.M., p.I؛ إبن قتيبة: المعارف، ص ١٩٩؛ المسعودي ج ٧ ص ١٠٢؛ مصادر أخرى تعطي تاريخاً مغايراً في بعض الأحيان للخلط بين «بقين» و «خلون».

(٢) الطبري: ص ١١٣٥؛ إبن كثير: البداية، ص ٢٨١.

(٣) الطبري: ص ١١٦٤؛ E.M., p.I؛ إبن قتيبة: المعارف، ص ١٩٩؛ اليعقوبي ج ٣، ص ١٩٧؛ إبن العبار يورد في إعتاب ص ٥٥ أن الفضل ابن مروان كاتب المعتصم أخذ البيعة له ببغداد قبل وصوله لها.

إن من الغريب ألّا يذكر الطبري شيئاً عن دخول الخليفة بغداد ولا عن كيفية استقباله فيها، لكنه مضى ليذكر خبر الانتفاضة في منطقة الجبال، وهي حقيقة تشير إلى أن الناس لم يعودوا يهتمون بأمر ولاية العهد قدر اهتمامهم بالانتفاضات التي كانت تهددهم في معايشهم وفي جماعتهم. إن بعض المصادر تشير إلى أن إيقاف الحملات العسكرية ضد بيزنطية، التي لم تكن إلاّ في بواكيرها، إنما كان القرار الأصوب على ضوء الظروف السائدة التي كان منها أيلولة الخلافة لخليفة جديد، و لما ثار بين الجند من نزاعات، وفوق ذلك نصيحة المأمون للمعتصم بذلك[1]. وعلى كل، فقد كانت من الدواعي التي حتمت السرعة في تنفيذ القرار عوامل أخر، إذ يورد إبن قتيبة أن المعتصم كان قلقاً على سلامته الشخصية من بعض قادة من الجيش كانوا يدبرون قتله. أما الطبري فلا يذكر شيئاً عن هذا الأمر، لكن مارواه عن المتاعب التي سببها العسكر - وهو أمر ذكرته مصادر أخرى - ربما يكون مؤشراً على صدق ما ذكره إبن قتيبة. وإذا صح ذلك فإن أمر حسم موضوع ولاية العهد بالقوة لم يكن أمراً جديداً جاء به الترك، ففي وقت سابق من هذه الوقائع كان طاهر بن الحسين هو الذي أصدر أوامره للجنود العباسيين بقتل الخليفة الأمين.

وكيفما يكون الحال فقد أحس المعتصم بالحاجة الماسة إلى الإسراع إلى بغداد ليمنحه الناس ولاءهم، وبتلك الطريقة يكون

(١) الطبري: ص ١١٣٨.

في وضع يمكنه من استباق أي تطورات تنجم عن مشاكل يثيرها الجنود، أو تنجم عن انتفاضة تقودها أي مجموعة تناصر العباس إذا كانت هناك ثمة مجموعات كهذه في العراق. كما أن عودة الجنود إلى ذويهم ربما أخمدت جذوة الثورة عندهم. وعلى الجانب الآخر ربما كان الأمر كله قد تم وفقاً لنصيحة المأمون مضافاً إليها حسن تدبير المعتصم، وتقديره الصحيح للأمور، ومعرفته بحجم المشاكل التي تعين عليه مواجهتها. إن على المرء ألاّ يقلل من حجم المشاكل التي واجهت المعتصم والتي كان عليه أن يثبت جدارته للمنصب بمواجهتها. ولا بد أن يذكر هنا وجود معارضة من شرائح من الجيش القديم وأن الشقة زادت اتساعاً بينهم وبين المعتصم. لقد تعين على المعتصم منذ بواكير عهده أن يكون واعياً بالمخاطر التي كانت تحيط به من قبل هذه الدوائر المعادية.

وهكذا يبدأ عهد المعتصم غير المتوقع، تحف به النزاعات والمشاكل، في أحوال غير مسبوقة .إن طبيعة تلك الظروف، يضاف إليها أن المعتصم لم يكن رجل دولة أو سياسة مما حتم أن يكون عهده استمراراً للعهد الذي سبقه. لقد كان هذا هو مضمون وصية المأمون للمعتصم وفق ما يرويه الطبري[1]. إن

(١) من حسن الحظ أن هذه الوصية لم تتعرض للتغيير والتبديل إذ لم ترد في مصادر كثيرة بكاملها. وفي الطبري فقط نجد التفاصيل. ولم يترك المأمون شيئاً للمعتصم في أمور الدولة والرعية إلاّ ووصاه له. وصاه برجاله: أحمد بن دؤاد وإسحق بن إبراهيم، وبعدم الاستيزار، وبالأخذ بالمحنة، وبالتجرد لبابك والزط وبيزنطية. ولأن كل هذا ما تم في عهد المعتصم

هذه العوامل هي أيضاً التي ميزت عهد المعتصم باستمرار الانقسامات في المجتمع وتوالي تدني سلطة ونفوذ الخلافة والخلفاء. والمعتصم لم يكن رجل دولة ولكنه كان قائداً عسكرياً، وعلى ضوء هذه الأوضاع وحدها يستطيع المرء أن يقدر حسن ملاءمة توليه السلطة ليضع حداً لانتفاضات بابك والزط والآخرين، وليتم مسيرته الظافرة بفتح عمورية[١]، لكن هذه الانتصارات الحربية نفسها هي التي مهدت السبيل لسيطرة العسكر، وأدت بالتالي إلى اتساع الشقة بين الحكام والمحكومين وإلى ضعف الخلافة كمحصلة نهائية.

بالفعل قد يثار شك حول صحة الوصية. لكن الشواهد المعاصرة تؤكدها وتشير إلى إحساس المأمون العظيم بمسؤوليته نحو أخيه ونحو الخلافة.
See: A. Dietrich; Das Politische Testament, p. 133-165; E.I. S.V. Wasiyya.

(١) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

الفصل الثالث

المعتصم والترك

- ١ -

اتصل المسلمون طيلة توسعهم في وسط آسيا بالترك، سواء أكانوا من الحضر الذين اختلطوا بالإيرانيين أم من البدو الرحل الذين كان نمط حياتهم يتميز بالغزو والنهب. وحتى عهد باكر يرجع إلى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وقبل أن يكتمل غزو خراسان كانت هناك غارات يشنها بدو الترك في تلك الولاية قريباً من مرو ومتوغلة حتى نيسابور[١]. وعلى كل، ففي عهد الأمويين اتصل المسلمون مباشرة بالترك في دولتيهم الغربية والشمالية. وفي الفترة من ٨٦ إلى ٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٥م وتحت قيادة قتيبة بن مسلم - الوالي الأموي الشهير - حقق المسلمون انتصارهم الأهم على أتراك الدولة الغربية. وتحت قيادة أسد القسري وفي عام ١١٩ هـ / ٧٣٧م حطم المسلمون قوة أتراك

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٥٦ ؛ البلاذري: الفتوح، ج ٥، ص ٥٨٣ ؛ cf. Gibb, **The Arab Conquests in Central Asia**.

الدولة الغربية حينما هزموا المجموعة المسيطرة من بينهم: مجموعة خاقانات تركش. أما أمبراطورية الأتراك الشمالية فقد جاءت نهايتها لاحقاً في عام ٧٧٤م[١].

لما تمَّ للأمويين التمكن والسيادة على المستقرين، ومن ثم السيطرة على المناطق المتحضرة من منطقة بلاد ما وراء النهر، كما يقول بارتولد، وبعد أن تم لهم إزاحة التهديد الرئيسي لسلطتهم، إنتقلوا إلى اتّباع سياسة دفاعية مثلهم مثل من سبقوهم في حكم تلك المناطق[٢]. إن الطبيعة الجبلية للمنطقة ووعورتها، وطبيعة الأتراك الشكسة وخصائصهم كبدو، جعلت غزوهم أمراً عسيراً ولا طائل من ورائه. كانت المشكلة الرئيسة تتمثل في كيفية الدفاع عن المناطق المستقرة في مواجهة هجمات البدو الرحل. ولمواجهة هذه المشكلة فقد اتبع الأمويون والعباسيون من بعدهم الأساليب نفسها التي اتبعها الرومان قديماً كما اتبعها اليونانيون والبيزنطيون والساسانيون حينما كانوا يواجهون تلك التحديات، وهي بناء الأسوار الدفاعية في مواقع استراتيجية تصد عنهم الهجمات التي تستهدفهم[٣]. لقد غدا أمر إقامة الأسوار

(١) Barthold, **Histoire des Turcs**, p.. 31; Wittek, Turkentum, p. 495; EI, first ed., s. v. Turks; Shaban, M.A., The Abbasid Revolution. Pp. 124-126.

(٢) Barthold, **Histoire des Turcs**, p. 31-32; Wittek, Turkentum, p. 509؛ علينا أن نتذكر أن الانتصار على أتراك الغرب تم قبل عشرين عاماً فقط من قيام الثورة العباسية.

(٣) المروج: ج ٣، ص ٢-٣؛ ياقوت: البلدان، ص ١٥٦؛ قدامة: الخراج، ص ٢٦٢؛ إبن الفقيه: البلدان، ص ٣٠٤؛ إبن اجفنديار: ص ٢٧؛ **Barthold, Histoire des Turcs**, p. 32; Wittek, **Turkentum**, p. 509.

لصد هجمات الترك أمراً شائعاً إلى الحد الذي جعل أحد الكتاب العرب يقول: إن كلمة «ترك» مأخوذة من الكلمة العربية «تَركَ». ووفقاً لرأي هذا الكاتب فإنهم سموا بالترك لأنهم تركوا خلف سور الاسكندر(١). وربما كان وجود مثل هذه الأفكار مضافاً إليها ما وجده المسلمون الأوائل من صعاب في مواجهة الترك هي التي روجت رواية (اتركوا الترك ما تركوكم)(٢). وعلى أي حال فقد استمرت العلاقات التجارية بين الترك والمسلمين، ومن خلالها وغيرها من صلات بدأ النفوذ الإسلامي يجد طريقه إلى الترك. إن هذا الاختراق كان مهماً فيما يتعلق بترك الشمال، إذ لم يكن لهم مع المسلمين الصلات نفسها التي كانت للمسلمين مع الأتراك الغربيين(٣).

ومن خلال هذه الاتصالات وغيرها أمكن معرفة الكثير عن الأتراك، وعن ممالكهم، وأمبراطورياتهم، ولغاتهم، وقبائلهم، وأماكن استقرارهم، ومراكزهم التجارية. ومع قيام الدليل بأن

---

(١) إبن الفقيه: البلدان ص ٢٩٩. في صفحة ٦ يقول إنهم سموا تركاً لاستدارة رؤوسهم كالبيضة بسبب تعرضهم الدائم للصقيع؛ CF. C.E. Wilson, The wall of Alexander, and Lisan sub trk; see also: Quran, XVIII, 90-7.

(٢) قدامة: الخراج ص ٢٦٢؛ إبن الفقيه: البلدان، ص ٣١٦؛ ct. Goldziher, **Muh. Studien.**, p. 270؛ الجاحظ: مناقب، ص ٣٤ ـ يشير الجاحظ إلى رواية عمر بن الخطاب توصف الترك بأنهم عدو صعب طلبه ومن ثم «اتركوا»، هكذا يقال عن الحبش أيضاً.

(٣) المسعودي: المروج، ج ١، ص ٢٩٨-٣٠٠، ج ٢، ص ١٥-٢٤؛ Wittek, **Turkentum**, p. 509 **Turcs**, pp. 32, 35; EI, first ed., s. v. Turks

بعض قدامى الكتاب العرب كانوا على معرفة بأحوال الترك[1]، إلاّ أن معظمهم إن لم يكن كلهم قد استخدموا كلمة «ترك» لتشمل كل أنواع الترك. وهكذا صارت الكلمة دالة على القبائل البدوية التي كانت تقطن سهول آسيا الوسطى. وفي هذا المجال فإن العرب لم يكونوا يختلفون كثيراً عن الترك أنفسهم حينما كانوا يستعملون كلمة «ترك»، إذ إنهم كانوا يستعملون الكلمة لا في معناها العرقي وإنما استعملوها أكثر في معناها السياسي أو اللغوي[2]. إن أمبراطورياتهم التي امتدت من منغوليا والحدود الشمالية للصين حتى البحر الأسود كانت أساساً من البدو الرحل. وغني عن القول أن نذكر بأنه لم يكن كل الترك بدواً رحلاً، ولا كانوا كلهم ممن احتوتهم الحدود الجغرافية لتلك الأمبراطوريات. وفي خلال غزوهم للبلاد المجاورة كالسغد، وأشروسنة، وطبرستان، وجرجان وحتى خراسان، فقد كان بعض الترك يتخلفون ليصبحوا فيما بعد من أصحاب البلاد الأصليين، وفي بعض الأحيان كانت لغاتهم التركية تسود على اللهجات المحلية، فإذا ما استعمل غير الترك اللغة التركية أصبحوا يعتبرون أتراكاً[3].

(١) المسعودي: المروج، ج ١، ص ٢٨٦-٢٩٠؛ ص ٣٨-٦٤؛ Barthold, Histoire des Turcs, . 25.

(٢) Barthold, op. cit., p. 25 ; Wittek, **Turkentum**, p. 495; EI, first ed., Turks. .v .s

(٣) Frye and Sayili, **Turks** pp. 194-5; Wittek, **Turkentum**, p. 496; Barthold, **Histoire des Turcs**, p. p 29-31; cf. B. Lewis, **The Arabs in History**, introduction.

- ٢ -

كان لخراسان وما جاورها من المقاطعات أهمية خاصة لدى العباسيين. والدور الذي لعبته هذه المناطق في تاريخ الأسرة العباسية الحاكمة لا داعي لإيراده هنا. وقد اتبع العباسيون مثلهم مثل أسلافهم الأمويين سياسة دفاعية في مواجهة جيرانهم في الشرق وفي الشمال الشرقي لخراسان أولاً. وقد جاء التحول إلى سياسة الهجوم في عهد المأمون وبالذات في الفترة التي أقام فيها بمرو. وواقع الأمر أن خراسان كانت قد أصبحت ولاية أميرية من قبل انتقال المأمون إليها وذلك إعترافاً بأهميتها ومكانتها في الخلافة العباسية. يؤكد ذلك ما حدث عندما عقد للمأمون ولاية العهد مع أخيه الأمين حيث جعل له المشرق أي خراسان[١]. أما في عهد المأمون فقد صارت لبعض الوقت الولاية الحاكمة[٢]. ومارس المأمون خلال إقامته في المنطقة كولي عهد وكخليفة سياسات دفاعية وهجومية. فمع المخاطر المحيطة بتلك المناطق كانت إمكانات التوسع الديني والإقليمي والمادي، إذ كانت تلك الأراضي واعدة بالكثير. وخلافاً لغيرها من المناطق الحدودية لعالم الدولة العباسية - حيث الحواجز السياسية والدينية والجغرافية التي تجعل الاختراق والتوسع أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً - لم تكن مثل تلك الحواجز قائمة

---

(١) Barthold, Turkestan, pp. 197-8.

(٢) الطبري: أحداث الأعوام ١٩٨-٢٠٤ هـ.

في هذه المنطقة. وكان لابد مع توتر علاقاته بالعراق قبل وبعد وفاة الأمين بقليل أن يسعى لتأمين موقفه في خراسان، وأن يتنبّه إلى ما يجري في الشرق والشمال الشرقي بغرض التوسع ولحماية خراسان نفسها. ودفعه ذلك دفعاً إلى تبني سياسة جديدة تشكل حقبة جديدة في تاريخ العلاقات الإسلامية التركية. لقد كان هذا التغيير مرصوداً ومقدراً لدى الكتاب المسلمين في ذلك العصر، فالبلاذري مثلاً يبدأ حديثه عن نشاطات المأمون بعبارة «ولماّ» وهي تشير إلى تحول جديد في الأخبار. ويروي أن المأمون بعد تولي الخلافة وخلال سنواته التي قضاها في خراسان كان قد أرسل جنوده إلى السغد، وأشروسنة، كما وجه بعضهم ضد الثوار في فرغانة، وفي الوقت نفسه فقد بعث برسائله تدعو الناس للدخول في الإسلام، وأن يكونوا من رعايا الخلافة:

«ولماّ استخلف المأمون أمير المؤمنين أغزى السغد وأشروسنة ومن انتفض عليه من أهل فرغانة الجند، وألحّ عليهم بالحروب والغارات أيام مقامه بخراسان وبعد ذلك، وكان مع تسريته الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيها»[1].

إن هذا التناول المزدوج قد أكسبه ولاء رافع بن الليث ومؤيديه من الأتراك، كما جلب له أيضاً ولاء مازيار بن قارن حاكم طبرستان. وأكثر أهمية من هذا كله أن نوح بن أسد

(١) الفتوح: ص ٦٠٣ -٦٠٤؛ Barthold, **Turkestan**, p 212

الساماني وأخوته الثلاثة قد صاروا في عهد المأمون حكاماً لسمرقند وفرغانة والشاش. وبالتعاون مع الأخوة الثلاثة ومن تلك المناطق لا سيما سمرقند وحاكمها نوح جاءت معظم قوات المعتصم الجديدة[١].

كان السائد الإشارة إلى قوات المعتصم الجديدة بالترك، ولكن تلك القوات لم تكن كلها حقيقة من الترك. كان من بينها مجموعة المغاربة الذين تم تجنيدهم من مصر، أو ربما من غرب مصر. ووفقاً للمسعودي فقد كانت هذه القوات من أصول عربية تنتمي إلى اليمن وقيس[٢]. أما بالنسبة للقوات المجلوبة من المقاطعات الشرقية من خراسان وما وراء النهر فهناك مراجع كافية تشير إلى البلاد التي جاؤوا منها مما يدل بوضوح على أن استخدام اسم «الترك» على كل القوات إنما كان تعميماً[٣]. ولا بد أن يلفت الانتباه سقوط الأسم «ترك» في بعض تلك المراجع، فالبلاذري مثلا يقول: إن معظم قوات المعتصم كانت من شعوب ما وراء النهر، ومن السغد ومن أشروسنة وفرغانة والشاش ومن مناطق أخرى. وهو يرى أن الترك كانت مواطنهم

(١) Barthold, Turkestan, pp. 109-11. ؛ لابد من ملاحظة أن هذه البلدان كانت جزءاً من العالم الإيراني.

(٢) المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١١٨؛ التنبيه، ص ٣٥٦.

(٣) البلاذري: الفتوح، ج ٥، ص ٦٠٦؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩-٣٣؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١١٨؛ الجاحظ: مناقب الترك، ص ٥-٨؛ إبن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٣٥٧؛ إبن الاثير: الكامل، ج ٦، ص ٣١٩. المصدران الأخيران وحدهما اللذان يصفان المجموعتين بالفراغنة والمغاربة.

خلف هذه المناطق الإيرانية ويمضي البلاذري ليروي أن ملوك هذه المناطق قد وفدوا على بلاط المعتصم، وأن الإسلام كان هو الديانة الغالبة لسكان مناطقهم، وأن هؤلاء السكان بدأوا يغزون الترك القاطنين خلف مناطقهم:

«ثم استخلف المعتصم بالله مكانه على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفراعنة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم. وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على هناك، وصار أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك»[1].

إن البلاذري لا يختلف عن كتاب آخرين كانت كتاباتهم تشير بوضوح إلى اعتبار أهل المناطق المنوّه عنها متميزين عن الترك، وأنهم شعوب مختلفة عن الترك تماماً. فابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠ هـ/ ١١٦٠-١٢٣٣م) وهو يكتب في عهد السلاجقة، وابن خلدون (٧٣٢-٧٨٤هـ/ ١٣٣٢-١٣٨٢م) وهو يكتب في عهد المماليك، لم يرد في كتابيهما اسم الترك وإنما كانا يشيران إلى المغاربة من مصر[2] والفراغنة من سمرقند، وأشروسنة وفرغانة. واليعقوبي والطبري وهما يمثلان الاتجاه البغدادي يستعملان اسم الترك لكل القوات، ولكنهما أحياناً يعطيان بعض ما يشير إلى تنوع واختلاف أعراق تلك القوات. وعلى كل فاليعقوبي لا يأتي على ذكر مجموعة المغاربة إلاّ نادراً. أما المسعودي الذي يقع

(١) البلاذري: الفتوح، ج ٥، ص ٦٠٦.

(٢) الطبري: ص ١٢٥٠، ١٣١٢ يذكر «المغاربة».

عهده ومكانه بين مجموعتي الكتاب سالفي الذكر، فإنه يذكر المغاربة، أما الترك فإنه يطلقه على كل القوات القادمة من الولايات الشرقية، ولكنه يذكر أنه قد كان من بينهم من ليسوا تركاً ـ من خراسان وفرغانة وأشروسنة ـ. أما الجاحظ فإنه كان يسمي كل القادمين من الشرق خراسانيين، ويسمي الأتراك بدو العجم[(١)].

كانت كلمتا ترك وخراسانيين، تستخدمان تعميماً ودائماً في مضمون إقليمي، ولكن الحقيقة هي أن الجيوش العباسية كانت تضم بدون أدنى شك عناصر تركية ضمن عسكرها لسنوات خلت سابقة لعهد المعتصم. وحتى في عهد الخليفة المنصور فإن المرء يلقى إشارات إلى أفراد موصوفين بأنهم من الترك في العراق وفي غير العراق[(٢)]. ومن اللافت للنظر أنه في حالة كل أولئك الأفراد، فإنا نجدهم وقد اكتسبوا درجة من الأهمية بسبب صلتهم بخليفة أو حاكم أو صاحب جاه. ومن المؤكد أنه كان من الممكن وصف آخرين بالصورة نفسها لو كان ثمة مناسبة لذلك. ومرة أخرى، فإنه ما من أحد يجزم يقيناً بالمعنى الذي

(١) يعرض الجاحظ هنا رأي الفتح بن خاقان الذي اقتنع به. وعند كليهما الفرق بين الترك والخراسانيين هو أن الترك بدو والخراسانيين حضر. وجمع الجاحظ بين الترك والخراسانيين هو إشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه الخراسانيون في قيام الدولة العباسية والامبراطورية العباسية أيامه. الجاحظ: مناقب الترك.

(٢) الثعالبي: لطائف، ص ١٥؛ الجهشياري: الوزراء، ص ١٣٤؛ إبن الفقيه: البلدان، ص ٢٨٢؛ إبن بدرون: شرح، ص ٢٩٢. الثعالبي وابن بدرون يذكران أن المنصور هو أول من استخدم الترك.

كان يعطى لكلمة «ترك»، ولربما كان أولئك الرجال يسمون تركاً لما كانوا يتميزون به عن بقية الخراسانيين، ولأنه كانت تنطبق عليهم أوصاف الترك في تلك الفترة، وهم البدو الرحل من سهول آسيا الوسطى. ولم يكونوا يوصفون بالخراسانيين لأن الخراسانيين اعتنقوا الإسلام، وربما استعربوا قبل مدة كافية من قدومهم إلى العراق. أما بالنسبة للبغداديين فلم تكن المشكلة أنهم كانوا من الترك، ولكن المشكلة هي أنهم كانوا علوجاً عجماً وغرباء لا يتكلمون العربية[1]. وإذا حكمنا عليهم من الأسماء الخاصة للمناطق التي انحدروا منها مثل السغد وفرغانة وأشروسنة والشاش، فإنا نجد أغلبيتهم ربما كانت من أصول إيرانية.

إن التيقن من الأصول العرقية لجنود المعتصم قد لا يكون أمراً هاماً في ذاته، لكن الأمر قد يكون مختلفاً بالنسبة لأولئك الذين يسعون للتأكيد بأن التاريخ العباسي قد كان عهداً رائعاً متألقاً أيام ما سموه عهد النفوذ الفارسي، ولكنه خبا وأظلم تحت ما سموه النفوذ التركي. المهم هو أن نوضح أن المعتصم قد جمع في عهد المأمون الكثير من قواته إن لم نقل معظمها، وهو في عهد اتضحت فيه الحاجة إلى رفد جيش الخلافة بعناصر جديدة. ومن المحتمل جداً وجود قوات تركية ضمن جيش المأمون بالإضافة إلى القوات التي كانت تذكر دائماً مقرونة بالمعتصم، عندما كان المأمون في مرو ومعظم الجنود الخراسانيين يقاتلون ضد الأمين. ثم بعد ذلك في الحروب

(١) الطبري: ص ١١٨١؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩.

المتعددة في العراق واليمن وسوريا، فلا بد أن تكون الفجوة التي حدثت بغياب أولئك الجنود قد ملئت برجال جدد، وأن هؤلاء الرجال لم يكونوا يختلفون عن الرجال الذين جلبهم المعتصم فيما بعد من الشرق، ويؤكد هذا حقيقة أن نوح بن أسد أحد ولاة المأمون هو الذي استقدم تلك القوات للمعتصم. ويذكر الأصطخري في وصفه لبلاد ما وراء النهر بأن قوات السامانيين كانت متنوعة وتتكون من رقيق أتراك ومن أحرار من بلدان معروفة. ويقول حكام تلك المناطق كانوا يسعون لضم الأتراك لقواتهم لتميزهم على الآخرين بالثبات والجلد والجرأة والشجاعة والدهاء. ويمضي قائلاً: إن الاتراك والفراعنة قد أصبحوا عصب قوات الخلافة. والجاحظ يورد خبر مجموعة من الجنود الأتراك كانوا وقوفاً ضمن قوات أخرى للخليفة المأمون، فيقول: إن معظم الجنود الآخرين قد استراحوا جلوساً على الأرض بعد أن طال تعرضهم لشمس النهار المحرقة، أما أفراد المجموعة التركية باستثناء ثلاثة منهم أو أربعة فقد ظلوا على ظهور خيولهم في منتهى اليقظة والانتباه، ومن ثم يمضي الجاحظ لإطراء حكمة المعتصم في جمع مثل هذه القوات الممتازة، قاصداً بذلك الأتراك:

«رأيت في بعض غزوات المأمون سماطي الخيل على جنبتي الطريق بقرب المنزل، مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن، ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر، وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون، وقد انتصف النهار واشتد الحر. فورد عليهم وجميع الأتراك جلوس على ظهور خيولهم إلاّ ثلاثة أو أربعة وجميع تلك الأخلاط من الجند قد رموا

أنفسهم إلى الأرض إلاّ ثلاثة أو أربعة، فقلت لصاحبي: أنظر أي شيء اتفق لنا، أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم»[1].

إن إشارات الجاحظ لا توضح عما إذا كان الأتراك المشار إليهم من جند المأمون أم لا، أو كانوا حقيقة مختلفين عن أتراك المعتصم والذي كان بدوره في خدمة المأمون. إن ما يبقى هاماً هو أن هذه القوات كانت في خدمة المأمون. لقد كان الأتراك أقلية إذا ما قورنوا بالقدامى من المحاربين الذين كانوا يعلونهم في الرتب أيضاً. إن ذكر القوات الجديدة مرتبطة بالمعتصم حتى في عهد المأمون ربما يكون تفسيره بأنه لم تكن ثمة قوات أخرى تحت قيادة المعتصم، أو ربما كان ذلك بسبب ما حدث لاحقاً في عهد المعتصم حين صارت القوات الجديدة متفوقة في العدد وفي الرتب[2].

يضاف إلى ذلك أن المجموعة التي كانت تدين بالطاعة للمعتصم في عهد المأمون لم تكن فرقة من جنود الخلافة تحت قيادته ولكنها كانت توصف بأنها مجموعة من غلمانه. وكانت الإشارة إلى هذه المجموعة أنهم عبيد أو غلمان أو رقيق أو مماليك[3]. ويرى بعض الدارسين أن ذلك كان بداية نظام جيش

(١) الإصطخري: المسالك، ص ١٦٣-١٦٤؛ الجاحظ: مناقب، ص ٣٧.
(٢) الجاحظ عاصر المعتصم فيما لم يعاصره أغلب الآخرين من الكتاب.
(٣) اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩-٣٠ ؛ الطبري: ص ١١٨٠-١١٨١؛ المسعودي: التنبيه ص ٣٥٦ ؛ ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٩ ؛ ابن كثير: البداية، ص ٢٩٦ ؛ السيوطي: تاريخ، ص ١٣٣؛ Wittek, Turkentum, p. 510; C.F. EI, abd and ghulam, EI, S.V. mamluk.

المماليك الذي وصل نهاية تطوره في عهد مماليك مصر[١]. ومرة أخرى علينا أن نتذكر أن الأمر قد بدأ في عهد المأمون وفي وقت كان فيه المعتصم أميراً وحاكماً إقليمياً. ولكنه أولاً وأخيراً قائداً عسكرياً. وإذا أخذنا في الاعتبار تلكم الظروف السائدة وقتها، وتركنا جانباً موضوع العلاقة الشرعية بين العبد وسيده، فإن العلاقة التي كانت قائمة بين المعتصم وقواته لم تكن تختلف بأي حال من الأحوال عن العلاقة التي كانت تقوم بين قادة عسكريين آخرين وقواتهم التي تحت إمرتهم اللهم إلاّ في الولاء لشخصه أيضاً.

يضاف إلى ذلك أيضاً أن أفراد القوات الجديدة، ولو أنهم كانوا يوصفون بالغلمان، أي المماليك، إلاّ أنهم لم يكونوا كلهم في الحقيقة كذلك. وهذا ما ينطبق على أغلبيتهم خاصة ممن كانوا في سامراء. وعليه فوصفهم بالعبيد أو الغلمان أو الرقيق أو المماليك لم يكن دقيقاً مثله مثل وصفهم بالترك. إن إبن الأثير وإبن خلدون لا يستخدمان هذه الكلمات، كما لا يستخدمان كلمات مثل: «جمع»، أو «اشترى»، وهي كلمات استخدمها كتاب آخرون، ولكنهما كانا عندما يشيران إلى المعتصم يقولان إن المعتصم قد اصطنع لنفسه رجالاً من مصر

---

(١) الإصطخري: المسالك، ص ١٦٢ ـ يقول رقيق للأتراك المجلوبين من وراء النهر Ayalon, **The Military Reforms of Caliph al-M'utasim**; Ayalon **Preliminary Remarks on the Mamluk Institution**; P. Crone Slaves on Horses; Pipes, **Slave Soldiers**. Crone and Pipes take it as a purely Islamic phenomenon which it is not. CF. Kennedy, **The Prophet and the Age of the Caliphates**, pp. 158ff; Shaban, II, PP. 63ff.

وسمرقند وفرغانة وأشروسنة. والجاحظ يستخدم كلمتي «اصطنع» و«جمع» ولا يستخدم الإصطلاحات الأخرى. أما الطبري فيسميهم غلمان (مماليك). أما الانطباع الذي تتركه إشارة اليعقوبي هو أنهم جميعاً قد تم شراؤهم وقد كانوا بالتالي عبيداً. والمسعودي يستخدم كل الأوصاف سالفة الذكر، لكن البلاذري لا يستخدم أياً من تلك التعبيرات، بل إنه لا يستخدم كلمة اصطنع مطلقاً[(1)].

بالإضافة إلى تنوع واختلاف ما سجل عن هوية أولئك الجند فقد كانت هناك بعض الإشارات إلى أعدادهم. وقد كان الاختلاف عظيماً في تلك الأعداد. ومن الواضح أنه عندما كان المعتصم أميراً، أو مؤخراً حينما انتقل إلى سامراء، أو حينما أوشك عهده على نهايته، فإن أعداد قواته المسماة بالتركية غدت عظيمة وصارت أكبر مماكان في مقدور شخص واحد أن يشتريه، أميراً كان أو خليفة، إلاّ بعون من الدولة. وعلى أقل تقدير ذكر فإن عددهم عندما كان المعتصم أميراً كان كبيراً. يذكر اليعقوبي أن عددهم قد وصل إلى ثلاثة آلاف أو يزيد، وأن المعتصم قد حصل عليهم في عهد المأمون. والكندي[(2)] يصل بعددهم إلى

(1) ربما كان للجاحظ وإبن الاثير وإبن خلدون أسباب ظرفية تجعلهم لا يصفون الأتراك بالرقيق. والشاهد انهم مع المسعودي والبلاذري من ثقاة المصادر.

(2) اليعقوبي: البلدان ص ٣٠؛ الكندي: الولاة ص ١٨٨ يشير إلى من كان مع المعتصم في مصر من الترك والأرقام لا تشمل غيرهم من الجند المغاربة.

أربعة آلاف. ورغم أن المعتصم قد ولد أميراً لكنه كفرد ما كان في مكنته أن يشتري وأن يحتفظ بمثل ذلك العدد في تلك الفترة. لقد كانت تلك القوات جزءاً من جيش الدولة ضمت أسماءهم السجلات (الدواوين) وكانت رواتبهم تجري من خزينة الدولة المركزية. وعليه يمكن الافتراض أنهم كانوا حتى في عهد المأمون ممن ضمت أسماؤهم في سجلات الدولة، وإن الدولة كانت تدفع رواتبهم. والمعتصم نفسه كان في خدمة الخلافة، وكانت مجموعته الخاصة من الغلمان ـ وربما كانت هناك أعداد كبيرة من الترك بينهم ـ هي عصب القوات الجديدة، وإن اسمها قد ارتبط باسمه. لكن معظم تلك القوات كانت تابعة للدولة، وكانوا يخدمون الدولة كمسلمين أحراراً أو عتقاء. وإذا كان الخلفاء العباسيون قد افتقدوا الشرعية والسند الشعبي فقد كانوا يبحثون في أجنادهم عن الولاء والقدرة لا الخنوع.

بالإضافة إلى الجنود الذين اشتراهم المعتصم أو جمعهم من المقاطعات الشرقية، كان إلى جانبهم القليل ممن اشتراهم من العراق قبل أن يصبح خليفة كما يشير إلى ذلك اليعقوبي. ومن الجدير بالملاحظة أن القادة المميزين للقوات الجديدة قد جاؤوا من هذا المصدر الأخير وكان من أبرزهم قادة مثل: أشناس، وإيتاخ، وبغا الكبير، ووصيف، وسيما الدمشقي[1]. وكلهم ممن

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩-٣٠؛ CF. Tabari (tr. Marin, p. 1), index; Kennedy, **The Prophet and the Age of the Caliphates**, p. 160ff; Pipes, **Slave Soldiers**, pp. 154-156.

علا نجمهم وعظمت أهميتهم في عهد المعتصم وفيما بعده. كان هؤلاء الرجال موالي سابقين امتلكهم كأفراد من العراق أو غير العراق وبالتالي أصبح من المؤكد أنهم ممن أتقنوا العربية وألموا ببعض عادات السكان المحليين، وإنطلاقاً من هذه الحقيقة فإنهم لم يعملوا كحلقة وصل بين المعتصم وقوات الغلمان الأخر فحسب، ولكنهم بهذه الصفة ذاتها كانوا يعملون على كسب ولاء تلك القوات للمعتصم. وكان مثل هذا التطور هاماً جداً بالنسبة للمعتصم ولتلك القوات على حد سواء. لقد كان للمعتصم كوالٍ وكقائد عسكري خصوم منافسون، أوشكت مطامح بعضهم أن تفقده ولاية عهد الخلافة، بل كادت أن تفقده حياته أيضاً[1]. لذا كان اعتماده واستخدامه المتزايد لهذه العناصر الجديدة قبل وبعد توليه الخلافة نتيجة لاحتياجاته وظروفه الملحة. أما بالنسبة للقوات الجديدة فقد كان مكسباً لها أن ترتبط بأمير أصبح الخليفة فيما بعد، وكان وهو أمير يحتضنهم ويدافع عنهم في وجه خصومات مستعرة. كانت هذه الصلة القائمة على الحاجة والثقة هي التي عبدت طريقهم إلى القوة والنفوذ في عهد المعتصم. ولما كانت القوات الجديدة قد جاءت في وقت لم يكن الجند القدامى وحدهم الذين لم يعد يثق فيهم، بل إن العراقيين عموماً لم يعودوا محل ثقة الخلفاء. لذلك وجدت القوات الجديدة طريقاً قصيراً دلفت منه سريعاً إلى مقاعد النفوذ في الدولة ودون إبطاء. إن الأحداث التي أدت إلى دخول

---

(١) الطبري: ص ١١٦٤؛ اليعقوبي: البلدان، ج ٣، ص ١٩٧؛ إبن قتيبة: المعارف، ص ١٩٩.

المعتصم في صدام مباشر مع القدامى بعد توليه السلطة، وتلك التي أدت إلى إلصاق تهمة الخيانة إلى قادة جدد مثل الأفشين والمازيار كانت حاسمة. وإذن تلك الأحداث والتي هددت حياة المعتصم وحياة قادته المقربين من الترك هي التي عجلت حقيقة بتقدم العناصر الجديدة نحو السلطة والنفوذ.

إن بعض القوات الجديدة التي تم شراء أفرادها كأرقاء ربما كانوا من الأسرى أو جلبوا عن طريق البيع. ما كان الأسرى غير المسلمين يشكلون مصدراً من مصادر التجنيد. إن الأسير لم يكن ليخدم في جيش الخلافة إن لم يكن مسلماً. وإذا كانت بعض المراجع تشير إلى مراكز شراء الغلمان، فإن المراجع العربية تكاد تخلو تماماً من الإشارة إلى طريقة شرائهم وجلبهم إلى المعتصم. إن البينة الوحيدة الدالة على هذا هي التي تشير إلى أن المعتصم اعتاد أن يرسل إلى نوح بن أسد في سمرقند شخصاً يدعى جعفر الخُشّكي ليشتري له تركاً من هناك، وأن جعفر كان يعود كل عام بمجموعة من الترك. ووفقاً لما يذكره اليعقوبي فإن المعتصم استطاع بهذه الطريقة أن يحصل على ثلاثة آلاف رجل من الترك في خلافة المأمون.

يقول اليعقوبي:

«أخبرني جعفر الخشكي قال كان المعتصم يوجه بي في أيام المأمون إلى سمرقند إلى نوح بن أسد في شراء الأتراك، فكنت أقدم عليه في كل سنة منهم بجماعة فاجتمع له في أيام المأمون زهاء ثلاثة آلاف غلام، فلماً أفضت إليه الخلافة ألحّ في طلبهم واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس. كان ممن اشترى

جماعة جملة منهم «أشناس» وكان مملوكاً لنعيم بن حازم بن هرون، و«إيتاخ» كان مملوكا لسلّام الأبرش، و«وصيف» كان زراراً مملوكاً لآل النعمان، و«سيما الدمشقي» وكان مملوكاً لذي الرئاستين الفضل بن سهل..»[1].

لقد سبق أن أشرنا إلى الشكوك التي ثارت حول صحة عدد أولئك الأتراك، ونتساءل هل كان أولئك الأتراك من المسلمين مثلهم مثل من اشتراهم المعتصم من بغداد، أم أن إسلامهم قد جاء لاحقاً بعد شرائهم؟، وما من بينة مباشرة حول هذه المشكلة. لقد وصفوا جميعاً بأنهم كانوا عجماً ومن غير الناطقين بالعربية، وحتى أشناس الذي تم شراؤه في بغداد، فإن الطبري يعده منتمياً إلى هذه المجموعة[2].

أطلق اسم الترك على كل هذه القوات رغم أنها كانت تضم عناصر من أصل إيراني من فرغانة، وأشروسنة والشاش، وهي الأمكنة التي كانت مراكز لجمع أولئك الغلمان، وأغلب الاحتمالات هي أن معظمهم قد اعتنقوا الإسلام قبل وصولهم إلى العراق، إذ إن الإسلام وجد طريقه إلى المقاطعات التي كانت محادة لخراسان حتى قبل قيام الدولة العباسية.

---

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩-٣٠؛ الإصطخري: المسالك، ص ١٦٣. الإصطخري يشير إلى ما بعد أن اصبح المعتصم خليفة، إذ لابد أنه كان عمل على جلب المزيد من الغلمان من المشرق.

(٢) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٠؛ الطبري: ص ١١٨١؛ إبن مسكويه: تجارب الامم، ج ٦، ص ٤٣٧.

كان اعتناق الاسلام يتم عن طريق الاتصال بالتجار ،أو الاتصال بالدعاة والصوفية المتجولين .وكان الإسلام هو دين الدولة التي ورثت الأمبراطورية الساسانية والتي كان البدو يسعون لتمثل حضارتها، وقد أصبح هذا بدوره عاملاً مهماً في جذب الكثيرين للدين الإسلامي(١). إن سياسة المأمون النشيطة في السعي لنشر الإسلام والتي اتبعها المعتصم أيضاً كانت تهدف إلى توسيع رقعة الدولة وبسط نفوذها، وكانت دفعاً لعملية كانت قائمة من قبل(٢). الشواهد المرصودة توحي بأن سياسة الدفع هذه قد حققت نتائج سريعة وهامة. من ذلك ورود أسماء العديد من حكام تلك المناطق الذين وفدوا على بلاط المعتصم واعتنقوا الإسلام وفق مذهب أهل السنة. وفي حالة أولئك فقد كان إسلاماً مفعماً بروح الجهاد، وهو أمر وافق طبعهم، وقد كان ذلك هو طابع الإسلام في تلك المقاطعات الحدودية(٣). وربما كان الشيء الذي دفع الترك لاعتناق الإسلام هو أن الإسلام رغم بساطة مبادئه الأساسية وصدقها فتح لهم مجالاً للخدمة ناسب استعدادهم وطبائعهم، فالخدمة في الجيش كانت توفر لهم إلى جانب العطاء المنتظم مصدراً آخر يتمثل في الغنائم. إن بساطة وجدية التزامهم بعقيدتهم الجديدة يعبر عنها

---

(١) Barthold, **Turkestan**, p. 212 ؛ الإصطخري: المسالك، ص ١٦٢-١٦٤.

(٢) Barthold, **Histoire des Turcs**, pp.35-6, 47-8, 56-9; Wittek, **Turkentum**, p. 513; إبن خلدون: مقدمة، ص ١٤٧.

(٣) الإصطخري: المسالك، ص ١٦٢-١٦٨ ؛ نظام الملك: سياسة نامة، ص ٦٨ ـ يشير إلى انتشار المذهب الشافعي بين الترك .

أوضح تعبير ما صرح به بغا الكبير الذي ما كان يدري كنه محنة الإمام بن حنبل، فقد قال في بساطة متناهية: إنه لا يعرف عن الإسلام شيئاً يزيد عن العلم بأركان الإسلام متمثلة في الايمان بالله والشهادة وحقيقة أن الخليفة هو أحد أقارب الرسول ﷺ[1].

ـ ٣ ـ

لقد سعى المعتصم بعد تولي الخلافة إلى تجنيد المزيد من القوات من العناصر الجديدة، وكان مدفوعاً في سعيه ذلك لا بسبب تخوفه وعدم ثقته في بقايا الجيش القديم وحسب ـ وهم الذين لم يقبلوا بتوليه الخلافة إلاّ مكرهين ـ ولكن كان يدفعه إلى ذلك ما كان عليه القيام به من حملات. إن اختيار المعتصم لأولئك الجنود لم يكن فقط لأسباب سياسية، ولكن لأن أولئك الجنود كانوا من ناحية عسكرية هم الأكثر صلاحية لخدمة أغراضه[2]. كانت قناعة المعتصم هي أن الترك هم الجنود الأحسن[3]. وأورد الجاحظ في رسالته عن الأتراك وصفاً لما كان من ميزات وصفت بها مجموعات أخرى في الجيش العباسي كالأبناء والخراسانيين والموالي، لكن وصف الجاحظ للأتراك جاء في عبارات يتضح منها بجلاء أن الترك كانوا الأكثر ملاءمة لمواجهة الصعاب التي جابهت المعتصم[4]، لقد كانوا

---

(١) أبو نعيم: الحلية، ص ١٩٨.
(٢) الإصطخري: المسالك، ص ١٦٢-١٦٨.
(٣) طيفور: تاريخ بغداد.
(٤) الجاحظ: مناقب الترك؛ الحيوان، ج ٢، ص ١٦١، ٣٥٣-٣٥٤.

أساساً خيالة، وكخيالة امتازوا بقدرة عظيمة على التحمل، وسعة الحيلة خاصة في المناطق الحدودية الوعرة. وقد أظهرت الحملات ضد الدولة البيزنطية أنه لم يكن ينقصهم الانضباط، ولا المقدرة، على تعلم التقنيات الجديدة في مجال الحملات المنظمة والحصار العسكري. يضاف إلى ذلك أنه لو جاز لنا أن نحكم على المعتصم استناداً إلى القدر اليسير من المعلومات التي توافرت عن نشأته خلال سنوات شبابه الباكر، ومما عرف عنه كفارس، أنه كان في تجانس تام مع شخصية جنده الجدد. إن المشكلة الأهم هي الوصول إلى معرفة عدد قواته حينما تولى الخلافة. وفكرة أن قوات الخلافة تحت المعتصم كانت مكونة من العبيد الأتراك لم تكن فكرة جديدة. والقول المعقول هو أن عدد تلك القوات قد بلغ ثلاثة آلاف، وأنهم كما يقول اليعقوبي قد جمعهم في عهد المأمون الذي امتد طويلاً. وقد زاد هذا العدد عند بعضهم إلى عشرين ألفاً، بل إن بعضهم قد بلغ به سبعين ألفاً[1]. وهذه الأعداد كانت تتعلق فقط بالأجناد الترك. لقد كان عدم الدقة في ذكر الأرقام سبباً لشكوى إبن خلدون من قبل.

يقول إبن خلدون:

«... وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٦٠؛ إبن كثير: البداية، ص ٢٩٦، Bar-Hebraeus, Chronography, I, p 140, relates that on his death al-Mu'tasim freed 8,000 slaves and left 30,000 slaves for the stables.

المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو ثميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات و تحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر...»[1].

ويبدو أن ما أورده المسعودي أن عدد القوات كان أربعين ألفاً هو الأقرب إلى الصواب[2]. يضاف إلى ذلك أن الأتراك لم يكونوا وحدهم في جيش الخلافة، بل لعلهم لم يكونوا أغلبية العناصر التي شكلت جيش المعتصم[3]. إذ لو صح أنهم كانوا الأكثر عدداً لما خشي المعتصم عليهم من القتل من القوات القديمة. إن أخبار حملات عهد المعتصم، بما حملته من وصف لجند الخلافة وتشكيلاته المختلفة وقياداته، توضح بجلاء أن قوات الخلافة الخاصة (جند الحضرة) لم تشكل إلاّ نسبة ضئيلة جداً من تلك القوات[4]. وحتى في مدينة سامراء التي أقيمت خصيصاً لإيواء جند الحضرة فإن الترك لم يكونوا المجموعة

(١) إبن خلدون: المقدمة، ص ١٠.

(٢) المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١١٨.

(٣) الجاحظ: مناقب.

(٤) الجاحظ: مناقب، ص ٥ ـ يتحدث عن «جند الخلافة وجند الحضرة» وهؤلاء الأخيرين هم من تميزوا بالتمنطق بسلاسل من ذهب ولم يكونوا من عناصر تركية فقط، إذ كان بينهم الأفشين وهو أشروسني وكذلك قواده وهم من عناصر إيرانية. وهؤلاء كانوا حرس المعتصم؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١١٨؛ السيوطي: تاريخ، ص ١١٣؛ الطبري: ص ١٣٠٦.

الأكبر عدداً فيها. ورغم أن المعتصم كان يفضل تلك القوات ويعتمد عليها إلاّ أنه لم يكن يجحف في معاملاته مع باقي القوات.

لقد أعفيت قوات الخليفة الخاصة من المشاركة في حرب الزط، لكن ذلك كان لأسباب فنية. وكذلك كان الحال في الحملة ضد بابك، التي قادها الأفشين، وكان من القادة المقربين للمعتصم. والواقع أن جزءاً من القوات التي كانت تحت إمرة الأفشين كانت من القوات الجديدة (جند الحضرة). إن أشناس أحد قادة القوات الجديدة ومن المقربين للمعتصم لم يصبح مهماً إلاّ بعد أفول نجم القادة القدامى أمثال عجيف ابن عنبسة والأفشين والآخرين. لقد كان المعتصم نفسه قبل هذه الفترة مُعْتَبراً كقائد من جند الحضرة مساواة في ذلك للقادة القدامى. وإن عزل جعفر بن دينار الخياط أحد قادة القوات الجديدة، والذي كان قد رفع حتى صار والياً على اليمن، يمثّل نموذجاً آخر للطريقة التي كان المعتصم يعامل بها حتى المقربين من قادته. وفي مجال تعليقه على الصعاب التي واجهت الخلفاء العباسيين في سامراء، فإن الكاتب إبن بدرون يشير إلى أن تلك الصعاب لم تظهر إلاّ بعد عهد الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م). وبحسب رأي إبن بدرون، فإنه نظراً لما كان يتمتع به الواثق من احترام الأتراك، فإنهم ما كانوا ليتجرأوا بالثورة عليه[1]. وهذا الوصف أكثر ما يكون انطباقاً على عهد

(١) الطبري: ص ١٣٠٣ .

المعتصم، إذ إن القوات التركية على عهده كانت أكثر العناصر ولاءً للخلافة. إن علينا أن نذكر أن صعود نجم بعضهم حتى أصبحوا ولاة على ولايات أمثال إيتاخ وجعفر بن دينار الخياط وأشناس[1]، إنما جاء لتفوق أظهروه في مجال القدرات العسكرية، ولم يحصلوا على ذلك بسبب وظائف سياسية شغلوها مثلما كان الحال مع آل طاهر في خراسان مثلاً، أو ما تمتع به مؤخراً قادة مثل الطولونيين والأخشيديين في مصر. لقد ظل الأتراك طوال عهد المعتصم، وعهد إبنه الواثق من بعده، يخدمون الخلافة بإخلاص. عملوا على إخماد كل الثورات ضد العباسيين، وحافظوا بحرص على أراضي دولة الخلافة. إن ماروي عن المعتصم في آخر سنوات حياته أنه قد عبر عن أسفه لتقريب قادة مثل الأفشين، وأشناس وإيتاخ ووصيف، لأنهم ما كانوا يساوون شيئاً إذا ما قورنوا بالرجال الأربعة الذين قربهم المأمون[2]، إنما كان تحسراً وأسفاً قد ظهر فيما يتعلق بوضع مختلف وإن كان موازياً لوضع آخر. إن المعتصم لم يعبر أبداً عن أسف عام لتفضيله القوات التركية.

وثمة عوامل أخرى مؤثرة لا بد من أخذها في الحسبان في ذلك الوقت، وهي أن المعتصم قد عمل بحرص وجدية ليحفظ

(١) إبن بدرون: شرح، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٢) الطبري: ص ١٣٢٧-١٣٢٨. أبدى المعتصم هذا الرأي لإسحاق بن إبراهيم بن مصعب بن الحسين، وهو وأخوه محمد وعمه طاهر بن الحسين وعبدالله بن طاهر هم الأربعة المعنون بالحديث.

للخلافة مكانتها وهيبتها، ولينتهي به الحال إلى اعتماد كامل على القوات العسكرية من غلمانه الذين وحّدهم وسيطر عليهم.

إن ضعف الخلفاء الذي بدأ يتنامى بعد المعتصم قد زادت في حدته عزلة الخلفاء مع قواتهم في سامراء، بل إن مؤشرات بداية عصر العسكر بدأت في عهد المأمون. يؤيد ذلك اختياره المعتصم لولاية العهد، كما يبدو ذلك في تعليقات المؤرخين التي كانت فحواها أن قوات المأمون كانت بلا مثيل من حيث العدد والقوة، وهي تعليقات تكررت في ما بعد عن المعتصم وقواته[١]، وعلى كل فقد بدأت العزلة في عهد المعتصم مع الانتقال إلى سامراء (العسكر)[٢].

لقد ورد ذكر المعتصم وقواته التركية مصاحباً للاضطرابات التي كانت من أسباب تشييد سامراء، يضاف إلى ذلك كل الأحداث المشابهة التي وقعت مؤخراً. وغالباً ما ينسب إليه سبب تدهور الخلافة نفسها. وكثير من الروايات في المراجع التي تأتي على ذكر القوات التركية تشير إلى مواقف البغداديين منها كما توضحه المصادر البغدادية. وحتى الروايات التاريخية البغدادية لا تأتي على ذكر للترك إلاّ نادراً. وكانت الإشارات

(١) طيفور: تاريخ بغداد، ج ٦، ص ١٢؛ الطبري: ص ١٢٣٦.

(٢) المقصود من هذا الفترة التي حكم فيها الخلفاء في سامراء وهي الفترة ما بين ٢٢١-٢٧٩ هـ / ٨٣٦-٨٩٢م Abbasids; also G. Le Strange, Baghdad, p. 13; CF. EI, II, S.V الطبري: ص ١٥، ١٠٥ اصطلاح فترة العزلة من المؤلف).

في أغلب الأحيان سلبية المحتوى، نظراً لما تخلف في ذاكرة البغداديين من آثار أحداث الشغب التي كانت القوات التركية تحدثها في بغداد بين حين وآخر. لقد دافع الجاحظ دفاعاً مجيداً عن الأتراك في رسالته، وكان الطبري يذكر بين الحين والآخر أخبار أفراد ارتبطت أسماؤهم بوقائع معينة، ولكن بعد انتقال الجنود الأتراك إلى سامراء انقطعت أخبارهم، ولم تعد تذكر في المصادر البغدادية طوال عهد المعتصم.

- ٤ -

إن المصادر المبكرة لم تكن تشير إلى أتراك المعتصم كممثلين لمجموعة عرقية غالبة، وهذه حقيقة يمكن أن تدعم وجهة النظر القائلة بأنهم كانوا مجموعة خاصة، ولكنها لم تكن الأوفر عدداً في عهد المعتصم. إن الغزو التركي الحقيقي لم يكن أوانه قد حان بعد[١]. فطوال عهد المعتصم ولسنوات طويلة لاحقة كانت انفتاحات الحدود الفاصلة بين أراضي الخلافة والسهول التركية كلها لصالح الخلافة، وتحت حكم الطاهريين والسامانيين، وكان الإسلام هو القوة المنتشرة القاهرة.

إن كتاباً متأخرين مثل إبن خلدون المتوفى في ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م، وابن الأثير المتوفى في ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م، اللذين كتبا بعد تغلغل الترك السلاجقة حتى سوريا ومصر، لم تكن كتاباتهم تربط بين قوات المعتصم وهؤلاء الأتراك. إن هذين الكاتبين كانا

(١) C. Cahen, The Turkish Invasion.

يسميان قوات المعتصم بالفراغنة في مواجهة المغاربة، وكانت المجموعتان تعرفان بالقوات الجديدة[1]، أما ابن خلدون المخلص لنظرياته في العصبية وتدهور العمران ودورات النهوض القائمة على غلبة البدو على أهل المدن، فقد طبق بالفعل كل هذا على ظهور الترك مع السلاجقة. وحتى في هذا فإن تعليقه إنصبَّ على صعود نجم السلاجقة الذي قدم له بتتبع الأصول البدوية للأتراك[2]. وما تجدر الإشارة إليه هو أن الأمر الأهم بالنسبة له كان في حقيقة أن الأتراك قد اعتنقوا الإسلام قبل دخولهم أرض الخلافة العباسية. وإبن خلدون يرى أن المشكلة التي أضرت بالخلافة هي تفكك عصبية العرب والنزاع الذي ثار حول الخلافة بين الأمويين والعباسيين، ولاحقاً بين العباسيين والعلويين[3]. إن المصادر كانت تشير إلى إدراكها للصلة ما بين الأتراك والمعتصم والأتراك عموماً، لا لأنهم كانوا المقدمة لمجيء السلاجقة وإنما لما يشتركون فيه من الشجاعة والبداوة. وحتى نظام الملك الذي كان وزيراً للسلاجقة الأتراك كان يصف الأتراك بالصفات ذاتها، مع أنه كان واضحاً له ولمعاصريه أن العبارات السالبة إنما كانت تخص التركمان، ولم تكن تعرض بالدوائر السلجوقية الحاكمة. والتركمان هو بدو الترك لا حضرهم[4].

(١) CF. C. Cahen, ibid, p. 136.

(٢) إبن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٤٤٣، ٤٥٠؛ راجع المقدمة والملاحق.

(٣) إبن خلدون :العبر، ج ٣، ص ١٧٠.

(٤) Nizam al-Mulk, Siyasat-nama, index, s.v. Turks; EI, I, Turkoman

إن إلحاق الأتراك من غلمان المعتصم بالأتراك عموماً، وجعل الأتراك سبباً في كل ما حاق بالخلافة عامة وبالعالم العربي خاصة ظاهرة متأخرة، وهي نتيجة اتجاهات شوفينية وعلاقات بين الأتراك والعرب ظلت متدهورة لوقت طويل في العصور المتأخرة. ومثل هذا الاتجاه لم يكن ليظهر باكراً عندما كانت النظرة للأتراك كمجموعة من المماليك، أو أنهم مع السلاجقة والمماليك كانوا حماة الخلافة والإسلام السني في مواجهة خطر الشيعة والديلم والمغول، إذا تجاوزنا الغزوات البيزنطية في القرنين العاشر والحادي عشر وكذلك الحروب الصليبية[1].

وللمرء أن يتساءل عما إذا كان للمعتصم خيار في عهد الإقليمية وضعف الإدارة المركزية وعهد الاعتماد على العسكر سوى أن يحيط نفسه بأميز القوات وأكثرها قدرة وولاءً. إن التساؤل عما إذا كان هذا متسقاً مع سياساته الأخرى أم لا إنما يجعلنا نكلفه ما لا يطيق ونجعله مسؤولاً عن أفعال لم تقع إلاّ من بعده، كما يجعلنا نتجاهل ظروف نشأته وأحواله الخاصة. إن إدارة المعتصم قد تُركت في أيدي الرجال أنفسهم الذين كانوا يخدمون تحت إمرة أخيه المأمون، وهم أنفسهم الذين أوصى المأمون بضرورة استمرارهم في خدمة المعتصم[2]. إن أسباب تجنيد المعتصم لقواته من الشرق قد سبقت الإشارة إليها، لكن

(١) Ayalon, **The Military Reforms of the Caliph al-Mu'tasim**, pp. 26-27

(٢) See D. Sourdel, **Le vizirat Abbaside**, I, pp. 245-80.

ما ينبغي التركيز عليه هو أن المعتصم كان في العراق، وأنه حتى لو رغب في تجنيد أهل العراق، فإن هؤلاء ومعظمهم من الحضر ما كان ليتوافر منهم ما يفي باحتياجاته من الجند. وهذا ما ينطبق على مصر أيضاً، لأن العباسيين في حكمهم لتينك الولايتين كانوا يعتمدون إلى درجة كبيرة على قوات أجنبية يستخدمونها. أما بالنسبة لقوات المعتصم فقد كانت من الأجانب حينما استقدمت إلى العراق، وكانت هويتهم المتميزة قد زاد في وصفها بالأجنبية حقيقة استقرارهم منعزلين عن الآخرين في سامراء، وإزدادت تلك العزلة بسياسات الإسكان القائمة على عدم الاختلاط.

بدأ عصر العزلة برحيل المعتصم بقواته إلى سامراء، مما أدى فعلياً إلى جعل الخليفة العباسي في مقام حاكم إقليمي أو ربما أقل درجة. إن الدعم المحلي حقيقة أو مجازاً الذي كان أهل بغداد يمنحونه للخلافة العباسية في عهد الرشيد أو المأمون ولأسباب عملية اختفى في عهد المعتصم وأرغم هذا الأخير على الخروج من بغداد. وإذا قورن موقف الخليفة بموقف الحكام الإقليميين الطاهريين في خراسان أو الأخشيديين في مصر فيما بعد، فإن موقف الخليفة كان الأضعف. فالطاهريون كانوا يجدون دعماً محلياً قومياً بينما كان الدعم الذي يجده الخليفة ضعيفاً، وإذا كان الإخشيديون حكاماً إقليميين فإن الخليفة لم يكن كذلك، إذ كان والياً على الجميع. وهكذا صار الخليفة معزولاً محروماً من السند الشعبي المحلي على نطاق

العراق، لا سيما أن الشقة كانت تتباعد بين سامراء وبغداد مما جعله يتحول تدريجياً إلى سجين في أيدي قواته الخاصة من العسكر بسامراء.

إن خلفاء الحقب المتأخرة لم تكن لهم سوى صلة ضعيفة بمشاكل المناطق الحدودية التي كانت تهم الطاهريين والطولونيين والإخشيديين فيما بعد. أما بالنسبة للمعتصم فقد كان الموقف مختلفاً جداً. لقد هزمت قوات المعتصم الزط وقوات بابك الخرّمي وقوات المازيار بن قارن، وحققت انتصارات باهرة في مجملها على أراضي الدولة البيزنطية. ورغم المشاكل المتعددة التي كانت تواجهه، ورغم اضطراره للإبقاء على الطاهريين حكاماً على خراسان، فقد ظل المعتصم هو سيد الموقف وآخر الخلفاء المنفذين.

الفصل الرابع

تأسيس عاصمة جديدة «سامراء»

- ١ -

سُرَّ من رأى . . كما يقول المسعودي، كانت آخر المدن العظيمة التي شيدها المسلمون[١]، ويمضي ليذكر سبعاً من المدن ويعتبرها مدناً عظيمة وهي: البصرة التي مصرت في عام ١٧هـ/ ٦٣٨ -٨٣٩ م، والكوفة عام ١٧ هـ/٦٣٨ -٨٣٩ م، والفسطاط عام ٢٠هـ/ ٦٤٠ - ٦٤١ م، وواسط عام ٨٣هـ/ ٧٠٢م، والرملة[٢] و بغداد عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢ -٧٦٣م، ثم سر من رأى التي أنشئت عام ٢٢١ هـ/ ٨٣٤- ٨٣٥ م. وبالطبع فإن المسعودي يؤرخ حتى زمانه، ذلك أن المسلمين أنشأوا العديد من المدن من بعده.

(١) المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٧. عدم ذكر مدن مثل قم والقيروان يعكس سيادة الاقليمية أيام المسعودي الذي كان انتباهه مشدوداً لقلب العالم العباسي.

(٢) شيد الرملة سليمان بن عبدالملك أيام كان والياً على فلسطين في خلافة أخيه الوليد (٨٦-٩٦ / ٧٠٥-٧١٥) واعتنى بها أيام خلافته غير أنها لم تبلغ ما بلغته الأمصار الأخرى المذكورة هنا ؛See EI, first ed., s.v. Ramla.

يقول المسعودي:

«.. وسرّ من رأى آخر المدن العظيمة التي أحدثت في الإسلام وهي سبعة: البصرة، الكوفة، الفسطاط، الرملة، واسط، بغداد، وسرّمن رأى».

والقاسم المشترك بين هذه المدن جميعاً ما عدا الرملة هوأنها قد كانت معسكرات. قامت هذه المدن على أطراف الصحراء التي كانت ملجأ وملاذاً للقوات العربية الفاتحة التي كان البدو يشكلون الغالبية العظمى فيها. وظلت المدن الخمسة محتفظة بطابعها العربي الإسلامي. كان بزوغ نجم كل واحدة من هذه المدن يمثل منعطفاً تاريخياً بارزاً في مسار توسع الأمبراطورية الإسلامية في المراحل الأولى لنموها. وتشكّل سكان هذه المدن الخمسة في أغلبيتهم من مسلمين عرب كان عليهم تأمين الفتوحات الإسلامية وكان عليهم أن يستوعبوا تدريجياً تلك المجوعات العرقية التي فتحوا بلادها في الإسلام دون أن يذوبوا فيها. واستطاعت هذه المدن أن تحافظ على التقاليد العربية الإسلامية إلاّ أنها فيما بعد بدأت تواجه تحدياً من إرث ثقافي متنوع الأصول، صار فيما بعد هو الإرث الثقافي للعالم الإسلامي. وقد أثبتت تلك المدن قدرتها على أن توجد وتبقي ذلك العالم إسلامياً وإن لم يكن عربياً بالكامل(١). كان التمصير تنفيذاً للسياسة التي اختطها الخليفة عمر بن الخطاب

(١) See: Ch. Pellat, Le milieu Basrien; J.Hell, Kultur der Araber, pp. 55-6; X. de Pleanhol, The World of Islam, p..2-3.

(ر) الذي تمت معظم الفتوحات الإسلامية في عهده. ولأسباب استراتيجية وجّه قادة جيوشه بإقامة معسكرات جنودهم على أطراف الصحراء في البلاد العربية وفي البلاد التي ضُمت إلى الدولة المسلمة مع الفتح[1].

وبينما تطورت أربعة من الأمصار الخمسة الأول من المعسكرات إلى المدن العظيمة التي ظهرت فيما بعد ومنها الكوفة التي ظلت مدينة ـ عاصمة لوقت قصير[2]. نجد أن بغداد وسامراء أنشئتا لغرض محدد هو أن تصبحا مدناً عواصم وفي الوقت نفسه معسكرات لإيواء الجنود[3]. إن إنشاء المدن الخمس الأول أمر اقتضته ظروف تطور الأمبراطورية الإسلامية، أما نشوء بغداد وسامراء فقد كان يرمز إلى تطورات داخلية بعضها متعلق بالأسر الحاكمة، وبعضها سياسي، كما يعكس في الوقت نفسه تطوراً اجتماعياً واقتصادياً داخل الأمبراطورية العباسية وامتدادها في الشرق.

المعتصم مؤسس سامراء هو حفيد المنصور مؤسس بغداد. لم يكن هناك ثمة تبدل في الأسرة الحاكمة مثلما كان الحال

(١) الطبري: أعوام ١٤-٢٥ هـ.
(٢) في خلافة الإمام علي (ر) وهي ثاني عاصمة بعد المدينة.
(٣) مع الأمويين نجد تطوراً هاماً في بناء الأمصار. «الرملة» كانت مدينة إدارية بينما كانت «واسط» معسكراً. ومع العباسيين جمع بين العسكر والإدارة لاعتماد العباسيين على العسكر؛ For Baghdad see Salih El-Ali, The Foundation of Baghdad as well as J. Lassner, The Caliphs Personal Domains.

حينما آلت السلطة إلى العباسيين من الأمويين. ويبقى السؤال هو ما هي الأسباب والظروف التي جعلت المعتصم يهجر العاصمة العباسية بغداد بعد وقت قصير من نجاحها في تثبيت الخلافة في البيت العباسي، وثبات مركزها وانتصارها، وهو انتصار كان المعتصم نفسه أول المستفيدين منه، وفي وقت لم يكن فيه لبغداد أي منافس إذ فاقت غيرها في المجالين المادي والثقافي على نطاق دار خلافة العباسيين كلها(١).

إن معارضة بغداد لحكم المأمون من مرو، وموقفها الواضح الصريح في معاداة سياسة منح ولاية العهد لعلوي - علي بن موسى الرضا - هي التي أعادت الخليفة المأمون إلى العراق ووضعت نهاية لسياسة ولاية العهد لعلوي. وبما أن المعتصم هوالذي ولي الخلافة بعد المأمون مباشرة، فقد كان هو الذي أفاد من كل هذه المواقف(٢).

عندما بدأ إنشاء سامراء كانت بغداد قد بلغت من العمر خمسة وسبعين عاماً. وخلال هذه السنوات نمّى تطور العسكر العاصمة إلى مدينة غدت حاضرة الأمبراطورية الإسلامية. لقد حبا الله بغداد بموقع جغرافي متفرد في امبراطورية كان اقتصادها يقوم على التجارة والزراعة. وقد أفادت من وضعها كمقر للحكومة وموطن للخلفاء، لذلك سرعان ما صارت بغداد

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٤-٥ ؛ الثعالبي: لطائف، ص ١٠٤ ؛ EI, second ed., s.v. Baghdad

(٢) EI. second ed., s.v. Ali b. Musa al-Rida.

تجسيداً لعظمة الخلافة العباسية ومظهراً لثرائها المادي والثقافي. إن الثروة المادية والثقافية كانت باستمرار تؤثر على شخصية واتجاهات سكان بغداد الذين كانت أعدادهم تتزايد باضطراد[١]. و كانت بغداد خلال سنوات عمرها الخمسة والسبعين عاصمة لستة من الخلفاء، ورأت صعود نجم البرامكة وأفوله، وصمدت خلال الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون مع أنها عانت في خواتيم تلك الحرب من الحصار والدمار والهزيمة، بعد أن صمد أهلها صموداً بطولياً لما يزيد على عام.

وحققت بغداد بعد فترة وجيزة من هزيمتها تلك انتصاراً هاماً على مرو التي كانت وقتها عاصمة للمأمون، إذ أجبر أهل بغداد المأمون على التخلي عن سياسة ولاية العهد لعلوي ، كما أجبروه على ترك خراسان ليعود للعراق. إن بغداد لم تعد هي مدينة المنصور التي أقامها لحمايته وحماية مؤيديه من المؤثرات المعادية للعباسيين والقادمة من الكوفة[٢]. صارت بغداد المنصور هي النواة لما صار من بعد مدينة ذات طابع خاص تمتعت بالأهمية والنفوذ، بل إنها احتفظت لنفسها بحقوق خاصة. لقد نمت بغداد في حجمها وزاد تنوع سكانها وتضخمت ثروتها وتبلورت شخصيتها وغدا الجزء الذي كان مخصصاً للبلاط والحامية وقت إنشاء المدينة جزءاً أصيلاً في المدينة. بيد أن

(١) لعل الجاحظ خير من يمثل ذلك المجتمع؛ For a list of his works, see Pellat, Arabica, III,2 1956, pp. 147-80; also Pellat, The Life and Works of Jahiz؛ انظر وصف بغداد في بلدان اليعقوبي ومعجم ياقوت.

(٢) ياقوت: المعجم، ج ١، ص ٦٨٠.

باقي المدينة هو الذي غدا مسيطراً عليه. إن بغداد في عهد المعتصم أصبحت قادرة على أن تستغني عن البلاط وعن العسكر كليهما، وبذا صارت مدينة المنصور قوة تفرض إرادتها على كل من جاؤوا من بعده.

ورغم كل ذلك، فقد كانت بغداد حريصة على الاحتفاظ بالبلاط ومركز الحكومة بين ظهرانيها. وعلى كل فإن بغداد في عهد المعتصم بدت وكأنها قد تخلصت من كليهما. وحتى ذلك الحين كان لوجود البلاط وجهاز الدولة المركزي أهمية عظيمة في ازدهار الحياة التجارية والثقافية لبغداد. ولكن الوضع بدأ يتبدل باعتلاء المعتصم الخلافة. أما فيما يتعلق بالحياة الثقافية لبغداد، فإن المعتصم لم يكن له الميل ولا التنشئة ليتولى العناية بمثل هذه الأمور. يسجل ياقوت أن المعتصم لم يكن يحب بغداد[١]. كان المعتصم غريباً على مزاج وروح المدينة التي يبدو أنها قبلت بتوليه الخلافة كأمر واقع لم تظهر ابتهاجاً به أو أسفاً عليه. أما الشاعر دعبل والذي كان يمثل مزاج أهل بغداد أصدق تمثيل فقد وصف تولي المعتصم للخلافة بأنه من مفارقات القدر[٢]. وفيما يتعلق بالنشاط التجاري بدت بغداد وكأنها قد طورت نشاطها التجاري إلى حد جعل وجود بلاط الخلافة في المدينة بدون أهمية تذكر[٣]. إن المصادر المتاحة تشير إلى أنه

(١) ياقوت: المعجم، ج ١، ص ٦٨٠.
(٢) البستاني: منتقيات، ص ١٢٣؛ دعبل: الديوان.
(٣) S.D. Goitein, The Rise, pp. 583-604.

حتى بعد علو شأن سامراء ومع المجهودات التي بذلها الخلفاء الذين حكموا من سامراء ليلفتوا الناس وإثارة اهتمامهم بها ظلت بغداد تحتفظ بتفوقها المادي والثقافي. وتمكنت بغداد من الاحتفاظ بمكانتها لما كانت تتمتع به من موقع جغرافي متميز، وتقاليد راسخة ضمنت لها التفوق المادي والثقافي والاحتفاظ به، فسامراء ببلاطها وحاميتها ومرافقها الحكومية لم تكن تبعد عن بغداد كثيراً. ولما آلت إدارة بغداد إلى الطاهريين الذين كانوا يدعمونها في وجه منافسة سامراء صارت إدارة بغداد أكثر كفاية من إدارة سامراء، وظلت بغداد تحتفظ بعلاقات وطيدة مع خراسان المنطقة الرئيسة للطاهريين(١). لقد طالت حياة بغداد بعد سامراء كعاصمة، وكانت في كل الأحيان بديلاً ممتازاً لها كما توضح ذلك بجلاء سيرة خلفاء كالمستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ/ ٨٦٢-٨٦٦م)، حينما اضطر لطلب عون بغداد لتخليصه وتحريره من نفوذ جنود سامراء(٢). كان أهل بغداد معنيين بالدرجة الأولى بما يؤثر على حياتهم المادية والاجتماعية والثقافية، وكان ينظر إلى وجود البلاط أو عدمه من هذه الزاوية. لقد عانت بغداد وفقدت الكثير بسبب وجود بلاط المعتصم فيها بما كان يجلبه وجود جنوده غير المنضبطين من مضايقات(٣)، وكان ذلك هو سبب سخط البغداديين عليهم وعلى المعتصم، ورفع صوتهم بذلك وإعلان تذمرهم مما حمل المعتصم على ترك مدينتهم.

(١) G.Le Strange, Baghdad, p. 311.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ياقوت: المعجم، ج ٣، ص ١٧ ؛ إبن حمدون: تذكرة، ص ١٠٤.

والمعتصم لم يكن معنياً بالثقافة، و لم يكن بلاطه عاملاً فعالاً في تحريك التجارة، بل على العكس تماماً من ذلك، إذ كان عسكره الترك وما سواهم من أسباب مهددات أمن وسلامة مدينة بغداد، وكانوا من أسباب تدهور حياتها الاجتماعية والثقافية، بل التجارية أيضاً. لقد كانت قوات المعتصم الراكبة تخترق بخيولها طرقات المدينة مسرعة تقتل في طريقها الأطفال والنساء والرجال[1]، وربما كان مسلكهم تجاه النساء بالذات هو سبب في العديد من المشاكل[2]، التي استفزت مشاعر البغداديين ضدهم بل ضد الخليفة نفسه الذي كان سبباً في وجودهم ببغداد. كان أهل بغداد ينتقمون لأنفسهم بقتل بعض أولئك الجنود أو جرحهم، ولكن تلك الثارات لم تكن حلاً للمشاكل التي ظلت تتفاقم. عندها سعى البغداديون لتخليص مدينتهم نهائياً من أولئك الجنود الأشرار والعودة بها إلى سابق عهدها.. مدينة للسلام.

ازدادت المعارضة للمعتصم وشملت مختلف الفئات في بغداد بصورة لافتة للنظر. وقد كانت تلك المعارضة في كل مراحلها تشير بوضوح إلى أن حرص البغداديين على وجود البلاط في مدينتهم لا يتجاوز الحد الذي يحمي فيه مصالحهم. لقد طالبوا المعتصم بإلحاح ليكفيهم شر جنوده[3]، ثم طالبوه

---

(١) الطبري: ص ١١٨١؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٣٠؛ المسعودي: ج ٧، ص ١١٨؛ التنبيه، ص ٣٥٦؛ Balami, IV, pp. 524-5.

(٢) ياقوت: المعجم، ج ٣، ص ١٦ ؛ إبن حمدون: تذكرة، ص ١٠٤.

(٣) ابن حمدون: تذكرة.

بإجلاء جنوده خارج مدينتهم دون أن يطالبوه بالخروج ببلاطه[١]، ولو استجاب لمطالبهم حيال جنوده لضمن ذلك بقاء الحكومة والبلاط في بغداد. وما كان المعتصم ليبقى في بغداد بدون عسكره. لقد وضح للبغداديين أنه عليهم قبول كل شيء أو فقدان كل شيء، وقد كان خيارهم الذي أعلنوه هو أنهم يفضلون أن يفقدوا الخليفة وبلاطه في مقابل ألا يتركوا مدينتهم تحت رحمة جنوده. وقد أصر أهل بغداد على هذا الحل لقناعتهم بأن المعتصم ما كان ليستطيع العيش بعيداً عن بغداد[٢]. إن الوضع السياسي السائد وقتها والذي تميز بنموّ الاتجاهات الإقليمية (مثال ذلك وجود الطاهريين في خراسان بعد استقلال بني الأغلب بأفريقية) كما تميز بالثورات ضد المعتصم في كل مكان، كان ينبئ بأن العراق كانت المكان الوحيد الآمن كمقر للخلافة العباسية.

اقتنعت بغداد تماماً بأنه من الخير لها أن تبقى بدون المعتصم وجنوده، أما المعتصم فقد كانت له مبررات وجيهة تحتم بالقدر نفسه خروجه من بغداد. ولم تكن تلك المبررات أقل من شعوره بتعرض حياته وحياة قواته للخطر، تلك القوات التي كانت الضمان الوحيد لسلامته ولاستمرار حكمه. إن معاداة البغداديين لقوات المعتصم كانت تجد سنداً لها من معاداة قوات الحرس القديم لقوات المعتصم لدوافع أخرى، أهمها التنافس

(١) ابن حمدون، تذكرة (مرجع سابق).

(٢) Previous experience had in fact pointed that way ; EI, first ed. S.v. Rakka. ؛ المراجع السابقة تشير إلى ذلك.

بين القديم والحديث. والطبري ينسب بعض حوادث القتل التي كانت تتعرض لها القوات الجديدة في شوارع بغداد للأبناء وقد كان لهم نفوذ قوي في بغداد وقتها[١]. أما اليعقوبي فقد نسب تلك الحوادث للعامة[٢]. والمسعودي ينسب تلك الأحداث للعامة في واقعة ما وفي حالة أخرى ينسبها لأهل بغداد عموماً من دون أن يسمي مجموعة معينة[٣]. والطبري يسجل أنه عندما قرر المعتصم أن يرحل من بغداد أبدى تخوّفه صراحةً من مجموعة معينة من القوات القديمة وهي قوات الحربية، وهو اسم لفرقة خاصة كما كان اسم الحربية يطلق على مكان تلك القوات أيضاً، وقد كانت في معظمها مشكلة من جنود مشاة من الفرس، وارتبط اسم المكان والجنود بحرب ابن عبدالله البلخي[٤].

عادى البغداديون السياسة الدينية التي تمثلت في المحنة، تلك السياسة التي بدأها المأمون وتابعه المعتصم في تنفيذها من بعده عملاً بنصيحته. وقد بلغت المحنة ذروتها بامتحان المعتصم الإمام أحمد بن حنبل[٥]، وكان هذا سبباً هاماً في الجفوة بين

---

(١) انظر الفصلين الثاني والثالث من هذا الكتاب. الأزدي: Tarikh al-Mawsil, p. 416 ff. gives the same information given by Tabari.

(٢) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٠.

(٣) المسعودي، ج ٧، ص ١١٩؛ التنبيه، ص ٣٥٦.

(٤) البلاذري: الفتوح، ج ٤، ص ٤١٥؛ الطبري: ص ١١٧٩-١١٨٠؛ ياقوت: المعجم، ج ٣، ص ١٦؛ إبن حمدون: تذكرة، ص ١٠٤؛ نعمان ثابت: الجندية، ص ٣٥-٣٦. يذكر الطبري أن الغلمان الأتراك كانوا يشتكون من قبل إخوانهم.

(٥) انظر: الفصل الأول من هذا الكتاب.

المعتصم وبغداد، وعليه ولكل هذه الأسباب التي ذكرناها مجتمعة رأى المعتصم أن من الأحرى أن يهجر بغداد التي كانت تناصبه العداء إلى مكان يأمن فيه من هجوم غادر تشنه الحربية على قواته الجديدة، ويكون في مكنته هو أن يشن من ذلك المكان هجوماً بقواته الجديدة، على قوات الحرس القديم إذا ما طرأ ما يبرر ذلك[١]. وهكذا صارت رغبة المعتصم الصريحة أن يرحل إلى مكان يقع شمال بغداد في أعلى النهر حتى يكون موقعه الجغرافي الجديد فوق موقع مناوئيه من العسكر القديم، وبذلك تتوافر له عدة مزايا براً وبحراً إذا ما كان ثمة هجوم.

ولعله من المناسب أن نذكر هنا أن المعتصم لم يكن أول خليفة عباسي سعى لإيجاد بديل لبغداد، إذ إن والده الرشيد الذي قضى وقتاً طويلاً في الرقة كان قد بنى مدينة جديدة في القاطول حينما تخوّف من الجند مثلما تخوّف المعتصم وفق ما رواه الطبري[٢]. والخليفة المأمون الذي أقام في مرو في بداية عهده قيل إنه قد قضى وقتاً طويلاً يقيم في الشماسية خارج بغداد. وتوسع بغداد نفسها كان يعزى في معظمه للدور التي شيّدت في أطراف المدينة بوساطة الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم. وهناك من يرى أنه ربما كان الذي أغرى المعتصم ببناء عاصمته الجديدة هو رغبته في أن يحذو حذو أسلافه، ممن أسسوا مدناً أو أجزاء من مدن تنسب إليهم ليحققوا لأنفسهم

(١) إبن الطقطقي: الفخري، ص ٣١٩.

(٢) الطبري: ص ١١٨٠؛ البلاذري: الفتوح، ج ٤، ص ٤١٧؛ ابن الطقطقي: الفخري، ص ٣١؛ Balami, IV, pp. 523-4

شهرة أو رفعة[1]. لكن تلك الأسباب لم تكن الدافع لقيام عواصم للخلافة، كان ذلك نتيجة دوافع سياسية قوية وضرورات استراتيجية. وعلى كل فالمصادر المتاحة لا تشير إلى وجود مثل هذه الدوافع المتعلقة بالشهرة والرفعة لدى المعتصم.

- ٢ -

حذا المعتصم حذو أسلافه فسعى لإيجاد مواقع قريبة من بغداد، فبدأ بالرحيل إلى الشماسية، وهي مكان للمأمون كان كثيراً ما لجأ إليه لشهور في أواخر أيامه. لكن اتضح له أن الشماسية كانت أضيق من أن تفي باحتياجات المعتصم كما كانت شديدة القرب من بغداد[2]، فرحل إلى بردان، ليغادرها سريعاً إلى بهنسا على الضفة الشرقية لنهر دجلة، ثم هجرها ورحل إلى المطيرة، ولم يطب له بالمطيرة مقام فاتجه صوب القاطول التي أسسها والده الرشيد، وفي القاطول خطط لعاصمته الجديدة فمد نهر القاطول إلى وسط المدينة، وخطط الأحياء الجديدة لقادة عسكره وللجنود والكتاب والعامة، وحدد أماكن الأسواق على شواطئ نهر دجلة والقاطول[3]. لكن المصادر تختلف هنا، فالطبري يروي أن رحيل المعتصم كان من بغداد

---

(١) ناجي الأصيل: مدينة المعتصم، ص ١٦٤. بناء مدن جديدة كان تقليداً تمارسه الأسر الاسلامية الحاكمة. وقد كان للأمويين مصايف كالرملة، وكذلك للعباسيين مثلهم (اليعقوبي: البلدان. See X. de Planhol, The World of Islam, p. 4.)

(٢) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٠.

(٣) المصدر نفسه.

إلى سامراء مباشرة بدون توقف، ولا يأتي على ذكر لمباني شيدت في القاطول وإنما يشير إلى خيام نصبت في القاطول للمعتصم وللناس عامة، وإن المعتصم ظل يوالي تحركه حتى وصل إلى موقع سامراء وبدأ البناء فيه[1]. أما المسعودي فيروي أن المعتصم لم يكتف ببناء قصر في القاطول ودعوة الناس إلى التحرك إلى عاصمته الجديدة، بل إن بغداد قد أوشكت أن تهجر نتيجة للتحرك للمدينة الجديدة[2]. أما ياقوت فيروي أن المعتصم رحل مباشرة إلى سامراء وهي رواية قريبة الشبه برواية الطبري، ويحتمل أن تكون نقلاً عنها أو نقلاً عن مصادرها أنفسها. وعلى كل فهناك وصف لهذه الواقعة يأتي قريب الشبه في تفاصيله بروايتي المسعودي واليعقوبي[3]. إن رواية اليعقوبي تشبه كثيراً رواية المسعودي الذي يبدو أنه قد نقل عن اليعقوبي وأضاف إليها من مصادر أخرى[4]. يروي اليعقوبي أن المعتصم قد شرع في البناء في القاطول بعد أن خطط مواقع لقادة عسكره ولكتابه وللعامة، كما حدد مواقع الأسواق على جانبي شطي النهرين. وسمقت تلك المباني إلى ارتفاع مقدر في وقت أقام فيه المعتصم في مواقع خاصة شيدت له، كما كانت هناك مواقع خاصة للعامة. وفيما بعد هُجرت القاطول حين اتضح أن طبيعة تربتها تجعل البناء عليها صعباً. ويبدو أن هذه الرواية هي

(١) الطبري: ص ١١٨٠ - ١١٨١.
(٢) المسعودي: المروج، ج، ٧ ص ١١٩.
(٣) ياقوت: المعجم، ص ١٥-١٧.
(٤) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٠-٣٢.

الأقرب إلى القبول من جميع الروايات الأخرى. وإذا كان من الصعب قبول الرواية القائلة بأن المعتصم كان يتنقل في خيامه من مكان إلى آخر خلال توجهه من بغداد إلى سامراء، فإنه يكون صعباً بالقدر نفسه قبول الإدعاء بأن القاطول نمت بسرعة إلى حال جعل بغداد تكاد تفرغ من سكانها. والطبري نفسه يأتي على ذكر رحيل المعتصم إلى القاطول في صورة توحي بأن رحيله إليها لم يكن مجرد مرور عابر بها. يضاف إلى ذلك أن النتائج التي أفضى إليها التنقيب عن الآثار في المنطقة يوحي بما يؤيد الواقعة القائلة بأن المعتصم قد شرع فعلاً في بناء مدينة في القاطول[1]. وعلى كل فقد كانت كل الأمكنة التي أشير إليها غير بعيدة من بغداد أو سامراء.

وقامت سامراء مثلها مثل بغداد على موقع أثري قديم، ولكن الموقع الجغرافي الذي جعل بغداد مركزاً للتجارة (فقد كانت نقطة التقاء لطرق برية وبحرية كما كانت قريبة من الموانئ البحرية المهمة مثل البصرة، والأبلة، كما كانت قريبة من عدة مراكز ثقافية مثل الكوفة، والبصرة، والمدائن) لم يتوافر لسامراء، لذلك لم تكن هذه الأخيرة نداً لبغداد. إن أمر اختيار المعتصم للموقع وكيفية شرائه، والحديث المتداول عن اسم الموقع وتاريخ ومآل ذلك المكان أورده كثيرون، وكذلك الحال مع طبوغرافية وخصائص سامراء من بداية نشوئها إلى أن صارت

(١) ناجي الأصيل: مدينة المعتصم.

عاصمة للخلافة العباسية[1]، وعليه فلا مبرر لإعادته هنا، وهذا لا يمنع بالطبع من التركيز على بعض حقائق جديرة بالتركيز عليها .

والمصادر تتحدث عن انتقال المعتصم إلى سامراء عاصمته الجديدة بقواته وكتابه وبقية الناس في عام ٢٢١هـ/ ٨٣٥-٨٣٦م، وهو العام نفسه الذي بدأ فيه تشييد تلك المدينة .تحدثت المصادر عن تشييد عدد من القصور لسكن المعتصم نفسه وبعض قادته العسكريين وبعض الشخصيات الإدارية الهامة، وبالإضافة إلى هذه المباني فقد شيدت المساجد، والأسواق، والحمامات العمومية، والمباني الحكومية. ليس هناك ما يؤكد أن تشييد كل هذه المباني قد اكتمل خلال السنة المعنية، لكن الشعور العام هو أنها كلها قد شيدت خلال عام واحد[2]. ومهما تكن الحقيقة، فإن حجم المشروع يلقي الضوء ساطعاً على الإمكانات الإدارية والمالية والمادية الهائلة للدولة العباسية رغم الآثار التي خلفتها حرب أهلية لم يمض على نهايتها طويل وقت، يضاف

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٣١؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٢٠-١٢١؛ التنبيه، ص ٣٥٧ ؛ ياقوت: المعجم، ج ٣، ص ١٥؛ Balami, IV, pp. 524-5; also see E. Herzfeld, Geschichte der Stadt Samarra; R. Sarre and E. Herzfeld, Ausgrabungen von Samara; H. Violet, Description du palais de al-M'outasim, and Un palais musulman du Ixe siecle; Creswell, Early Muslim Architecture; Rogers, J.M., Samarra; Northedge, A., Planning Samarra. بشير فرنسيس و م. علي: جامع أبي دلف.

(٢) قصر الجوسق شيّد بين عامي ٢٢١/ ٨٣٥ و ٢٢٥/ ٨٤٠؛ cf: D.S. Rice, Deacon of drink, p. 1.

إلى ذلك ما كانت تكلفه من مال وعتاد ثورات متأججة ظلت تواجه الدولة أيام المأمون والمعتصم.

لقد تطلّب بناء سامراء توفير المهندسين المدنيين، والمعماريين، والعمال المهرة، وجلب مواد البناء من سائر أطراف الدولة العباسية وبخاصة من العراق وسوريا ومصر. كانت بغداد هي المثل الذي أُحتذي خاصة في مجال تخطيط الأسواق والمراكز الحرفية. كانت حامية بغداد وقت إنشائها مثلها مثل البلاط والمباني الحكومية تقع داخل الأسوار الدائرية للمدينة الصغيرة التي بناها المنصور، أما سامراء فلم تكن لها أسوار دائرية[(١)]. كان المنصور وقت بناء مدينته مهموماً بتأمين انتصار وسيطرة دولة العباسيين في مواجهة أعدائهم، وفي مواجهة المتطرفين والناقمين من بين مؤيديهم، كما كان مهموماً بهاجس الحاجة إلى السلامة والأمن لنفسه، وكان مهدداً مباشرةً في هذه النواحي أكثر مما كان يلقاه المعتصم الذي رأى في خروجه من بغداد حلاً لمشاكله العامة والخاصة. كانت سامراء مدينته ومدينة قواته الخاصة، وفوق كل ذلك كان المعتصم مصمماً على إنشاء مدينة تصلح لمنافسة بغداد.

إن وصف سامراء التي أنشأها المعتصم وطورها خلفاؤه من بعده، والذي أبرزته كتابات كتاب كثر مثل اليعقوبي والمسعودي

(١) عبد العزيز الدوري: نشوء الأصناف، ص ١٣٤-١٣٧؛ X. de Planhol, The World of Islam, p. 9؛ يرى روجرز أن الموقع لم يكن مناسباً لسوء التصريف فيه؛ انظر: هامش رقم (١) في الصفحة السابقة.

وياقوت وآخرين وأيدته لاحقاً حفريات أثرية تشير إلى مدينة حظيت بكل معالم عاصمة إسلامية، ففيها المساجد، والقصور، والحدائق، والحمامات العامة، والأسواق، ومراكز الحرف والدواوين، ورئاسة المصالح الحكومية والسجون والاسطبلات وماشابه ذلك. إن المعلم الأبرز لسامراء هو أن الغرض الأساسي من إنشائها كان شديد الوضوح منذ البداية. وكأن الغرض هو تفادي الاختناقات المرورية التي كانت تحدث في بغداد، كانت شوارع سامراء منسقة طولاً وعرضاً. وكان الشارع الأعظم يشق المدينة بطولها، وعلى هذا الطريق كان يقع مجلس الشرطة، والسجن الكبير، والجامع الكبير، ودار الخلافة، ودار العامة حيث كان الخليفة يستقبل عامة الناس في يومي الاثنين والخميس(١). وكانت تقع عليه أيضاً الحدائق العامة والخاصة. وعلى جانبي الطريق نفسه كانت تقع مساكن العامة والأسواق المحلية والمراكز الخدمية التي تقدم خدماتها اليومية للناس. وكان هذا الشارع يفضي إلى خشبة بابك. وهي التي علق عليها جثمان بابك بعد قتله. كما يفضي إلى السوق الكبير الذي كان به مواقع محددة لسائر التجارات بعيداً نوعاً ما عن المساكن(٢).

كان الجزء الرئيس من المدينة، بإستثناء مساكن الخليفة

(١) H.Violet, Description du palais de al-Moutasim, pp. 15-26, and Un palais musulman du Ixᵉ siécle.

(٢) اليعقوبي: البلدان، ج ٣، ص ٣٢-٣٤ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٢٢؛ Herzfeld, Geschichte der Stadt Samarra, p.106; X. de Planhol, The World of Islam, pp. 11-13.

وغيره من الأعيان والمباني الحكومية، يعبر عن استخدام غير مسرف لمواد البناء والعمالة والتصميم. كانت معظم المباني مشيدة من الطوب غير المحروق، وكان الغرض الوظيفي من إنشائها هو الذي أملى تصميم أشكالها وتقسيمها الداخلي. وكان ذلك ناتجاً عن السرعة التي شيدت بها تلك الدور و في تناسق مع أذواق ساكنيها وهم جنود المعتصم. أما بالنسبة للقصور والمباني الحكومية فقد كان الأمر مختلفاً لأن سامراء حفلت بفخامة وجمال الفن والعمارة الإسلامية، تشهد بذلك دار الخلافة، وقصور: العاشق والجوسق، والملوية، وجامع أبي دلف وأشباهها[١]. ورغم التأثر بنسق العمارة في المدن الإسلامية القديمة، خاصة بغداد ودمشق والفسطاط، فقد كانت سامراء أكثر من تقليد لتلك المدن وتميزت بطابعها الخاص، وإن كان ذلك الطابع الخاص قد أصبح أكثر بروزاً في مبان اكتمل بناؤها كما يروي الطبري بعد عهد المعتصم، الذي كان يهتم بمتانة البناء والتحقق الأمثل للغرض الذي أنشئ من أجله. وخلف أرثاً ضخماً تشهد عليه القصور التي بناها[٢].

- ٣ -

إن من المهم جداً فيما يختص بصعود نجم سامراء، خاصة فيما يتعلق بنمو العاصمة الجديدة اجتماعياً وسياسياً وثقافياً، أن

(١) Creswell, Early Muslim Architecture, pp. 259-67, 274-91.

(٢) الطبري: ص ١٣٢٦؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص١٠٤؛ Bar Hebreaus, I p. 133؛ انظر: H. Violet, Desoription... op. cit.

نشير إلى السياسة التي اتبعها المعتصم لتؤدي إلى استقرار المجموعات العسكرية المختلفة والمجموعات الحضرية من عامة الناس. اسكنت المجموعات العسكرية منفصلة بعضها عن بعض، لكنه لُوحظ في اختيار مواقع تلك الوحدات العسكرية أن تكون قريبة من بعضها[١]، آخذاً في الاعتبار ما كان من قرب في مواطنهم الأصلية. وعليه فقد استقرت القوات التركية قريبة من القوات القادمة من فرغانة وأشروسنة[٢]. وكان الفصل تاماً بين مواقع هذه القوات ومواقع سكن المدنيين عموماً، وهم من جلبوا لإكمال كل جوانب الحياة فيما يتعلق بالخدمات الاجتماعية والاقتصادية[٣]. وتم الفصل بين القوات التركية والقوات الأخرى المتصلة بها من الخراسانيين، وبين السكان المدنيين الذين استقروا على جانبي الشارع الأعظم. وحتى في داخل وحدات الجند فإن مقار الجنود قد حددت تحت إشراف قادة مثل أشناس، وخاقان عرطوج، ووصيف وآخرين[٤]. إن طريقة الإسكان هذه لم تكن في مجملها مما يعكس وجود تجمع قبلي أو جهوي ضمن المجموعات الرئيسية الخاصة كالترك والفراغنة أو الاشروسنة، ولكن مع ذلك فقد أثرت فعلاً على

---

(١) المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٢٢؛ اليعقوبي: البلدان ص ٣٢-٣٣. هذا النظام ليس جديداً فقد سبقت ولحقت مدن كان فيها فصل في السكن
X. de Planhol, The World of Islam, pp. 13-14; Ayalon, The Military Reforms of Caliph al-Mu'tasim.

(٢) انظر هامش رقم ١ أعلاه.

(٣) اليعقوبي: البلدان، مرجع سابق.

(٤) المسعودي: المروج. واليعقوبي: البلدان.

الوحدة وروح التضامن داخل كل مجموعة، وهذا ما يفسر نشوء المنافسة التي تطورت فيما بعد داخل المجموعة المسيطرة من الأتراك، والتي هددت بدورها ثبات ولاية العهد للخلافة. إن من المهم أن نذكر أن المعتصم قد جعل سياسة مستديمة وملزمة بأن يقتصر زواج كل مجموعة من مجموعتها العرقية وحدها دون غيرها. فاليعقوبي يروي أن المعتصم اشترى جواري تركيات ليزوجهن من أفراد قواته التركية، في وقت كان يمنع تلك القوات من الإقتران بالمولدات. وهن المولدات المحليات من غير العرب أو من أبوين مختلطين. ويمضي اليعقوبي ليسجل أن المعتصم جعل لتلك الجواري رواتب تجري عليهن، وسجلت اسماؤهن في الدواوين بصورة يستحيل معها على أزواجهن أن يطلقوهن أو يهجروهن[1].

يروي اليعقوبي:

«وصيرت قطائع الأتراك جميعاً والفراغنة والعجم بعيدة من الأسواق والزحام، في شوارع واسعة ودروب طوال، ليس معهم في قطائعهم ودروبهم أحد من الناس يختلط بهم من تاجر أو غيره. ثم اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهم ومنعهم أن يتزوجوا ويصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشئوا لهم الولد فتزوج بعضهم إلى بعض. وأجرى للجواري الأتراك أرزاقاً قائمة وأثبت أسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم يطلق أمرأته ولا يفارقها...»[1].

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٣. لا يرى أيالون ذلك. Ayalon, The Military Reforms of Caliph al-M'utasim, p. 31ff.

ومن المحتمل أن تكون هذه السياسة نفسها طبقت في حالات المجموعات الشرقية الأخرى (الفراغنة، الاشروسنة)، وإن لم تطبق على المغاربة. وعلى كل فليس من الواضح إذا كان قد سمح بالزواج الداخلي لهذه المجموعات الثلاث. ومع علو شأن سامراء أصبح من الطبيعي أن يلتفت الأخباريون إلى الأتراك وقد شكلوا وقتها المجموعة الأقرب إلى الخليفة المعتصم. إن بروز الأتراك وتميزهم في تاريخ سامراء بعد المعتصم وكما ينقله الرواه إنما يعزى ولو جزئياً لهذا العامل.

إن سياسة المعتصم تلك كانت مفارقة لروح الإسلام بعيدة عن تقاليد الامبراطورية المسلمة، إذ إنه في حالة المدن الإسلامية التي أنشئت قبل سامراء كانت المجموعات السكنية القبلية والجهوية للجيوش هي النمط الذي ساد، ولكن ذلك خلا تماماً من القيود المتشددة التي تفرض المعايشة وتمنع الاختلاط الداخلي كما تمنع الزواج المختلط. وما كان من حق شرعي لأي خليفة أن يمنع زوجاً من تطليق زوجته إذا ما توافرت دواعي ذلك. وفي الأمصار الأولى (الكوفة والبصرة) حينما كانت الجيوش تجمع وتنظم وتدار أمورها وتتم قيادتها على أساس قبلي، فإن روح القبيلة هي التي جعلت التجمع القبلي أساساً للاستقرار(١). وفي وقت لاحق سعى الخلفاء إلى تنظيم الأحياء بصورة تمكن من استخدام مجموعة في مواجهة الأخرى إذا ما دعا داعٍ لذلك، وخير مثال لذلك تمثل في بغداد. ولكن

(١) Ch. Pellat, Le milieu basrien, pp. 21-34. op. cit.

وفي كل هذه الأمكنة، فإن التمازج الاجتماعي والثقافي والعرقي سرعان ما أسفر عن مجتمع متماسك وإن بدت فيه فروق اقتصادية واجتماعية. إن الظروف التاريخية والتمازج الداخلي يجب أن تكون ماثلة في الأذهان. فسامراء لم تكن كبغداد التي شكلت خلفيتها الاجتماعية والثقافية الكوفة والبصرة، كما لم تكن مسكونة بروح الثورة العباسية لتخدمها كقوة تحقق التجانس في مجتمعها. لقد نشأت سامراء في وقت ضعف فيه الحماس الشعبي للخلفاء وللخلافة، وحلت محله مواجهة بين الدولة والأمة[١]، وأصبح مصير الخلفاء ومستقبلهم في الاستمرار في مناصبهم رهن قوة عسكرية محضة يمثلها جنود محترفون[٢].

وهكذا، فليس من الصعب معرفة بواعث سياسة المعتصم، لقد وضح له أن بقاء واستمرار الخلافة يقوم على القوة العسكرية وحدها، لذلك رأى أن يحتفظ بقواته دون أن تتخالط ضماناً لمستقبله الشخصي، ومستقبل ورثته من بعده[٣]. إن الابقاء على الروح العسكرية لتلك القوات كان يتم بالنأي بها عن أي تأثير مدني، وكان ذلك يمثل ضرورة ملحة لخليفة مثله، كان يتوجب عليه أن يحصّن ملكه في وجه سلسلة من الثورات الخطرة التي تتهدده. وإذا كانت الخلافة العباسية راحت تتمدد ببطء في الشرق بمجهودات الطاهريين والسامانيين، فقد كانت في موقف

---

(١٠) Gibb, Government and Islam, p. 122.

(٢) الجاحظ: مناقب، ص ٤٥ ؛ Crone, Slaves on Horses, pÁ 85ffÁ

(٣) ليس واضحاً من أين جاء المعتصم بهذه الفكرة بالفصل في التسكين، اللهم إلاّ السوابق.

الدفاع في أجزاء كثر من الامبراطورية الإسلامية كانت تقع مباشرة تحت سلطة الخليفة في العراق وسوريا وأرمينيا ومصر.

ـ ٤ ـ

إن عصر بروز القادة العسكريين كان نتيجة تطورات سابقة، وبصفة خاصة ما كان في عهد المأمون. وعلى كل، فقد كان رجال المأمون نتاجاً مباشراً أو غير مباشر لتقاليد بغداد، ولم يكونوا غرباء على مشاعر أو تفكير أهل بغداد. لقد كان أشناس وإيتاخ ووصيف وسيما الدمشقي من القادة العسكريين ممن تم شراؤهم في بغداد كأرقاء[1]، وكان هؤلاء القادة يكنون احتراماً وقداسةً للخلفاء وللخلافة ولأهل بغداد. إن من المهم أن نشير إلى أن هؤلاء القادة خلال نفوذهم في عهدي المعتصم والواثق خدموا الخلفاء بإخلاص. وحتى الأفشين ومازيار ممن غدر بهم المعتصم كانا ينتميان إلى هذه التقاليد، وإلى طبقة مثل الطاهريين والسامانيين وهي طبقة تميزت بمقدرة القادة العسكريين، وتطلعات رجال الدولة. وبصعود نجم سامراء ظهر سلوك جديد، وهو سلوك كان لشخصية المعتصم ولطبيعة قواته، وللأحداث خلال فترة حكمه كبير أثر في تشكيله. إن القادة العسكريين الجدد الذين ظهر نفوذهم ونما في أجواء الحامية العسكرية في سامراء بما ميزها من فصل اجتماعي، وروحها العسكرية، وصراعاتها، والغيرة المستعرة بين مختلف القادة والمجموعات

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩-٣٠.

صيَّرت تلك الأجواء أولئك القادة إلى رجال انحصر همهم في التمتع بأسباب القوة التي أتيحت لهم. وتفاقم الموقف وازداد سوءاً بسبب اهتزاز موقف الإدارة العباسية في المناطق الوسطى التي كانت تخضع مباشرة للخلفاء، ولتقلص نفوذها ونقص مواردها المالية بفعل استبداد بعض الأسر الحاكمة بالسلطة في الأقاليم. وزاد الطين بلة أن الأسرة العباسية الحاكمة أصابتها لعنة أيلولة الحكم إلى خلفاء ضعاف تتابعوا على مدى فترة هامة أعقبت حكم الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧ م)، فترة تميزت بقصر حكم الخلفاء والصراع المتجدد بين بغداد وسامراء.

نتيجة لمجهودات المعتصم وبعض خلفائه، وعلى وجه الخصوص ابنه المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧-٨٦١م)، نمت سامراء سريعاً، وغدت مدينة ضخمة تفوقت على بغداد في اتساع انتشار مبانيها. وجلبت لنفسها أنواعاً شتى من البشر يمتهنون مهناً متعددة ويباشرون تجارات متنوعة[١]. وبعد أن أكمل المعتصم تخطيط وإقامة الأحياء على الجانب الشرقي من نهر دجلة حيث قامت المدينة لجأ إلى إقامة جسر يقود إلى الجانب الغربي من النهر، وهناك شرع المعتصم في تنفيذ برنامج للتنمية خصص بموجبه مساحة معينة لكل قائد يكون مسؤولاً عن رعايتها.

---

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٨؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٢٢؛ نعمان ثابت: الجندية، ص ٥٥.

أخذت القصور بمجالسها، والأحواض، والميادين الفسيحة، وحدائق الفاكهة، والمزارع تطل سريعاً برأسها لتلفت انتباه الوجهاء، وأدى تنافسهم المحموم على تملك الأراضي مهما كانت صغيرة إلى ارتفاع قيمة الأراضي إلى حدود مذهلة[(١)]. جلبت أشجار النخيل من العراق وبذور الفواكه من الجزيرة وسوريا والجبال والري وخراسان، كما جلب الرجال الذين يحسنون رعايتها إلى العاصمة. وهو ما حدث للحرف الأخرى المختلفة، فقد جُلب الوراقون من مصر، وصناع الزجاج ومعاصر الزيوت من الكوفة، وجلب مهندسو المياه وأصحاب حرف وتجارات أخرى إلى المدينة الجديدة[(٢)]. لقد نمت النباتات والمحاصيل بصورة جيدة في تربة ممتازة ظلت بوراً لسنوات طويلة. وازدهرت الحرف في العاصمة الجديدة بفعل تزايد حاجات مدينة تسارع نموها، وزاد في سرعة نموها احتياجات ومكاسب عهد تميز بالحملات العسكرية الضخمة[(٣)]. صار الشاطئ عند شارع الخليج يعج بالنشاطات التجارية، وبوصول المراكب والسفن محملة بمختلف البضائع من بغداد وواسط وكسكر والبصرة والأبلة والأهواز والموصل وباعربايا ودياربكر[(٤)]. إن قرب سامراء من هذه الأماكن مكن من سهولة

---

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٨-٣٩؛ ابن حوقل: المسالك، ص ١٦٦-١٦٧.
(٢) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٩.
(٣) اليعقوبي: البلدان، ص ٦؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٢٢.
(٤) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٨. كانت سامراء على بعد ١٢٠ كلم من بغداد؛ بشير فرانسيس و م. علي: جامع أبي دلف، ص ٦٠؛ نعمان ثابت: الجندية، ص ٣٥.

الاتصال المباشر بين المنتج والمستهلك وساعد كثيراً في ارتفاع أسعار الحبوب خاصة القمح لصالح المنتجين من سكان تلك المناطق.

بعد هذا النمو السريع وكثمرة للمناشط زادت سامراء وازدهرت المدينة التي سميت باسم المدينة القديمة، التي نسبتها مصادر إلى سام بن نوح تسمى «سرور من رأى». ثم اختصر الاسم لتصبح «سر من رأى» ولكن انتهى بها الحال بعد عودة العاصمة إلى بغداد لتُلقَّب باسم «ساء من رأى»[1].

يذكر ياقوت في معجم البلدان:

«لما عمرت سامراء وكملت واتسق خيرها واختلفت، سميت «سرور من رأى» ثم اختصرت فقيل «سر من رأى» فلما خربت واستوحشت سميت «ساء من رأى» ثم اختصرت فقيل «سامراء»».

لقد استمر نمو سامراء متسارعاً في عهد المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م)، وتباطأ في عهد ابنه المنتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦٢-٨٦٣م)، وانحطت سامراء في عهد المستعين (٢٤٨-٢٩١هـ/ ٨٦٢-٨٦٥م)[2]. لقد بدا مصيرها واضحاً على الأسماء التي سميت بها، تلك الأسماء التي كانت نفسها متصلة أوثق اتصال بمصير الخلفاء العباسيين الذين أصبح نفوذهم

(١) المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٢١-١٢٢؛ التنبيه، ص ٣٥٧؛ ياقوت: المعجم، ص ١٤-١٦.
(٢) ياقوت: المعجم، ص ١٩.

يضعف تدريجياً بسبب تدخل العسكر في شؤون الخلافة، وبسبب بروز عدد من الحكام الاقليميين الأقوياء[1]. إن سامراء لم تكن مثل بغداد التي كان لاستقرار إدارتها تحت حكم الطاهريين، ولوحدة ترابط سكانها ونموها الاجتماعي ما مكنها من تحمل تذبذب المصير السياسي للخلافة، وإن لم يخل ذلك من خسائر. أما سامراء فقد كانت أساساً معسكراً، لذلك لم تقوَ على الصمود أمام العواصف السياسية التي احتدمت داخلها.

إن سامراء على عهد نموها السريع ومكانتها في عهد المعتصم والواثق كانت تمثل عالماً يختلف عن عالم بغداد. مظاهر الإزدهار الواضح وقتها في بغداد وفي أماكن أخرى مثل الفسطاط ودمشق ومرو تحت رعاية المأمون، كانت تقابله في سامراء أجواء من المحاكمات التي كانت تنتهي بالإعدام والصلب مثل إعدام بابك والأفشين ومازيار، مع ما صاحب ذلك من حملات عسكرية. ومع أنه يحق لهذه الحقبة أن تفاخر بشعرائها من أمثال أبي تمام[2] ودعبل الخزاعي والبحتري وبكتابها ومفكريها من أمثال الجاحظ وبفقهائها من أمثال الإمام أحمد بن حنبل، إلاّ أنه ما كان من هؤلاء الأفذاذ ما يدعوه

---

(١) إبن بدرون: ص ٢٩٢؛ D. Sourdel, Le Vizirat Abbaside, I, pp. 245-6.

(٢) مدح أبو تمام المعتصم في أكثر من قصيدة. وكذلك فعل شعراء غيره. غير أن سيرة أبي تمام وتجواله ومن مدح تؤكد أن سامراء كان لها أكثر من منافس ثقافياً واجتماعياً؛ انظر: نجيب محمد البهبيتي: أبو تمام حياته وحياة شعره.

للعيش في سامراء، أو أن يبني علاقة ببلاطها أو بسياستها ما خلا الجاحظ الذي كانت له مثل تلك الصلات لأسباب سياسية أو فرقية. وشخصية لامعة مثل المغني إسحق الموصلي - ممن كان يتصور أن يكون مقره بلاط الخليفة - إلاّ أنه وجد من الصعب عليه أن يعيش في سامراء[١].

أصبح الخلفاء والخلافة يخضعون رويداً رويداً لنفوذ العسكر وآلت شؤون الدولة وشورى الحكام إلى الكتاب الذين كانت لهم عداوة تقليدية للعلماء[٢]، في وقت كان فيه العلماء وعامة الشعب هم الرصيد البديل الذي كان من الممكن أن يلجأ إليه كل خليفة وقت الحاجة. إن مما يستحق الذكر هنا أن نشير إلى أن هذه الحقبة قد تلتها مباشرة حقبة تميزت بظهور عدد من عظماء المؤرخين مثل الطبري والمسعودي واليعقوبي، وقد جاؤوا في وقت شهد نهاية الوحدة السياسية وقوة الخلافة. وقد عكس هؤلاء الرجال بصدق أخبار ماضٍ مجيد كانوا شديدي الحرص على تسجيله. تلا عهد هؤلاء الرجال عهد المؤرخين الإقليميين في وقت صار فيه تصدع الخلافة حقيقة واقعة[٣]، ولعله من المهم أن نلاحظ أيضاً أن بغداد التي كثيراً ما أشار إليها قدامى المؤرخين من أمثال الطبري ومعاصريه بمدينة السلام، كان

---

(١) الأغاني، ج، ٥ ص ٩٣-٩٤.

(٢) انظر الجاحظ: ذم أخلاق الكتاب؛ Gibb, Studies, pp. 62-73 البستاني: منتقيات، ص ٩٥.

(٣) يمكن ملاحظة هذا التطور في الأعمال الأدبية أيضاً. المتنبي في سيرته وشعره يبحث عن ماضٍ تليد، بينما المعري يرى فلسفة وزهداً.

يكتفى بالإشارة إلى سامراء باسم العسكر(١). والعسكريون من أئمة الشيعة هم من قبروا بسامراء العسكر.

(١) المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٧؛ اليعقوبي: البلدان، ج ٣، ص ٢٣٠؛ المحبر ص ٣٧٦. إلى سامراء العسكر ينسب أئمة الشيعة العسكريون الذين عاشوا في سامراء. انظر الاصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص ٣٨٥.

الفصل الخامس

أهم الأحداث في عهد المعتصم

قد لا يجد المعتصم مكاناً بين الخلفاء العظام، ولكنه كان قطعاً قائداً عسكرياً مقتدراً. ولا يمكن وصف عهد حكمه بالازدهار خاصة إذا قورن بعهد والده الرشيد، أو عهد أخيه المأمون. لكنه كان عهداً مليئاً بالأحداث الجسام. وبالنسبة للمؤرخين كان عهداً زاخراً بالحملات العسكرية[١]. وكانت انتصاراته في تلك الحملات حاسمة وإن لم تكن فتوحات جديدة فقد كانت مع ذلك مهمة جداً. وإذا كانت تلك الحملات قد وقت الخلافة شر بعض الثورات الخطرة، فإنها أفرزت طبقة من القادة العسكريين ذوي النفوذ خاصة أولئك الذين كانوا من المقربين من المعتصم. وفي الوقت الذي مكنت مثل تلك الحملات العسكرية حكاماً مثل الأغالبة في شمال أفريقيا من

---

(١) المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٥-٣٣٦ ؛ الدينوري: الأخبار، ص ٣٩٦-٣٩٧؛ إبن قتيبة: المعارف، ص ١٩٩-٢٠٠؛ إبن فقيه: البلدان، ص ٥٢-٥٣. Tabaris account of the reign is translated by E. Marin under the title **The Reign of al-Mutasim.**

تثبيت ملكهم فإنها أبقت على الموقف بين الخلافة والأمبراطورية البيزنطية يراوح مكانه.

إن وجود التفاصيل الدقيقة لتلك الأحداث في مصادرها العربية الباكرة في كتابات مؤرخين مثل: الطبري، واليعقوبي، والمسعودي، والدينوري، وعدد من الدراسات الأخرى حولها تجعل من غير الضروري أن نتعرض لها في إسهاب[١]. يكفي أن نمر عليها في إيجاز، فنشير إلى خصائصها المميزة، وإلى أهميتها في النسق العام للتطورات في دولة بني العباس.

- ١ -

ثورة بابك الخُرَّمي

ربما كانت أهم هذه الأحداث هي ثورة بابك الخرمي من البذ[٢]، تلك الثورة التي ظلت مستعرة على مدى ثمانية عشر عاماً قبل اعتلاء المعتصم سدة الخلافة. هددت تلك الثورة

---

(١) الأعمال العامة مثل الدوري: العصر العباسي الأول; Muir: Caliphate; Vasiliev: **Byzance et les Arabes**; Khudari: **Muhadarat** H.I.Hasan: **Tarikh al-Islam**; Shaban: **Islamic History, A New Interpretation II**; Kennedy: **The Prophet and the Age of the Caliphates**; Hitti: **History of the Arabs**.

(٢) القلقشندي: صبح، ج ٦، ص ٤٠٠؛ E.M. Wright: **Babak of Badhdh** and al-Afshin; E.G. Browne: Literary History of Persia, pp. 323-8; B. Spuler: **Geschischte der Islamischen Lander**, pp. 57-8; idem: **Iran**, pp. 62-3; G.H. Sadighi; **Les Mouvements**, pp. 187-228, 229-30; Rekaya, **Mise au point sur Theophobe et I alliance de Babak avec Theophile** 833/4-/839/40.

وحدة الخلافة السياسية والاقتصادية والاقليمية، كما هددت الخلافة في مجال الدين نفسه[1]، لأن بابك لم يكن ثائراً سياسياً أو عسكرياً فحسب لكنه كان أيضاً رئيساً للخرمية. وقد أفاد بابك في سعيه لتثبيت سلطته مما سبقه من اضطراب ديني وسياسي وهو ما تميزت به منطقة البذ منذ دخول الإسلام لتلك المناطق خاصة بعد أفول نجم أبي مسلم الخراساني[2]، كما أحسن استثمار الوضع السياسي غير المستقر الذي تميز به زمانه.

وفيما كانت سيطرة الإسلام دينياً، والخلافة سياسياً وإدارياً، غير مستقرة في المناطق الحدودية الشمالية والشرقية، فإن عهد المأمون شهد أوقاتاً عصيبة عايشتها الخلافة بسبب الثورات في العراق وسوريا ومصر وبسبب الحملات المتعددة التي كان يقودها ضد الأمبراطورية البيزنطية[3]. ولكن تلك العوامل لم تكن وحدها التي ساعدت في استمرار ثورة بابك. كانت هناك عوامل اجتماعية واقتصادية أيضاً إذ إن الخلافة قد آثرت ولأسباب عدة أن تبقى على النمط الاقتصادي والاجتماعي الذي ابتدعته قبلها الدولة الساسانية الفارسية وسارت عليه، وهو وضع تميز بوجود أغلبية من المزارعين الفقراء وأقلية من كبار ملاك

---

(١) الطبري: ص ١١٧١ ؛ المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٣.

(٢) See Barthold: Turkestan; Browne: **Literary History of Persia**; Gibb: **The Arab Conquests in Central Asia**; Ibn Isfandiyar, **History of Tabaristan**, Rekaya note 3, above.

(٣) إبن قتيبة: (مصدر سابق)، يذكر ثورة حاتم بن رافع الليث في أرمينيا على المأمون لقتله أبيه ويشير إلى أن ذلك كان سبب ثورة بابك. المعارف: ص ١٩٨.

الأراضي - الدهاقين -. وفقراء الزراع كانوا على الدوام يظهرون ميلاً للثورات التي وإن كانت تعد بالنجاة في الآخرة في جانبها الديني، إلاّ أنها كانت تعد بالكسب المادي في الحياة الدنيا[١]. ولكن ثورة بابك لم تكن واحدة من هذه الثورات، فقد كان بابك يصدر عن مطامح شخصية لتولي السلطة سعياً لتحقيق نوع من الاستقلال الذاتي في إقليم البذ.

إنه من الصعب الجزم بأصول وأفكار بابك حتى ولو كان قد مارسها وآمن بها[٢]. سكت عنها الطبري تماماً، والدينوري أشار إلى صعوبات كابدها للإجابة على السؤال وكل الذي كان يعلمه يقيناً هو أن بابك كان من سلالة فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني[٣]. ويسارع الدينوري ليقول بأن الفاطميين الوارد ذكرهم مع بابك ينسبون إلى فاطمة هذه وإليهم انتسب بابك، وليسوا ممن ينسبون إلى فاطمة (ر) بنت النبي ﷺ وهي حقيقة توحي بأن هناك من أدعى نسباً إلى فاطمة (ر) بنت النبي ﷺ. والبلعمي يقول: إن تعاليم بابك أباحت كل ما حرمه الإسلام، وكانت عبارة عن شيوعية لم تترك أي مجال لملكية خاصة[٤]. وإبن النديم يقول إن بابك كان يقول لمن يسعى لاستمالتهم أنه كان إلهاً. ويضيف أن بابك أدخل إلى مذهب الخرّمية مبادئ لم تكن معروفة لديهم من قبل، مثل القتل والاغتصاب وتشويه

(١) Lambton: **Landlord and Peasant**, pp. 16-17.

(٢) أنظر: الدينوري: الأخبار؛ Balami, IX, p. 525.

(٣) الدينوري: الأخبار، ص ٣٩٧.

(٤) Balami, IV, p 525.

الأجساد. وفي مصادر أخرى يرد أن بابك كان قد ادعى أن روح جاويدان ـ وهو ثائر ديني تربى بابك على يديه ـ قد حلت فيه، وقد أيدته في هذا الزعم زوجته أرملة جاويدان التي تزوجها بابك من بعده[1]، وبذلك حصل بابك على تأييد أتباع جاويدان وتولى قيادة تلك الطائفة. ولكن يبقى اتهامه بأي نوع من أنواع الشيوعية من باب التهم التي لا يمكن أخذها بجدية. وفي رواية الطبري أن بابك لما جيء به أسيراً يرسف في أغلاله في طابور عرض أمام نساء مسلمات كن من أسراه، علت أصواتهن بالبكاء والعويل لماّ أبصرنه. ولما سئلن عن سبب بكائهن أفدن بأنه كان يحسن إليهن وهن في أسره. وربما كانت الإشارة هنا على الأرجح إلى الطريقة المهذبة والأوضاع المريحة التي كن يجدنها في محبسهن عند بابك[2].

وعلى كل قامت ثورة بابك على كل هذه العوامل، الدينية والاجتماعية والسياسية. وإذا كان بابك قد أفاد من كل المشاكل التي تعاني منها الخلافة، فإن من أهم ما ساعده وضعه الجغرافي في موطنه في منطقة جبلية وعرة المسالك، تكتنفها الغابات والوديان، ويكتنفها دائماً شتاء قارص البرودة. وهي الظروف الطبيعية نفسها التي كانت حائلاً دون تقدم جيوش الخلافة في هذه المنطقة في الماضي[3]. لقد تمترس بابك في

---

(١) إبن النديم: الفهرست، ص ٤٠٦-٤٠٧؛ E.M. Wright: **Babak of Badhdh**

(٢) الطبري: ص ١١٢٨.

(٣) انظر: مراجع سبق ذكرها لِـ: Barthold; Browne; Gibb; Ibn Isfandiar

وسط البذ في ظل حاميات حصينة ودعم محلي وتحالفات محلية أو حياد إيجابي؛ وأصبح بذلك قادراً على تسبيب إزعاج دائم للمناطق المجاورة. وكثيراً ما كان يعترض طريق الإمدادات التي كانت ترسل إلى حاميات الدولة في المنطقة.

وكان أنصاره خليطاً من الأكراد والفرس والعرب ذوي الأصول اليمنية، كما أفاد من قرب حدود الدولة البيزنطية في أرمينيا حيث يجد العون والملاذ الآمن[1]. هذا الموقع الاستراتيجي الهام بخطوط مواصلاته الممتدة على مقربة من حدود الدولة البيزنطية أضاف إلى خطورة ثورة بابك وجعل إخمادها عملاً صعباً.

وفي أيامه كان المأمون مشغولاً في أماكن أخرى، لذلك لم يول ثورة بابك كبير اهتمام، ولكن ذلك لم يمنعه بالطبع من إرسال حملات متلاحقة ضده كانت إحداها بقيادة عبد الله بن طاهر حاكم خراسان[2]، وهي حملة توفي أثناءها محمد بن حميد الطوسي الطائي[3]. ولم تنجح حملات المأمون وتوالت

---

(١) الطبري: ص ١١٧١؛ E.M., p. 8؛ المسعودي: التنبيه، ص ١٦٩ Rekaya above n. 3, p. 46 يذكر من أعوانه عربياً اسمه محمد بن الباعث وكردياً اسمه عصمة.

(٢) الطبري: ص ١٢٢٣؛ الدينوري: الأخبار، ص ٣٩٧.

(٣) خليفة الخياط: تاريخ، ص ٥١٣ ؛ الدينوري: الأخبار، ص ٣٩٨ ؛ البستاني: منتقيات، ص ٩٩-١٠٢. أبو تمام يرثي الطوسي ذاكراً شجاعته ونبله.

هجمات بابك، وتصاعدت خسائر المسلمين[١]. وبصموده أمام حملات الخلافة علا شأن بابك وتزايد أتباعه مما مكنه من الاحتفاظ بثورته متأججة منذ أن بدأها عام ٢٠١ هـ / ٨١٦ - ٨١٧ م وطوال عهد المأمون الطويل.

في عام ٢١٨ هـ/٨٣٣-٨٣٤م وهو العام الذي تولى فيه المعتصم الخلافة تمكن بابك من استمالة أنصار كثر من منطقة الجبال ومناطق همدان وأصفهان ومساباذان ومهرجانداق ،وقد اتبع هؤلاء ديانة الخرّمية ـ كما يروي الطبري ـ وحشدوا قواتهم في همدان[٢]. لقد أمكن للمعتصم بعد وقف الحملة ضد الدولة البيزنطية بسبب وفاة المأمون، أن يوجه اهتمامه نحو بابك، واستطاع في نهاية العام نفسه أن يوجه حملة ضد بابك قادها إسحق بن إبراهيم بن مصعب الذي عين والياً على منطقة الجبال[٣] وأحرزت الحملة بعض النجاح.

ولما ازداد خطر ثورة الزط القريبة جداً من بغداد اضطر المعتصم أن يوليها اهتمامه[٤]، في وقت استمرت الحملات ضد بابك ولم تقف بسبب اهتمام المعتصم بثورة الزط. وفي ذلك

(١) الطبري: ص ١٢٣٣؛ E.M., p. 56؛ المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٣؛ الدينوري: الأخبار، ص ٣٩٧؛ إبن فقيه :البلدان، ص ٥٢ Bar Hebreaus, I p.136.

(٢) الطبري: ص ١١٦٥.

(٣) الطبري: المصدر نفسه.

(٤) انظر القسم الثاني من هذا الفصل.

العام استطاعت القوات التي كانت تواجه بابك من الحصول على معلومات مفيدة عن طبيعة الأرض في المنطقة وعن قوة بابك، ومواقعه ومواقع قواته. وهي معلومات تم الحصول عليها من بعض رجال بابك ممن أسروا أو ممن قدر على كسب ولائهم بعدة طرق.

أخمدت ثورة الزط في عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥م، وتمت إعادة إصلاح التحصينات بين أردبيل وزنجان التي سبق أن دمرها بابك ووضعت فيها قوات لإدارتها، كما تمت حراسة الطرق بين المدينتين بوساطة حاميات عسكرية. وأعدت الخنادق لإيواء القوات التي كانت تحمي الإمدادات والجنود، وبدأت الحكومة تشدد من قبضتها على الوضع. وكانت هذه بداية الانتصار على بابك كما عبّر عن ذلك الطبري[١]. وكانت بحق نقطة تحول مهمة تبعتها بعد فترة وجيزة الحملة الرئيسة الحاسمة. وفي العام نفسه ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥م عين المعتصم الأفشين والياً على الجبال وقائداً عاماً للحملة ضد بابك.

مبتدئاً من ميدان المصلى ببغداد تحرك الأفشين وجعل مقر قيادته في برزاند[٢]، وهنا يلاحظ المرء أن ثمة خطة جديدة قد وضعت، ولم تعد الحرب سلسلة من الحملات بل حملة رئيسة واحدة. وكانت استراتيجية الأفشين تتلخص فيما رواه الطبري «في أن الوقوف في الموضع الذي يحتاج إليه خير من المحاربة

(١) الطبري: ص ١١٧١

(٢) الطبري: ص ١١٧٠؛ الدينوري: الأخبار، ص ٣٩٨.

في الموضع الذي لا يحتاج إليه»[1]. لذا فقد كانت خطة الأفشين هي التقدم ببطء في اتجاه معاقل بابك الحصينة، واحتواؤه وإحتواء قواته، وجره إلى معركة فاصلة مع التأكد من سلامة خط الإمدادات والاتصال المستمر بين المسالح المختلفة ومقر القيادة في بارزاند، التي كانت في اتصال مستمر مع الخليفة المعتصم في عاصمته سامراء. وهذه هي الاستراتيجية نفسها التي طبقت في الحملة ضد الزط.

إن الدور الذي لعبه الخليفة المعتصم في هاتين الحملتين الرئيستين كان دوراً هاماً رغم أنه لم يكن موجوداً في ميدان المعركة، ففي كلتا الحملتين كان المعتصم مهتماً مباشرة بما يجري، وفي الاستراتيجية التي اتبعت في كلتا الحملتين كان وراء استمرار الإمدادات والمعونات، وأن يكون ذلك في شكل حملة عسكرية لا مجرد سرية مهاجمة، كما كان وراء الدعم المعنوي للقادة والجنود المشاركين في المعارك[2]. وفي كلتا الحالتين يلاحظ المرء الاستفادة القصوى من الخيول في تحريك الرجال ونقل الإمدادات إلى ميادين القتال. ولكن كل هذا لا ينبغي أن يشكك أو يقلل من كفاية واقتدار أو أدوار قادة محنكين مثل عجيف بن عنبسة والأفشين. ففي حالة الأفشين كان إختياره لقيادة الحملة هو الأمثل لمعرفته بالمنطقة؛ وتحمل هو

---

(١) الطبري: ص ١٢٠٨.
(٢) الطبري: ص ١٣٢٦؛ إبن حمدون: تذكرة، ص ١٠٥؛ إبن الفقيه: البلدان، ص ٥٢.

ورجاله أعباء الحملة العسكرية، وكان معظمهم مثله ينحدرون من المنطقة نفسها وقد أحسن الأفشين قيادة قواته.

ظلت الحملة تتواصل حتى الثلث الأخير من عام ٢٢٢ هـ / ٨٣٧-٨٣٨م. خلال هذه الفترة واجه المقاتلون صعوبات جمة إذ تطاول أمد المعركة في ظروف مناخية عسرة خلال شتاء بارد ممطر، ومع أن الإمدادات تواصل انسيابها من المعتصم تحت قيادة عدد من القادة الأتراك أمثال بغا وجعفر بن دينار إلا أنها كانت تتعرض لهجمات رجال بابك. يضاف إلى ذلك صعوبة تحقيق الانضباط في جيش تكوّن من عدة مجموعات مختلفة و طال ارتكازه في ظل ظروف صعبة دون الدخول في معارك حاسمة. فإلى جانب قوات الأفشين من أشروسنة كان هناك المغاربة، والأبناء، والأتراك، وبعض المتطوعة غير المنضبطين[(١)]. وقد حدثت بعض الاحتكاكات ولكنها كانت تواجه بالتصميم والحزم من قبل الأفشين الذي كان يحظى بدعم مطلق من المعتصم.

استعان الأفشين بتحصينات منيعة، وخنادق وخطوط إمدادات جيدة، كما كان له نظام استخبارات فعال. ورسم سياسة ذكية لاستمالة بعض أعوان بابك وبعض العناصر المحلية. كل ذلك متزامناً مع يقظة حذرة ونظام انضباط صارم مكنه في النهاية من حصر بابك في مدينته الحصينة البذ، ولم يبق أمام بابك إلاّ

(١) الطبري: ص ١٢٠٨.

الدخول في معركة مصيرية. وحانت تلك اللحظة بعد انتظار استطال، ومفاوضات مستمرة كانت ترمي إلى استسلام بابك.

وحانت ساعة الهجوم الفاصلة لرجال الأفشين بعد طابور سير بطيء كانوا يقطعون فيه أربعة أميال في اليوم[1] ويتناوبون الحراسة ليلاً ونهاراً. وكانت القوات الراكبة محروسة. وفي تكوينات متقاربة على أصوات الطبول كان الجنود يتحركون وكانت الأوامر المستديمة المشددة تقضي بألا يزاد أو ينقص في أوامر السير المحددة[2]. ثم تلت ذلك المعركة. كانت معركة شرسة لم تغن تحصينات بابك ولا بسالة رجاله عنه شيئاً، وتم اجتياح البذ وهُزم بابك.

لكن رغم المجهودات التي بذلها الأفشين ليسد على بابك مسالك الهرب المعروفة إلاّ أن بابك استطاع أن يتفادى كل تلك المنافذ والطرق، وأن ينسل هو وبعض رجاله هاربين عبر وادي يقود إلى أرمينيا. أما وقد حقق الأفشين انتصاره وأقام نفسه على منطقة الجبال والياً من قبل المعتصم فقد استطاع أن يبلغ رسالته إلى الولاة الأرمن والبطريق بهرب بابك وطلب منهم البحث عنه وتسليمه[3].

---

(١) الميل العربي يساوي: ١،٢٥ ميل انجليزي.

(٢) الطبري : مرجع سابق.

(٣) الطبري: ص ١٢١٩؛ E.M., p. 44 ؛ الدينوري: الأخبار، ص ٤٠٠؛ Bar Hebreaus, I p. 136

وفي هذه الأثناء ورد عهد أمان مختوم بالذهب لبابك من المعتصم .وما كان الأفشين راضياً بذلك[١]. لكنه عمل على تقديم عهد الأمان لبابك عن طريق بعض أتباعه، ولكن بابك رفض العرض ومضى إلى أرمينيا ليقيم عند شخص يدعى سهل بن سنباط في قصر له. لكن سنباط غدر ببابك ودل عليه أعوان الأفشين[٢]، كما غدر بعبدالله شقيق بابك. وهكذا تأمن الموقف في الجبال لصالح الأفشين وصار للحكام الأرمن أكثر من سبب لإرضاء جيرانهم الأقوياء الجدد.

لقد ظل المعتصم وهو في عاصمته الجديدة سامراء على اتصال وثيق بتطورات الوضع، وبعد الانتصار على البذ وهزيمة بابك واعتقاله، وتحرير السجناء الذين طال احتجازهم في قلاعه، قفل الأفشين راجعاً إلى سامراء وفي معيته المهمين من الأسرى أمثال بابك وشقيقه عبدالله وآخرين. وكان المعتصم متشوقاً للاحتفاء بذلك الانتصار، لذا نثر الهدايا على قائده المظفر الأفشين، وأغدق العطايا على قواته. فعلى مشارف سامراء كان هرون الواثق بن المعتصم وولي عهده مع آخرين من أسرة الخليفة في انتظار الأفشين[٣]، وفي سامراء كان المسرح يعد لمحاكمة بابك الشهيرة.

(١) الطبري: ص ١٢٢٠.
(٢) الطبري: ص ١٢٢٥؛ Bar Hebreaus, I p. 136 ؛ E.M., p50
(٣) الطبري: ص ١٢٢٩.

لقد عرض بابك محمولاً على ظهر فيل في طابور عرض اخترق شوارع سامراء[١]، ثم حوكم وقتل في مشهد مثير في يوم من أيام صفر عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٨م وصلب إلى عمود ليصبح مكان صلبه معلماً من معالم المدينة الجديدة - عُرف من وقتها بخشبة بابك - وأرسل رأس بابك ليعرض في خراسان[٢]. بالغ المعتصم في تكريم الأفشين فتوجه بتاج ومنحه عقدين من الجوهر بالإضافة إلى عشرة ملايين درهم، ونفح رجاله عشرة ملايين درهم أيضاً، وعينه والياً على السند بالإضافة إلى ولايته على أرمينيا وأذربيجان، وطلب من الشعراء إطراء الأفشين ووعدهم بالجوائز السخية[٣].

وهكذا أخمدت ثورة بابك، لكن طائفة الخرمية بقيت دون أن تسحق نهائياً؛ فقد لجأ بعضهم إلى الأمبراطورية البيزنطية، وقد تم التعرف على بعضهم وهم يحاربون إلى جانب الأمبراطور البيزنطي إبان حملاته ضد المعتصم. وبعض المصادر تشير إلى أن بابك نفسه قد وعد باعتناق المسيحية وحَمْل أتباعه على اعتناقها حينما كان يسعى لكسب دعم لموقفه خلال أيامه الأخيرة[٤]. أما بعض أتباع بابك ممن بقوا بعده فإن المآخذ التي

---

(١) الطبري: ص ١٢٣٠.

(٢) الطبري: المرجع نفسه، أبو تمام: المنتقيات، ص ٨٨؛ التنوخي: نشوار: ج ١، ص ٧٥؛ المحبر، ص ٤٨٩. صلب عبدالله أخو بابك ببغداد وبعث رأسه لخراسان.

(٣) الطبري: ص١٢٣٣؛ الدينوري: الأخبار، ص ٤٠٠ .

(٤) Vasiliev, I, p. 137; Rekaya, n. 3, pp. 47-9; also Rekaya, Le Hurram-din; E.I.2,Babak.

دعتهم إلى نصرته لم تكن قد أزيلت، وإن بدا واضحاً أن الدولة قد شددت من قبضتها على تلك النواحي بعد هزيمة بابك، واتخذت العديد من الإجراءات لتقوية النقاط الحدودية في المنطقة. لكن روح الثورة ما فتئت تظهر بين الآونة والأخرى. وبعد فترة وجيزة وفي مكان قريب من نشوب ثورة بابك كان نشوب ثورة مازيار، وقد قيل إنه كان حليفاً لبابك[1].

ـ ٢ ـ

ثورة الزط

مثلها مثل ثورة بابك، فإن ثورة الزط بدأت في عهد المأمون، وأفادت من انشغال المأمون في الشمال. ومثلهم مثل بابك استفاد الزط من طبيعة أرض المستنقعات والنهيرات المتدفقة في منطقة البصرة. وإذا كانت ثورة بابك واحدة من سلسلة ثورات، فقد كانت ثورة الزط كذلك. . مقدمة لثورة الزنج وآخرين[2]. وعلى كل فقد كانت المشكلة هنا مشكلة فقر، وهي مشكلة اقتصادية عبرت عن نفسها بداية في شكل عصابات نهب كانت تسعى للحصول على ضروريات الحياة. وفي مظهرها هذا فقد كانت تشبه الكثير من أعمال أعراب البدو الذين كانوا يناوشون القوافل التجارية ويغيرون على المدن، أو أنها كانت تشبه حوادث السلب والسرقة التي عانت منها بغداد خلال فترة الاضطراب الذي ساد المدينة وقت حصارها وقتل الأمين. وفي

(١) أنظر: القسم الخامس من هذا الكتاب.

(٢) CF. E.I. Zanj; Noeldeke: Sketches.

كلتا الثورتين - ثورة الزط وثورة الزنج من بعدها - كان لعناصر أعراب البدو دورها الهام فيهما.

الزط يرجعون إلى أصول هندية إذ انحدروا أساساً من منطقة السند. وقد جلبهم الحجاج بن يوسف الوالي الأموي الشهير إلى كسكر أملاً في إعمار الريف وتعويض النقص في الأيدي العاملة الناتج عن هرب الزراع إلى المدن[١]. كان الزط من رعاة الجاموس، والمسعودي ينسب إليهم إدخال هذا الحيوان إلى سوريا، سرعان ما تكاثرت أعدادهم واجتذبوا آخرين، وشيئاً فشيئاً انتشروا في منطقة البطائح.

بيد أن الزط الذين هددوا طرق التجارة في عهدي المأمون والمعتصم لم يكونوا وحدهم، فوقتها كانوا قد اختلطوا بأناس من أعراق مختلفة، ولكن من وضع إجتماعي مماثل[٢]. ذكر من بينهم بعض الأرقاء من موالي باهلة، وحتى بعض العرب الأحرار. وهؤلاء العرب وفق ما ذكره البلاذزي هم الذين شجعوهم على النهب وتحدي السلطة، إذ إنهم قبل ذلك كانوا اعتادوا على تسول أشياء تافهة، أو كانوا يتحينون غفلة وإهمال بحارة السفن فيسرقون من السفن خفية.

لقد استثمر الزط ميزة أرضهم ذات المستنقعات التي كانت تسهل عليهم عمليات الكر والفر، واستغلوا معرفتهم باستعمال

---

(١) البلاذري: الفتوح، ج ٤، ص ٥٢٥؛ المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٥.

(٢) إبن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٢٥٧؛ Pellat: **Le Milieu Basrien**, pp. 37-40; S.V. Zutt, Luli and Nuri.

القوارب الصغيرة ليهاجموا السفن التجارية التي كانت تفتقر إلى الحراسة الجيدة. وهكذا عدلوا عن التسول إلى السرقة، وعدلوا عن السرقة إلى قطع الطريق، وطوروا عمليات قطع الطريق إلى التعرض لخطوط الإمدادات بين البصرة وبغداد. وبهذا تحدوا الولاة علانية[1]. وجاءت قمة نشاطهم في الوقت الذي تولى فيه المعتصم الخلافة حيث أنه كان وقتها مشغولاً بالتعامل مع ثورة بابك، ولكن قطع خط إمداد بغداد كان حادثاً يتطلب إجراءً عاجلاً[2]. وعليه فقد خطط لحملة قادها عجيف بن عنبسة وهو قائد محارب قديم من قواد المأمون، كما كان أحد مدبري المحاولة الفاشلة لتنصيب العباس بن المأمون خليفة لوالده. فهل كان المعتصم بتولية عجيف تلك الحملة يريد أن يبقي عليه مشغولاً ولكن ليس بعيداً عن قبضته؟ إن المعتصم لم يبد في ذلك الوقت أي ميل للتخلص من القائد المخضرم بل بذل قصارى جهده ليمكنه من إكمال مهمته ضد الزط بنجاح[3]. وواقع الأمر أنه في حرب الزط قبل حرب بابك التي قادها الأفشين أن تبينت استراتيجية المعتصم في التخطيط لحرب متصلة لا حملة سريعة قصيرة الأمد، وما تقتضيه مثل تلك الحرب من ضمان استمرار الإمدادات والاتصالات المباشرة بين القائد الأعلى الخليفة المعتصم في عاصمته سامراء وقائده في ميدان

(١) الطبري: ص ١١٦٧ يذكر أن الزط كان يقودهم محمد بن عثمان يساعده آخر في الجانب العسكري يدعى سملاق ؛ إبن الاثير: الكامل، ج ٦، ص ٣١٣؛ ابن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٢٥٧ ـ يسميانه سماق.

(٢) البلاذري: الفتوح، ج، ٤ ص ٥٢٦.

(٣) الطبري: ص ١١٦٧ يذكر أن المعتصم كان قد بعث بجيش بقيادة أحمد ابن سعيد الباهلي هزمه الزط؛ اليعقوبي: تاريخ، ج ٣، ص ١٩٨.

المعركة وبين المسالح المختلفة مع الاعتماد على الخيول في الإمدادات وتحريك الجند. وهنا أيضاً في حرب الزط قبل حرب بابك نجد سياسة الاحتواء وقفل الدروب والمسارب للانسحاب أو الهروب. وفي هذا يتضح الفرق بين حملات المأمون الفاشلة وحروب المعتصم المنتصرة.

انتقل عجيف إلى واسط وأقام مركز قيادته في قرية مجاورة لها. ومنها بدأ في ردم كل مخارج النهيرات المختلفة التي كان يستعملها الزط في هجماتهم وانسحابهم. وكانت هذه المقدمة لاحتواء الزط للهجوم عليهم من بعد، وهذا ما حدث بعد ذلك. ويبدو أن الأمر كان سهلاً كما تشير المصادر العربية، وإن كان أبو الفرج العبري يخالف ذلك ويدّعي بأن رجال عجيف لم يكونوا أكفياء للتعامل مع الزط الذين تفوقوا عليهم في حرب الزوارق الصغيرة، مما اضطر عجيف لاستخدام بعض الأسرى من المصريين الذين كانوا يحسنون الحرب في المياه، وهم الذين هزموا الزط كما يدعي أبو الفرج العبري. وعلى كلٍ فروايته لا تجد من يعضدها(١).

استمرت حملة عجيف لحوالى تسعة أشهر وانتهت باستسلام الزط الذين لم يكونوا على قوة وافتقدوا التنظيم. لذلك اختاروا الاستسلام بضمانة سلامة أنفسهم وممتلكاتهم(٢)، وهو ما قبل به

(١) Bar- Hebreaus, I p. 133.

(٢) الطبري: ص ١١٦٨؛ اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ١٩٨؛ إبن كثير: البداية، ص ٢٨٢.

عجيف. بلغ تعداد الزط سبعاً وعشرين ألف نسمة كما يروي الطبري، وتعداد محاربيهم اثني عشر ألفاً. ونقلوا بحراً إلى أطراف بغداد ثم أُدخلوا المدينة في قواربهم الصغيرة، واصطفوا في أزيائهم متعددة الألوان، وكانوا يصوتون بأبواقهم، ووقف المعتصم على ظهر سفينته يراقب الاستعراض، واصطف أهل بغداد على شاطئ النهر لمشاهدة العرض، ومن هناك تم إبعادهم إلى الحدود مع الدولة البيزنطية(١).

أصبح من العسير التعرف على مصير الزط بعد إجلائهم عن ديارهم، فما تقرره المراجع عنهم يخالف بعضه بعضاً. فاليعقوبي يورد أنهم استقروا في خانقين(٢). والطبري يروي أنهم تعرضوا لهجمات خطرة من البيزنطيين حينما أبعدوا إلى الحدود الشامية ـ البيزنطية، وأن تلك الهجمات أدت إلى استئصالهم تماماً(٣). أما المسعودي الذي كان في دمشق في حوالى ٣٣٤ هـ / ٩٤٥م فيروي أنه في زمانه وجد بعض الزط على الحدود البيزنطية(٤). وإبن روستة الذي كتب حوالى عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣م تحدث عن وجود لبعض الزط في منطقة البطائح قريباً من البصرة حتى تاريخ كتابته، مما يعني أن إبعادهم لم يكن إبعاداً كاملاً(٥).

---

(١) الطبري: ص ١١٦٨، Bar Hebreaus says that they were imprisoned in Baghdad and perished there; I p. 133.

(٢) اليعقوبي: مرجع سابق.

(٣) الطبري: ص ١١٦٩.

(٤) المسعودي: التنبيه، ص ٣٥٥ ومن قبله البلاذري يذكر في: الفتوح، ج ٤، ص ٥٢٦ أن الزط أسكن بعضهم في خانقين وبعضهم في جلالاء بطريق خراسان.

(٥) إبن رستة: العلاتق، ص ٩٥.

أما الخليفة المعتصم وقد تخلص نهائياً من مضايقات الزط فقد صار في مقدوره أن يحول كل اهتمامه لحرب بابك كما وصف من قبل. ولنا أن نلاحظ هنا أن المعتصم وإن كان قد كافأ الجنود الذين اشتركوا في الحملة ضد الزط، كما كافأ قائدهم عجيف، فإن ذلك لم يكن بحال من الأحوال مماثلاً لما كوفئ به الأفشين ورجاله فيما بعد. كانت ثورة بابك أخطر بكثير من ثورة الزط. ومع ذلك فعندما شاهد عجيف ورجاله الجوائز والخلع تغدق على الأفشين ورجاله زاد حقدهم على الخليفة الذي سعوا ليحولوا دون توليه الخلافة من قبل، والذي سعوا فيما بعد للتخلص منه.

- ٣ -

فتح عمورية

بعد أن احتفل المعتصم بانتصاره على بابك، وجد نفسه محاطاً باحتمال الدخول في حملة ضخمة مرة أخرى. لقد غزا الامبراطور البيزنطي ثيوفيلوس حدود الخلافة في الشام والجزيرة المجاورة له فنهب وسلب وأحرق، وقتل، ونقل معه العديد من الأسرى رجالاً ونساء[1]. وقع الهجوم البيزنطي قبل شهور قليلة من سقوط بابك، مما كان يعني أن لذلك الهجوم علاقة وطيدة بثورة بابك، والطبري يحكي أن بابك عندما حاصره الأفشين

(١) الطبري: مرجع سابق ؛ E.M., p581234؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٣٣-١٣٤؛ إبن كثير: البداية، ص ٢٨٥ Bar Hebreaus, I p. 135-6; Vasiliev, I., pp. 139-41.

كتب إلى الإمبراطور البيزنطي يخطره بأن المعتصم «ملك العرب» أصبح فريسة سهلة له إذ إنه بعث بكل رجاله لقتاله بما فيهم حائك ملابسه وطباخه[١]. ويروي الطبري أن بابك قصد بتحريض الأمبراطور ضد المعتصم أن يخفف من الضغط العسكري الواقع عليه من الأفشين بفتح جبهة جديدة للقتال. ومهما يكن من أمر الرسالة، وجدت أصلاً أو لم توجد، أو أن محتوياتها كانت طبقاً لما رواه الطبري أو لم تكن، فإنه من المؤكد أن بابك والأمبراطور البيزنطي وإن لم يكونا حليفين فقد كان المعتصم عدواً مشتركاً لكليهما[٢]. وكان الأمبراطور البيزنطي على علم تام بما يجري في بلاد خصمه الخليفة العباسي، وكانت بلاده تشكل ملاذاً طبيعياً لأعداء الخلافة كما كانت بلاد الخلافة ملاذاً لخصوم الأمبراطور. إن ثورة مثل ثورة بابك كانت تراقب باهتمام جاد في الدوائر البيزنطية كما راقبوا من قبل الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون[٣]. وثورة بابك وقعت في وقت كانت الأمبراطورية تواجه عدة مشاكل في الغرب بسبب تقدم المسلمين في الأندلس، وفي شمال أفريقيا صوب صقلية وجزيرة كريت[٤]. يضاف إلى ذلك سلسلة الحملات العسكرية التي وجهها ضدها المأمون، والتي تزامنت مع إعداد

(١) إبن كثير: البداية، ص ٢٨٥ ـ خيّاطه قصد به جعفر بن دينار الخياط، وطباخه قصد به إيتاخ وكان طباخاً.

(٢) Vasiliev, I., pp. 137. Rekaya argues that there is no evidence of any collusion between the two. See n. 3 above.

(٣) B. Lewis, An Arabic Account, pp. 383-6.

(٤) Vasiliev, I., pp. 126-7.

جيش قوي تحت المأمون ومن بعده المعتصم تنفيذاً لسياسة المأمون، التي هدفت إلى إحياء فريضة الجهاد[١].

ثورتا بابك والزط شغلتا المعتصم في أذربيجان والعراق، ووجد الأمبراطور في ثورة بابك سبباً ما يمكن من إضعاف الخليفة في منطقة أرمينيا المجاورة له مع احتمال نشر المسيحية وتغلغلها في ذلك الاتجاه[٢]. والذي كان مؤكداً هو أن بابك وزمرته كانوا يأملون في دعم الأمبراطور البيزنطي لهم إذ إن مجموعة من أنصار بابك ومن «المحمرة» شاركوا إلى جانب الأمبراطور في هجومه على زبطرة[٣].

كانت تلك طبيعة ونمط الأحداث التي جرت وظلت تجري على الحدود الإسلامية البيزنطية إلى أن انتهت بالنصر النهائي الذي حققه السلاجقة ومن بعدهم العثمانيون على بيزنطة. ومع أن الخلافة والأمبراطورية البيزنطية قد مضى على تجاورهما ما زاد على قرنين من الزمان وقت تولي المعتصم الخلافة، إلاّ أنهما ظلتا تحافظان على الوضع القائم لأسباب عملية. كان تجاورهما على الدوام تجاور مسلحاً وهجومياً. ظهر ذلك في

(١) الطبري: السنين ٢٠٠-٢١٨ هـ .A.H. And Vasiliev, I., pp. 22-123

(٢) Vasiliev, I., pp. 137. See Rekaya no. 3.

(٣) الطبري: ص١٢٣٥؛ E.M., p59؛ المسعودي: التنبيه، ص ١٦٩؛ إبن كثير: البداية، ص ٢٨٥؛ Vasiliev, I., pp. 138; M. Canard; Quelques a-cote, p. 108. كان لون العباسيين السواد والعلويين الخضرة. وكان الثوار يرفعون الرايات الحمراء والبيضاء أيضاً. راجع: فاروق عمر: عباسيات.

مواجهات حدودية مستمرة، وثورات وحملات متبادلة. كانت كل ثورة تنشب في أرض طرف ما تجد دعماً مباشراً أو غير مباشر من الطرف الآخر، وظل كلاهما معنياً بما يحدث في أرض عدوه الأول من أحداث. وعلى كل فلم تحدث اجتياحات أو تغيرات كبيرة على الحدود بين الدولتين. وظل الأمبراطور البيزنطي يقوم بتنظيم حدوده الشرقية في شكل قرى محصنة، وتبعته الخلافة في ذلك فأقامت العواصم والثغور وهي النقاط الحدودية الحصينة المسلحة. وقد أحسن تنظيمها في عهد هرون الرشيد الذي تم في عهده توقيع آخر اتفاقيات هدنة بين المسلمين والبيزنطيين[(١)].

وفي عهد المأمون بدأت من جديد دورة من دورات سوء العلاقات وتوترها مع البيزنطيين، وكان المأمون نفسه هو الذي نقض ترتيبات المهادنة التي وضعها والده الرشيد إذ ساعد انتفاضة توماس السلافي ضد ميخائيل الثاني (٢٠٤-٢١٤ هـ/ ٨٢٠-٨٢٩م) والتي وقعت في آسيا الصغرى في عامي (٢٠٧-٢٠٨ هـ/ ٨٢٢-٨٢٣م)[(٢)]. وقد هدف المأمون من وراء مساعدة توماس السلافي أن يرى بيزنطياً من الموالين له امبراطوراً. لكن الانتفاضة فشلت في عام ٨٢٣م ومعها خابت آمال المأمون. ولم توقع أية اتفاقية سلام بين الخلافة والأمبراطور، إذ إن المأمون رفض عرضاً تقدم به الأمبراطور. وفي عام ٢٠٩-٢١٠ هـ/

(١) البلاذري: الفتوح، ج٢، ص ١٧٦؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٢٣٢-٢٤٩؛ الخوارزمي: مفاتيح، ص ١٤٤؛ Vasiliev, I., pp. 94-6.

(٢) Vasiliev, I., pp. 22-45; idem, **Byzantine Empire**, I, pp. 874-6.

٨٢٥م هاجم المسلمون بيزنطية على الحدود السورية الأرمنية، لكن ذلك الهجوم أوقف بسبب وفاة قادته. وقد شهد العام نفسه كلاً من الخليفة المأمون والأمبراطور ميخائيل الثاني ينشغلان بهجوم يأتي من غرب بلاد كل منهما[١]، إذ نزل بعض الأندلسيين في مصر ولكن المأمون تمكن من إجلائهم في العام نفسه بفضل حنكة قائده عبدالله بن طاهر[٢]. أما الأمبراطور البيزنطي فقد خسر جزيرة كريت لصالح الأندلسيين كما فقد صقلية في وقوعها بيد الأغالبة.

أدت هذه المشاكل بالإضافة إلى بعض المتاعب الداخلية إلى تخفيف حدة العداء بين الدولتين بعض الوقت. وخلال عام ٢١٣-٢١٤هـ/ ٨٢٩م تعرضت سواحل آسيا الصغرى إلى هجمات المسلمين. وفي العام نفسه تمكن الأسطول المسلم من تدمير الأسطول البيزنطي في شرقي البحر الأبيض المتوسط. وتبعت ذلك حملة عسكرية في عام ٢١٤-٢١٥هـ/ ٨٠٣ م قادها المأمون بنفسه، ولكن المأمون لم يستطع مواصلة انتصاراته إذ كان عليه أن يتعامل مع ثورة نشبت في مصر. وفي الوقت نفسه فإن ثورة بابك أخذت تتصاعد وتيرتها. واهتبل الامبراطور ثيوفيلوس (٢١٤-٢٢٨هـ/ ٨٢٩-٨٤٢م) الفرصة ليقود هجوماً على طرسوس والمصيصة، وقد كان هجوماً إنتقامياً ناجحاً جرى الاحتفال به في الأمبراطورية البيزنطية عام ٢١٥-٢١٦هـ / ٨٣١م. وسارع

(١) Vasiliev, I., pp. 49-52. ؛ الكندي: القضاة، ج ٢، ص ١٦٣-١٨٠.

(٢) الكندي: القضاة، ج ٢، ص ١٦٣ ـ ١٨٠.

المأمون بالرد بهجوم مضاد اضطر معه الأمبراطور البيزنطي إلى طلب وقف الأعمال العدائية بين الجانبين، ولكن المأمون رفض عرضه ولم يكن ليقبل إلاّ بالاستسلام الكامل. ثم قاد المأمون هجومين آخرين ناجحين خلال أعوام ٢١٦-٢١٧ هـ / ٨٣٢م، و ٢١٧-٢١٨ هـ/ ٨٣٣م، ولكن هذين الهجومين مثل غيرهما لم يؤديا إلى سلم دائم، كما لم يؤديا إلى انتصار حاسم أو إلى تغيير في الحدود.

كانت تلك خلفية العلاقات العباسية البيزنطية حينما تولى المعتصم الخلافة. ومع سلسلة الهزائم والهجوم على صقلية في الفترة من ٢١٧-٢٢٣ هـ/ ٨٣٣-٨٣٧م لم يكن للأمبراطور أي رغبة في الاستمرار في الأعمال العدائية ضد العباسيين. والمعتصم هو الآخر كان مشغولاً في الشرق بثورة بابك، وفي العراق بثورة الزط[١]. لكن هجوم الأمبراطور البيزنطي على زبطرة كان سبباً في قيام سلسلة من الحملات الجديدة.

كانت حملات المعتصم ضد الدولة البيزنطية ضمن منظومة من الهجوم والهجوم المضاد المعتاد بين العباسيين والبيزنطيين، إلا أن حملات المعتصم جاءت مختلفة في درجتها وفي نوعيتها، إذ إنه حينما تلقى أنباء الهجوم البيزنطي وما تعرض له رعاياه من المآسي أمر فوراً بإصدار إنذار بالتحرك ـ كما يروي

(١) البلاذري: الفتوح، ج ٣، ص ٢٩٦؛ إبن الفقيه: البلدان، ص ٣٩٦. وهما يريان أن سياسات الولاة مع الذميين كانت تتصف باللين عند انشغال الخلفاء بالثورات الداخلية .

الطبري ـ وسارع هو إلى امتطاء صهوة جواده متدثراً بمعدات القتال. وما كان له بالطبع أن يتوجه مباشرة إلى المعركة على تلك الصورة، لذلك عقد اجتماعاً في «دار العامة» دعا إليه أثنين من قضاة بغداد وثلاثمائة وثمانية وعشرين شخصاً من أعيانها أراد إشهادهم على وصيته إن هو مات في المعركة[1]، ثم تحرك بعد ذلك وعسكر على الجانب الغربي من نهر الفرات.

يورد الطبري:

«فذكر أنه لما انتهى إليه الخبر بذلك صاح في قصره النفير، ثم ركب دابته وسمّط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقيبة، فلم يستقم له أن يخرج إلاّ بعد التعبئة فجلس فيما ذكر في دار العامة وقد أحضر من دار السلام قاضييها عبد الرحمن بن اسحق وشعيب بن سهل ومعهما ثلثمائة وثمانية وعشرين رجلاً من أهل العدالة فأشهدهم على ما وقف من الضياع فجعل ثلثاً لولده وثلثاً لمواليه ثم عسكر بغربي دجلة[2]..».

«.. وفي هذه السنة شخص المعتصم غازياً إلى بلاد الروم، وقيل كان شخوصه إليها من سامراء سنة ٢٢٤ هـ بعد قتله بابك، فذكر أنه تجهز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعُدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط، وجعل على مقدمته أشناس يتلوه محمد بن

(١) الطبري: ص ١٢٣٥.
(٢) المصدر نفسه.

عبدالله الخياط، وعلى ميمنته إيتاح وعلى القنب عجيف بن عنبسة . .»[1].

هكذا بدأت حملة المعتصم المشهورة ضد البيزنطيين في الثالث من جمادي الأولى عام ٢٢٣ هـ الموافق للأول من أبريل عام ٨٣٨م[1]، وكان قد وجه قبلها عجيف بن عنبسة لقيادة حملة إنقاذ إلى أهل زبطرة لتهدئة سكانها ومواجهة أي هجوم يستجد. وتقدم المعتصم بكل ما تمكن من حشده من الجند وفي معيته كميات ضخمة من العتاد الحربي والإمدادات. ووفقاً لرواية الطبري فإنه ما من خليفة قد سبق المعتصم إلى حشد مثل تلك المعدات[2].

ووفقاً للتنظيم العسكري الإسلامي التقليدي بدأ المعتصم مسيرته ولجيشه مقدمة على رأسها أشناس، وله ميمنة على رأسها إيتاخ، وعلى الميسرة جعفر بن دينار الخياط. أما عجيف فقد سبقهم على مسافة قريبة. وكان على الأفشين أن يتقدم من جانب آخر. وهكذا كان الجيش المهاجم مكوناً من ثلاث مجموعات رئيسة. واحدة منها بقيادة المعتصم وهو القائد العام للهجوم، ومجموعة كانت تحت قيادة الأفشين، والأخيرة تحت قيادة عجيف بن عنبسة. وكان المعتصم قبل بداية الهجوم قد استفسر

(١) الطبري: ص ١٢٣٦؛ اليعقوبي: تاريخ، ج ٣، ص ٢٠١؛ إبن قتيبة: المعارف، ص ٢٢٣؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٣٥؛ التنبيه، ص ١٦٩. هناك اتفاق في شهر وعام الغزو عند ذكره.

(٢) الطبري: ص١٢٣٦؛ إبن كثير: البداية، ص ٢٨٦.

عن أقوى المدن البيزنطية فجاءته الإجابة بأن مدينة عمورية كانت أقوى مدنهم تحصيناً، وكانت أهميتها تفوق أهمية القسطنطينية نفسها بالنسبة للبيزنطيين(١). ويجدر بنا أن نشير إلى أن العائلة البيزنطية الحاكمة كانت تنحدر من تلك المدينة(٢)، لذلك فقد آلى المعتصم على نفسه أن يثأر لرعاياه من تلك المدينة التي لم تكن تعرضت لغزو المسلمين من قبل.

كانت الخطة أن يتم غزو بيزنطية من حدودها في الجزيرة والشام. وحددت مع بدء السير نقاط الالتقاء مع الاحتفاظ بخطوط اتصالات مستمرة بالقائد الأعلى المعتصم ومع تقارير وتفاصيل عن تنفيذ الاستراتيجية. ومن ثم تحرك الجيش مع توقف متكرر إلى أن وصل إلى أنقره حيث سقطت بدون مقاومة تذكر، وقد سبق ذلك التقاء الجناح الذي يقوده الأفشين بالقوات البيزنطية التي يقودها الأمبراطور نفسه، وبعد نصر مبدئي حققه البيزنطيون على مشاة الأفشين تمكن خيالة الأفشين من هزيمة وتشتيت كامل قوات الأمبراطور(٣). ويُروى أن الأفشين قد قصد الابقاء على حياة الأمبراطور قائلاً إنه ملك، والملوك يبقون على

---

(١) الطبري: ص ١٢٣٦ ؛ اليعقوبي: تاريخ، ج ٣، ص ٢٠١؛ الدينوري: الأخبار، ص ٣٩٧. يصفها اليعقوبي بأنها كانت من أحصن مدن الروم بينما يقول عنها الدينوري إنها قسطنطينية صغيرة.

(٢) Vasiliev, I., p. 143.

(٣) الطبري: ص ١٢٤٢؛ E.M., pp. 65-6 and 75؛ المسعودي: التنبيه، ص ١٦٩؛ المروج، ج ٧، ص ١٣٦ ؛ Vasiliev, I., pp. 154-6.

حياة الملوك أمثالهم[١]. لقد مكنت هذه المعركة الحاسمة القريبة من أرمينية القوات المسلمة من مواصلة تقدمها، ولم يكن الأمبراطور في وضع يمكنه من حشد قواته المبعثرة، وبالتالي لم يكن في وضع يمكنه من الدخول في معركة فاصلة مع المعتصم، في وقت كانت خطته هي أن يدافع عن عمورية المدينة الحصينة.

بعد سقوط أنقره وتجميع قواته بدأ المعتصم زحفه نحو هدفه، وتم توظيف تقسيم الجيوش بالصورة نفسها مرة أخرى، ولكن المعتصم صار في هذه المرة في الوسط، وأشناس على الميسرة، والأفشين على الميمنة، وتركت لعجيف بن عنبسة مهمة أصغر. لقد كانت المسافة بين أنقره وعمورية مسيرة سبعة أيام[٢] ووصل أشناس أولاً، وكان ذلك في السادس من رمضان ٢٢٣هـ الموافق لليوم الأول من أغسطس من عام ٨٣٨م. وتبعه المعتصم حيث وصل في اليوم الثاني مباشرة، ووصل الأفشين في اليوم الثالث. وبعد حصار طويل وهجوم متصل من المسلمين على أسوار المدينة مستخدمين في ذلك المنجنيق ونار الإغريق استطاع المسلمون فتح ثغرة في أحد الأسوار مستغلين ضعف إحدى نقاطه كانت لهم معرفة سابقة بها[٣]. وكانت تلك مقدمة لاستسلام المدينة التي أصبحت منعزلة مما جعلها فريسة سهلة

---

(١) المسعودي: مصدر سابق.

(٢) يبدو أن رواية الطبري غير دقيقة في خط سير الغزو. انظر: بيوري. CF. BURY: MUTASIMS MARCH

(٣) الطبري: ص ١٢٤٥؛ E.M., pp. 67-8 ;Vasiliev, I., p. 162.

لهجوم المعتصم الكبير. أما الأمبراطور الذي لم يكن يملك قوات كافية لمواجهة المعتصم، فقد قرر بوعي أن يبقى بعيداً عن المعركة[1].

- ٤ -

التآمر للخلاص من المعتصم

لكن انتصار المعتصم لم يكن انتصاراً نهائياً، فمثله مثل المأمون الذي حرم من نصر نهائي بسبب مرضه المفاجئ الذي عجل بوفاته، وهو مرض لم يترك له سوى وقت ضئيل ليسمي ولي عهده وليأمره بإيقاف الحملة، كذلك صار حال المعتصم الذي بدت مشاكله عاجلة وملحة حيث كشف النقاب عن مخطط كان يهدف لتصفية المعتصم بعد وقت قصير من سقوط عمورية.

إن العلاقات السابقة واللاحقة بين الدولتين المتجاورتين كانت تشير إلى أنه حتى لو لم يكن المعتصم قد اضطر للتخلي عن حملته العسكرية، فإنه ما من تسوية نهائية كانت ستتم بينهما. وعلى أحسن الفروض فربما كان من الممكن الوصول إلى إجراءات سلام تقوم على دفع جزية، وتبادل الأسرى وهي إجراءات جرت العادة على أن يقترحها أي جانب يرى أن في تحقيقها بعض الكسب له. ولم يكن هناك ما يشير إلى أن الوضع سيكون غير ذلك.

(١) هناك روايات تقول إن أمبراطور الروم بعث إلى ملوك مسيحيي الغرب لنصرته Vasiliev, I., p. 177.

إن النغمة السائدة للحملة عند المعتصم وعند الأمبراطور البيزنطي هي أنه كانت حملة ثأر تهدف إلى تسبيب أكبر قدر ممكن من الدمار للحصون والقرى والمدن ولسكانها[١]. وكان يصاحب ذلك إخلاء ساحة المسجونين أو أسرهم إلى جانب أعمال السلب والنهب التي كانت تحدث عادة. وفعل المعتصم كل هذا لكن ما من إجراءات سلام قد تمت. كانت سياسة المعتصم منذ أن دخل أراضي الدولة البيزنطية أن يحرق ويحطم ويخرب كل ما وجده أمامه، وهذا هو عين ما سبقه إليه الأمبراطور ثيوفيلوس، وهو كما يروي أبو الفرج العبري أحرق ونهب وحطم وسبى وقتل العرب والمسيحيين واليهود على حد سواء[٢]. وبهذا الفهم بلغت الحملة البيزنطية نهايتها المحتومة.

ومن اللافت للنظر أنه ولو كان هناك إحياء لروح الجهاد فلم تكن هناك نية معلنة للاحتلال والتوسع. كانت حملة جنود محترفين، وعبرت عن التوجه العسكري للحكم، كما عبرت عما كان للخلافة من السلطان القائم على العسكر، وقد أماطت اللثام عن المخاطر التي كانت تهدد الخليفة من منافسيه من القادة العسكريين، وما كان هناك من خلافات عميقة بين جماعات العسكر المتنافسة. وإذا كان الأمر قد اقتصر على عجيف

---

(١) الإشارات إلى أن المعتصم (كما ذكر المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٣٦) كان ينوي فتح القسطنطينية بعد فتح عمورية ربما كانت زيادات متأخرة تعبر عن رغبة المسلمين الدائمة لإسقاط القسطنطينية، وربما لتضخيم دور المعتصم وشخصيته.

(٢) Bar Hebreaus, I p. 135.

والعباس والحرس القديم وحدهم لكان من الممكن الوصول إلى حلول. لكن الأمر كان على خلاف ذلك لأنه حتى بين صفوف المجموعة التركية الصغيرة التي كان المعتصم يحسن معاملتها كانت صدور بعضهم ممتلئة حقداً على بعض أبناء جلدتهم ممن كانوا أحسن حظاً منهم، لذلك تآمر بعضهم مع العباس وعجيف ضد ولي نعمتهم المعتصم. والطبري يروي أن المعتصم لم يكن يصدق تورط كل من وردت أسماؤهم في المؤامرة لكثرة عددهم[١].

وعلى نطاق آخر، فإن الحملة قد دشنت عصر البطّال الأسطوري الذي صارت شخصيته وإنجازاته موضوعاً لأساطير تدور حول حروب الحدود ضد الأمبراطورية البيزنطية[٢]. وفي وصف الطبري لبعض تلك الأحداث خلال تلك الحملة ما يمكن اعتباره جزءاً من ذلك الأدب. وهكذا يقال إن المعتصم قد انتفض لنجدة سيدة عربية أسرت خلال الاجتياح البيزنطي فصرخت مستنجدة قائلة «وا معتصماه!!»[٣]. وتمضي القصة التي تروى لتقول إن المعتصم قد تزيا بزيه العسكري وأوشك أن يمضي بمفرده للقتال استجابة لتلك الاستغاثة، لولا أنه اضطر لبقى ريثما يعد للحملة عدتها. لقد فتش المعتصم عن النقطة الأقوى وزحف بأعظم الجيوش وبأقصى المعدات، يضاف إلى

(١) الطبري: ص ١٢٦٣.

(٢) H. Gregire: Les Armenicns, pp. 655-7; Marius Canard: **Les Expeditions**, pp. 112-21; idem, **Les Principaux**, pp. 171-2 ; cf. E.I., (2) Dhu l-Himma.

(٣) E.M., p. 59, n. 293 .

ذلك أن المنافسة الحادة بين مجموعات الجيش المختلفة كانت حافزاً لكل وحدة أن تسعى للتفوق على الوحدات الأخرى[1]. وعن أدب هذه الفترة كان الشعر معبراً ممتازاً، فالشاعر أبو تمام وهو معاصر للمعتصم خلّف عدة قصائد عبرت عن هذه الفترة أصدق تعبير[2].

إن المؤامرة التي هدفت إلى الإطاحة بالمعتصم ليحل محله العباس بن المأمون تعيد إلى الأذهان تلك المجموعة التي عارضت تولي المعتصم للخلافة، ولكن بينما كان العباس عاملاً حاسماً في إسكات صوت تلك المعارضة آنذاك، نجده الآن وقد ضمته المعارضة إليها. والجديد أيضاً هو أن تلك المعارضة ازدادت أعدادها. إن هدفهم لم يتغير ولكنهم وجدوا المبررات في إفشاء روح التذمر والنقمة والغيرة، فحشدت المعارضة حولها الكثيرين وانتظرت الفرصة المناسبة لتضرب ضربتها .ومع أن المجموعة فشلت في البداية، إلا أنها نجحت في أن تجعل المعتصم يتخوف من العباس وأعوانه في الجيش، بل جعلته يفقد الثقة فيهم تماماً. فاليعقوبي يروي أن المعتصم قد احتفظ برجال المأمون في الإدارة لفترة ثلاثة أشهر فقط ثم أبعدهم.

يقول اليعقوبي: «وأقر عمال المأمون على أعمالهم ثلاثة أشهر ثم استبدل بهم»[3].

أغفلت أخبار العباس بن المأمون بعد اعتلاء المعتصم عرش

---

(١) هناك أيضاً ما ارتبط بالرقم ثمانية لأنه الخليفة العباسي الثامن.
(٢) انظر نجيب البهبيتي: أبو تمام حياته وحياة شعره.
(٣) اليعقوبي: ج ٣، ص ١٩٧.

الخلافة، ولكنها عادت إلى السطح عند اكتشاف المؤامرة ضد المعتصم، والحقيقة هي أن الواثق بن المعتصم وولي عهده بدأ يظهر وكأنه الخليفة الشرعي لوالده، ففي مرة ولي على بغداد حين رحل المعتصم إلى سامراء، كما أرسل لاستقبال الأفشين والترحيب به عند عودته الظافرة من حربه ضد بابك. أما العباس وإن كان أكبر سناً وأكثر خبرة كقائد عسكري، فإن ذكره لم يرد لا بين القادة العسكر ولا بين رجال الدولة.

وعجيف بن عنبسة أدى مهمته في حرب الزط بنجاح، لكن ذكره غاب حتى ظهر في الحملة ضد عمورية إذ قاد فرقة الإغاثة في الحملة ضد الدولة البيزنطية. ولكن نجمه خبا بظهور قادة عسكر جدد خلال تقدم الحملة. وحتى عند بناء سامراء لم يرد ذكر للعباس ولا لعجيف. وهكذا فإن المعتصم لم يظهر أي ميل لاسترضاء تلك المجموعة، ولكنهم على كل حال كانوا إلى جانبه خلال حملته ضد الدولة البيزنطية. وهنا نلاحظ أن عجيفاً كان قد أرسل في مجموعة من رجاله ليتقدم الزحف، ومن المؤكد أن مجموعته تلك كانت تتألف من أتباعه من بين الخراسانيين والأبناء وهم ركيزة المجموعة القديمة في القوات العباسية، ونتساءل هل كانت تلك محاولة للتخلص منهم نهائياً أو لإضعاف قوتهم؟ وهل كان إرسالهم لأخذ مواقعهم في مقدمة الحملة متقدمين على كل الآخرين هو مجرد تخوف من أن يكونوا موطن خطورة لو تركوا خلف الآخرين؟ إنه ما من إجابة مقنعة يمكن أن تقدمها المصادر المتاحة، لكن من المؤكد أن قوتهم ما كانت تساوي شيئاً إذا ما قورنت بقوة بقية الجيش،

وعليه فقد كانوا أكثر أماناً في معية الجيش. وإذا كان هناك شك في ولاء عجيف فإنه على كل حال لم يعهد إليه بقيادة رئيسة في الحملة، وما كانت يده تطلق ليصرف على أعوانه[1]. وعلى عكس موقفه تماماً كان موقف رجال قوات جند الحضرة (قوات الخليفة) رجال الأفشين الذين حازوا كل شيء. ومع ذلك كانت تلك الحملة هي التي جمعت بين كل الناقمين في زمان واحد ومكان واحد وهيأت لهم فرصة التخطيط لمؤامرتهم.

أخذت خيوط المخطط تتكشف بعد سقوط عمورية، ويبدو أن فكرة إزاحة المعتصم ليحل محله العباس والعودة من سامراء إلى بغداد راودت أذهان المتآمرين قبل فترة طويلة من بداية الحملة لفتح عمورية[2]. وهذا لا يعني أنهم قد أعدوا كل التفاصيل، ولكن يبدو أن الفكرة اختمرت في أذهانهم تماماً. إن رواية الطبري لأحداث المؤامرة تشير فقط إلى دوافع عجيف للتآمر، ولكنا نتساءل لماذا اتصل عجيف بالعباس ووبخه على تقاعسه عن السعي لخلافة والده المتوفى؟ وكيف أقنعه بالموافقة على مخطط لقتل عمه الخليفة لتؤول إليه السلطة إذا لم يكن هناك تفاهم مسبق على ذلك؟ لماذا لقي كلاهما التأييد الفوري من جزء كبير من الجيش جنداً وقادة على السواء، إن لم يكن ذلك بسبب النقمة التي كانا يعلمان أنها قد وجدت طريقها إلى

(١) الطبري: ص١٢٥٦.

(٢) الطبري: ص ١٢٥٧؛ التنوخي: الفرج، ص ٧٢، يذكر التنوخي أن ثمة جفوة قامت بين المعتصم والشاعر الحسين بن الضحاك الذي مدح العباس وتمنى له الخلافة.

نفوس الكثيرين من أفراد الجيش؟ إن فكرة العودة إلى بغداد - العاصمة المهجورة - لا لسامراء المدينة المعسكر لقوات المعتصم كانت تمثل مؤشراً بالغ الأهمية. كان المعتصم كما أشير من قبل قد استدعى قاضيين وبعض أعيان بغداد ليشهدوا على وصيته قبل زحفه على عمورية، وكان الخليفة الجديد سيعود إلى بغداد لو نجحت المؤامرة. وهكذا ظلت بغداد مركزاً سياسياً قوياً في الدولة العباسية، ومنافساً قوياً وبديلاً لسامراء.

من المهم أن نلاحظ أن الخطة الأصلية في المؤامرة كانت تقضي بقتل المعتصم في بداية الحملة، في وقت كان سيكون فيه أكثر تعرضاً للهجوم، وفي وقت كان سيسر الجنود بقتله إذ إن ذلك كان سيكفيهم القتال.

يورد الطبري:

«. . . أشار عجيف على العباس أن يثب على المعتصم في الدرب وهو في قلة من الناس وقد تقطعت عنه العساكر فيقتله ويرجع إلى بغداد، فكان الناس يفرحون لانصرافهم من الغزو، فأبى العباس وقال لا أفسد هذه الغزاة. . . .»[1].

وهذا الموقف يوضح طبيعة الصراع بين الدولة البيزنطية

---

(١) الطبري: ص ١٢٥٧ ؛ E.M., P. 77, translates (the troops would rejoice at their return from the expeditions) This should be (the troop - or better still the people (al-nas) - would be pleased to abandon the campaign). The scene took place at the bneginning of the campaign.

والعباسيين، حينما كانت الحملات العسكرية تعبر عن أوضاع داخلية أكثر منها أوضاع خارجية. إن ادعاء المسعودي بأن العباس اتصل بالأمبراطور البيزنطي عارضاً السلام لم تؤيده أي مصادر أخرى، ولكنه مع ذلك يبدو غير متناقض بالكلية مع ذلك الوضع الذي ساد[1]. وفي رواية الطبري يقول إن بعض الجنود الذين تعرضوا لتوبيخ من قبل القائد إيتاخ قالوا إنهم يفضلون الانحياز للبيزنطيين ولا يتعرضون لمثل تلك الإهانات الصادرة من إيتاخ[2].

يروي الطبري:

«.. فقال أشناس يا أولاد الزنى تمشون بين يدي، كان ينبغي أن تقاتلوا أمس حيث تقفون بين يدي أمير المؤمنين فتقولون إن الحرب اليوم أحسن منها أمس كأن أمس يقاتل غيركم، انصرفوا إلى مضاربكم، فلما انصرف عمرو الفرغاني وأحمد بن الخليل بن هشام، قال أحدهما للآخر أما ترى هذا العبد إبن الفاعلة يعني أشناس، ما صنع بنا اليوم، أليس الدخول إلى بلاد الروم أهون من هذا الذي سمعناه اليوم؟ فقال عمرو الفرغاني لأحمد بن الخليل: .. سيكفيك الله أمره عن قريب ... وقال إن العباس بن المأمون قد تم أمره وسنبايع له ظاهراً ونقتل المعتصم وأشناس وغيرهما عن قريب ...»[3].

(١) المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٣٦-١٣٧.
(٢) الطبري: ص ١٢٤٩.
(٣) المصدر نفسه.

وأهم من ذلك فيما يختص بهذه الحقبة الجديدة من تاريخ سامراء أن نشير إلى أنه منذ البداية كانت مثل هذه المحاولة لقتل الخليفة بوساطة جنود بنوا آمالهم لبلوغ أوضاع أفضل مع اعتلاء الخلافة منافس جديد من أفراد العائلة الحاكمة نفسها أمراً مفهوماً. إن إرث بغداد في هذا الاتجاه هو أن الخلفاء الجدد كانوا دائماً يطرحون وصايا سابقيهم جانباً ليختاروا خلفاءهم بمحض اختيارهم. وهنا ينبغي أن يقال إنَّ هذا بدأ به القدامى في الجيش، فهم الذين قتلوا الأمين، وهم من كان يخطط لقتل المعتصم، وهكذا فإن العناصر الجديدة من القادة الترك إنما كانوا يترسمون خطى من سبقهم من العسكر.

لقد رفض العباس نصيحة عجيف بأن تكون ضربته مع بداية الزحف، قائلاً: بأنه لا يمكن أن يفسد مثل ذلك الغزو ـ فتح عمورية ـ لكنه وافق على مضمون المؤامرة أملاً في تنفيذها بعد نهاية الحملة، وفي هذه الأثناء كان عملاء عجيف يتحركون لكسب التأييد والولاء للعباس، واستطاعوا أن يجتذبوا بعض رجال كانوا قريبي الصلة بقادة كان المعتصم يقربهم، بل إنهم نجحوا في استمالة بعض رجال كانوا من المقربين للمعتصم نفسه. والطبري يجعل من بين هؤلاء الأفشين وأشناس[1]. ورواية الطبري تشير بوضوح إلى أن الخطة الموضوعة كانت تقضي بالقضاء على المعتصم وعلى قادته المقربين.

(١) الطبري: ص ١٢٥٧ .

يقول الطبري:

«... وكان الحارث السمرقندي قرابة عبيد الله بن الوضاح، وكان العباس يأنس به وكان الحارث رجلاً أديباً له عقل ومداراة فصيره العباس رسوله وسفيره إلى القواد فكان يدور في العسكر حتى تألف له جماعة من القواد وبايعوه، وبايعه منهم خواص وسمى لكل رجل من قواد المعتصم رجلاً من ثقات أصحابه فمن بايعه وكله بذلك وقال إذا أمرنا بذلك فليثب كل رجل منكم على من ضمناه أن يقتله فضمنوا له بذلك فكان يقول للرجل ممن بايعه عليك يا فلان أن تقتل فلاناً فيقول نعم. فوكل من بايعه من خاصة المعتصم بالمعتصم، ومن خاصة الأفشين بالأفشين، ومن خاصة أشناس بأشناس ممن بايعه من الأتراك فضمنوا ذلك جميعاً...».

لقد كان من بين الذين تعهدوا بتنفيذ مؤامرة الاغتيال بعض من جنود المعتصم الجدد. وكان المخطط هو أن يكون منفذو القتل تُركاً إذا كان القائد تركياً، وأن يكونوا من الأشروسنة إذا كان القائد المستهدف أشروسنياً. قامت الخطة على أن تصدر إشارة معلومة يتم على إثرصدورها الهجوم واغتيال القائد المعني، وأن يتم اغتيال المعتصم بمن أوكل إليهم ذلك. حدثت اختلافات حول توقيت الهجوم إذ كانت خطة عجيف بن عنبسة هي الهجوم على المكان التي أودعت فيه الغنائم، وكان المأمول هو أن تلفت الجلبة التي تحدث انتباه المعتصم فيخرج مسرعاً إلى مكان الضجة، ومن ثم يكون هدفاً سهلاً لمن أوكل إليهم

أمر قتله. ووفقاً لما رواه الطبري فإن عجيفاً أصدر أوامره لبعض رجاله بنهب الغنائم قبل أن يناقش تفاصيل الخطة مع العباس، وبالتالي قبل أن يوافق العباس على الخطة، إذ إن العباس قد رفض الموافقة على الخطة كما عرضها عليه عجيف وكان يرى أن يتم الهجوم على المعتصم خلال رحلة العودة. ولما كان رجال عجيف على غير علم بما حدث من خلاف حول الخطة فقد سارعوا بتنفيذ دورهم المطلوب في الموعد المضروب، فهجموا على الغنائم المحروسة وثار الضجيج وكما هو متوقع سارع المعتصم إلى مكان الضجة على صهوة حصانه معرضاً نفسه للهجوم، ولكن أحداً لم يهاجمه لأن العباس لم يكن قد أصدر أمراً بذلك. وكانت تلك بداية النهاية للمؤامرة ونقطة البداية لاكتشاف التآمر بكل أبعاده، واتضح أن شخصاً يدعى عمرو الفرغاني ـ وقد كان من القادة المتآمرين ـ قد حذر قريباً له من خاصة حرس المعتصم من مؤامرة ستقع وطلب إليه أن يبقى بعيداً عن مكان الخطر[1].

ويبدو أن فشل المؤامرة دفع ذلك الحارس الشاب ليكشف للمعتصم كل ما يعرفه عن المؤامرة، وبذلك تمكن المعتصم من محاصرة المتآمرين واحداً إثر واحد.

وهكذا فشلت المؤامرة لفشل قادتها في تحقيق تنسيق خططهم، وبسبب تردد العباس. ولما كان المعتصم حريصاً على

(١) الطبري: ص ١٢٥٨.

الإلمام بكل تفاصيل المؤامرة ليحسن التعامل مع المتآمرين دعا العباس إلى جلسة شراب بعد أن طمأنه وأزال مخاوفه[1]، وأفصح عندها العباس بكل تفاصيل المؤامرة. هذا وقد حصل المعتصم على التفاصيل من مصادر أخرى، ومن ثم كانت مسارعة المعتصم بقتل قادة المؤامرة العباس وعجيف وعمرو الفرغاني وآخرين بطرق مختلفة بمعاونة الأتراك. وسمي العباس باللعين وجرى لعنه على منابر المساجد. وجمع أخوته من ولد سندس وسلموا للقائد إيتاخ الذي سجنهم في داره حتى ماتوا[2].

لقد أفسدت الأحداث اللاحقة العودة الظافرة إلى سامراء بعد الحملة المنتصرة ضد عمورية[3]، ولكن الفتح الظافر نفسه لم يؤد إلى استقرار داخلي في الخلافة، كما لم يدفع الساعين إلى الثورة لوقف سعيهم، وسرعان ما تحتم على المعتصم أن يواجه ثورة عظيمة في الشرق.

وعلى الرغم مما أفسد هذا الفتح في آخره من التآمر على الخليفة، وما تبع ذلك من رفع الحصار والعودة، وما تزامن مع ذلك من محاكمات وقتل، فإن الحدث المهم الذي شغل الناس وخلد ذكراه الشعراء والكتاب والقصاص هو فتح عمورية تلبية لنداء المرأة الزبطرية، التي استغاثت بالمعتصم بعد الله فكانت تلبيتها بتلك الصورة الفورية. وما أورده الطبري وغيره عن

(١) الطبري: ص ١٢٦٣؛ الأزدي: التاريخ، ص ٢٤٧-٢٤٨.
(٢) اليعقوبي: تاريخ، ج ٣، ص ٢٠٢؛ المسعودي: ج٧، ص ١٣٧.
(٣) أنظر قصيدة أبي تمام. وفي منتقيات البستاني، ص ٧١-٧٨.

المعتصم، وهو يترك كل شيء ليذهب غازياً شهيداً ويكون ذلك الفتح العظيم ليصبح مثالاً للبطل الغازي الذي لا يروعه تخرُّصات المنجمين ودعوات المشعوذين، بل يركن إلى ربه وعزمه وسلاحه وقواته وقدراته العسكرية الفائقة التي تمثلت في كل مواجهاته لتلك التركة المثقلة من الفتن والحروب، التي ورثها من عهد المأمون وما قبل المأمون. ويقف الباحثون ليجدوا ذلك التطابق اللافت للنظر بين مفردات أخبار الغزو المؤدي لفتح عمورية كما جاء في الطبري، وبين ما جاء في عصماء أبي تمام التي خلدت الفتح كما خلدت الفاتح. وتبقى عمورية نقطة تحول بارز في تاريخ فتح المسلمين بلاد الروم، فهي السابقة لملازكرد عام ١٠٧١م السابقة للقسطنطينية عام ١٤٥٣. ويبقى المعتصم المثل للغازي المسلم المنتصر.

يقول أبو تمام من بعض ما يقول:

السيفُ أصدق إنباءً من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعبِ

بيضُ الصّفائح لا سود الصحائف في
متونهنّ جلاء الشكّ والرّيب

والعلم في شُهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشّهب

أين الرّواية، بل أين النجوم وما
صاغوه من زُخرف فيها ومن كذب

تخرّصاً وأحاديثاً ملفّقة
ليست بنبع إذا عُدت ولا غرب

عجائباً زعموا الأيام مُجفلة
عنهنّ في صَفر الأصفار أو رجب

وخوفوا الناس من دَهياء مظلمة
إذا بدا الكوكب الغربيّ ذو الذنّب

وصيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلباً أو غير مُنقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
ما دار في فَلك منها وفي قُطب

لو بينت قطّ أمراً قبل موقعه
لم يخف ما حل بالأوثان والصلب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتحُ أبوابُ السماء له
وتبرز الأرضُ في أثوابها القُشب

يا يوم وقعة "عَمُّورية" انصرفت
عنك المنى حُفّلاً معسولة الحلب

أبقيت جد بني الإسلام في صُعد
والمشركين ودار الشرك في صبب

أمٌّ لهم لو رجوا أن تُفتدى جعلوا
فداءها كلّ أم برّة وأب

وبرزة الوجه قد أعيت رياضته
كسرى وصدّت صُدوداً عن أبي كرب

من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد
شابت نواصي الليالي وهي لم تشب

بِكر فما افترعتها كفّ حادثة
ولا ترقّت اليها هِمة النّوب

حتى إذا مخض الله السنين لها
مخض الحليبة كانت زبدة الحقب

أتتهم الكربة السوداء سادرة
منها، وكان اسمها فرّاجة الكرُب

جرى لها الفأل نحساً يوم "أنقرة"
إذ غودرت وحشة الساحات والرحب

لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كان الخراب لها أعدى من الجرب

كم بين حيطانها من فارس بطل
قاني الذوائب من آني دم سرب

بسنّة السيف والخطّي من دمه
لا سنّة الدّين والإسلام مُختضب

لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليّل وهو ضحى
يشُلّهُ وسطها صبح من اللّهب

حتى كأن جلابيب الدّجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان في ضحى شحب

لم يعلم الكفر كمن أعصر كمنت
له المنية بين السّمر والقضب

تدبير معتصم، بالله منتقم
لله مرتقب، في الله مرتغب

لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد
إلا تقدّمه جيش من الرعب

لو لم يقُد جحفلاً يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها في جحفل لجب

رمى بك الله بُرجيها فهدّمها
ولو رمى بك غيرُ الله لم يُصب

لبيت صوتاً زبطرياً هرقت له
كأس الكرى ورضاب الخرّد العرب

عداك قر الثغور المستضامة عن
برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبته معلناً بالسيف منصلتاً
ولو أجبت بغير السيف لم تُجب
حتى تركت عمود الشرك منقعراً
ولم تعرّج على الأوتاد والطنب
لما رأى الحرب رأي العين توفلس
والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يُصرف بالأموال جزيتها
فعزه البحر ذو التيار والعبب
هيهات زعزعت الأرض الوقور به
عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربى بكثرته
على الحصى وبه فقر إلى الذهب
إن الأسود أسود الغاب همتها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت
جلودهم قبل نضج التين والعنب
خليفة الله جازى الله سعيك عن
جرثومة الدين والإسلام والحسب

بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تُنال إلا على جسر من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير منقضب

فبين أيامك اللآتي نُصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بني الأصفر المُصفر كاسمهم
صُفْر الوجوه وجلّت أوجه العرب

- ٥ -

حرب المازيّار

إن ثورة مازيار بن قارن بن ونداد تنقلنا إلى الحدود الشرقية للخلافة، وإلى منطقة طبرستان بالذات حيث كانت تغلب الطبيعة الجغرافية نفسها التي مكنت لثورة بابك في أذربيجان[١]. كان قارن رهينة لدى هرون الرشيد في عام ١٩١هـ/٨٠٥م واخلى سبيله في عام ١٩٢ هـ/٨٠٨م، وخلف والده في ولاية منطقتهم في الجبال[٢]. وعندما كان المأمون في مرو يعرض سياسته في

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٥٣-٥٤؛ Ibn Isfandiyar, History of Tabaristan, pp. 7-14؛ إبن الفقيه: البلدان، ص ٣٠٠.. Rekaya below;.

(٢) Ibn Isfandiyar, above, p. 147; Inostranzev, **Iranian Influences on Muslim Literature**, pp. 96-8; Sadighi, **Les Mouvements**, pp. 60-2; Spuler, Geschischte, pp. 63-77; Browne, **Literary History**, p. 30;

الأسلمة، وتحقيق الأخوة بين الحكام المتجاورين، استطاع المأمون أن يستميل قارن إلى جانبه، في وقت كان فيه قارن حريصاً على كسب دعم المأمون له في مواجهة منافسيه من أفراد عائلته. وعلى أساس هذه العلاقة اعتنق مازيار الذي خلف والده الإسلام، وضمن تأييد المأمون له. وقد سماه المأمون أبا الحسن محمد، ولقبه بمولى أمير المؤمنين. ولكن يقال إن مازيار كان يسمي نفسه بالموالي لأمير المؤمنين لا مولاه[(١)].

وبمساعدة المأمون بقي المازيار حاكماً على منطقته في طبرستان وظل كذلك إلى عهد المعتصم. وبدءاً بعهد المعتصم أخذ المازيار يبني قوته الذاتية، ويوسع نطاق نفوذه على حساب جيرانه من الأمراء. وعلى كل فإن الاتهامات التي كانت تشير إلى أن مازيار كان يسعى بجد للتمكين للمذهب الزرادشتي، والسعي لوقف تقدم الإسلام ووقف العناصر الموالية للخلافة العباسية هي اتهامات لا تجد ما يسندها[(٢)].

وفي عهد المعتصم كانت ثورة مازيار ذات صلة بما كان عليه الحال بين المعتصم والطاهريين حكام خراسان. إن سيطرة

E.I. (1) Mazyar ; cf. Rekaya, **la place des Provinces Sud-Caspiennes dans l Histoire de l Islam**; alsp Rekaya, **Mazyar: Resistance ou Integration d Une Province Iranienne**.

(١) اليعقوبي: ج ٣، ص ٥٣ ؛ إبن الفقيه: البلدان، ص ٣٠٠؛ Ibn Isfandiyar, op. cit., p. 14; Rekaya, Mazyar, p. 1147..

(٢) الطبري: ص ١٢٦٩؛ E.M., p. ؛ Ibn Isfandiyar, **op. cit.**, pp.149-53 86. CF. Rekaya, n. 93.

الطاهريين على خراسان لم تكن مما يرضي المعتصم الذي كانت علاقته بعبد الله بن طاهر متوترة خلال عهد المأمون. ولم يكن المعتصم يخفي حرصه على التخلص من عبد الله بن طاهر متى واتته الفرصة. لقد كان مازيار والأفشين المتآمر معه كما يدعي على علم بموقف المعتصم هذا، وهذا مما حدا بمازيار ـ وفقاً لرواية الطبري ـ لمعاداة الطاهريين. ومن ثم كان يتجاهل التقليد المرعي وقتها بتسليم الخراج إلى مرو، ويقوم بإرسال خراج منطقته إلى المعتصم مباشرة[(١)]. واعتاد المعتصم أن يعيد ذلك الخراج إلى الطاهريين، وقد كانوا حكاماً على كل خراسان، ولكنه لم يتخذ أي إجراء لمعالجة ذلك الوضع. وكان المعتصم حريصاً على إبقاء الخلاف بين الطرفين دون أن ينحاز إلى أي منهما، إذ كان ذلك يحقق أغراضه بشغل الطرفين والإبقاء عليهما في ضعف. ولكن مازيار نفسه أفاد من ذلك الوضع، إذ ساعدته العداوة بين مرو وسامراء على المناورة. والإبقاء على الطاهريين ضعافاً مكنه من المضي قدماً في توسيع منطقة نفوذه ليصبح أكثر قدرة على التخلص من نفوذ الطاهريين[(٢)]. ولم يكن متاحاً للطاهريين المخاطرة بإعلان عدائهم للمعتصم أو لمازيار لأن ذلك كان قميناً بتوحيد الاثنين ضدهم، لذلك فقد كانت سياستهم هي تحين الفرص المناسبة والاستمرار في اتهام مازيار بعدم الولاء للدين الإسلامي أو

(١) الطبري: ص ١٢٦٨.

(٢) الطبري: ص ١٢٧٤؛ E.M., p.90.; Rekaya, Mazyar.

الدولة العباسية، وبذلك نجحوا في أن يوغروا صدر المعتصم عليه.

ظلت الأنباء عن مناشط مازيار المشبوهة تتوالى على المعتصم، كما توالت من قبل على المأمون وعلى مدى طويل. وظل مازيار يفند كل التهم ضده ويدافع عن كل ما يقوم به من خطوات. وكان يدلل على صدق ولائه كلما ثار شك حول ولائه، ولكنه في الوقت نفسه كان يستفيد من توازن القوى السائد وبين كل المشاكل التي كانت تواجه الخلافة[١].

وهكذا جاءت ثورة مازيار بن قارن في إطار التنافس والصراع بينه وبين الطاهريين، وتنامي الريبة والشك بينه وبين المعتصم، وطموحه في التوسع والانفراد بالسلطة. بدأ ثورته في عام ٢٢٤هـ/ ٨٣٠م. وإذا كان مازيار قد اختار هذا الموقف اليائس فإن بعض المصادر تشير إلى أن الأفشين ـ القائد المقرب للمعتصم ـ هو الذي حرضه على اتخاذ هذا الموقف. ووفقاً لهذه المصادر، فإن الأفشين الذي كان على علم بموقف المعتصم من الطاهريين، وكان يتآمر عليهم، هو الذي ظل يحرض مازيار على الثورة ويزين له ذلك[٢]. وتمضي تلك المصادر فتشير إلى أن الأفشين كان على يقين بأن الطاهريين لم يكونوا في موقف يمكنهم منفردين من القضاء على ثورة مازيار،

(١) Ibn Isfandiyar, **History of Tabaristan**, p.151 ; الطبري: ص ١٢٧٠؛ E.M., pp. 86-7; Rekaya, **Mazyar**, pp. 153-157. ؛

(٢) الطبري: ص ١٢٦٨ ؛ اليعقوبي: ج ٣، ص ٢٠٢.

وأن الأفشين كان يطمع في أن يوكل إليه أمر القضاء على ثورة مازيار، فإن نجح فإن جائزته ستكون توليته على خراسان.

بدأ مازيار ثورته بإجبار الناس على أن يدينوا له بالولاء بدل الخليفة، وصار يحرض رقيق الأرض على الثورة ضد ملاك الأراضي، وكان يحرضهم على سرقة ثروات أولئك الملاك[1]. ولتعطيل مساعي خصومه من اتخاذ أي إجراءات ضده، ولتمكينه من المساومة وقت الحاجة، كان مازيار يعمد إلى احتجاز رهائن من العناصر المشتبه في عدم ولائها له. وعمد أيضاً إلى أمر أتباعه بتحطيم كل دفاعات مدن المنطقة مثل دفاعات مدن أمول وساريا وطميس[2]. ومن ثم انتقل إلى التحصن بالجبال تاركاً بعض أعوانه ليتحصنوا وراء بعض الأسوار والخنادق التي أقاموها قريباً من مدينة طميس القريبة من جرجان.

إن من الواضح أن طموح مازيار غير المحدود في تحقيق الاستقلال الذاتي هو الدافع لثورته، وكان من الطبيعي أن يحاول الاستفادة من الفوارق بين الفقراء والاغنياء لتدعيم موقفه. ووفقاً لرواية الطبري فقد سعى مازيار لإحداث شرخ بين دافعي الضرائب وغير دافعيها من المواطنين والتجار. وعلى كل فلم تقم الدلائل على أن الفقراء هم الذين كانوا يخلقون

(١) الطبري: ص ١٢٧٣-١٢٧٤؛ E.M., PP. 86.89.90.93. M. Ritter, Oriens VI, 1953, PP. 157-8, gives possible alternatives to some of E.M. translations. See also B.. Lewis, BSOAS, 17.p. 184.

(٢) الطبري: ص ١٢٧٥؛ E.M., p.90 ; Ibn Isfandiyar, History of Tabaristan, p. 153.

الاضطرابات ويتسببون في الثورة. ولكن ربما كانت وعوده للمزارعين بتوزيع أراضي الملاك عليهم هي التي دفعت بعضهم إلى تأييده[١]، في وقت خاصمه فيه كل من كانت أحوالهم الإقتصادية مزدهرة. ويلاحظ أن سياسة مازيار كانت على الدوام هي تكديس أكبر ثروة ممكنة، وهي سياسة يقال إن الأفشين نفسه اتبعها. إن العملة الفضية والذهبية في ذلك الزمان لم تكن تفقد قيمتها بتغيير الأنظمة الحاكمة، وكانت عظيمة الأهمية في الإقتصاد وفي التجارة في تلك الفترة، وكان هذا مما يؤمن دفع رواتب الجند من المحترفين ممن كانوا وقتها على استعداد دائم لتقديم خدماتهم لمن يدفع الثمن وفوراً.

وسرعان ما وصلت أنباء ثورة مازيار وفظائعه إلى خراسان. وهرب أهل جرجان ونيسابور خوفاً من المصير الذي لقيه غيرهم على يديه، وحملوا بذلك إنذاراً مبكراً للطاهريين، نقله هؤلاء بدورهم للمعتصم في سامراء. وكان هذا ما دعا إلى إعداد حملة مشتركة، فأرسل عبدالله بن طاهر والي خراسان جيشاً تحت إمرة عمه الحسن بن الحسين ليهاجم من جرجان، وأرسل المعتصم جيشاً بقيادة محمد بن إبراهيم بن مصعب ليهاجم من الري. حرص المعتصم على أن يطعم القوات التي أرسلها ببعض العناصر الطبريستانية تحت قيادة رجال أمثال حسين بن قارن الطبري[٢]، وكان هؤلاء خير من يشارك في مثل تلك الحملة

---

(١) الطبري: ص ١٢٧٨.

(٢) الطبري: ص ١٢٧٦.

لمعرفتهم اللصيقة بالمنطقة. وتوحدت قيادة الجيشين تحت إمرة الحسن بن الحسين وسرعان ما باشر القائدان أعمالهما.

تحققت للحسن بن الحسين انتصارات مبكرة ضد الثوار في منطقة جرجان، وتمكن سريعاً من القبض بنفسه على مازيار. وتم ذلك من خلال التأثير على ابن عم أو أخ لمازيار يسمى قاهيار وكان الوعد له بجعله حاكماً مكان مازيار[1]. ويلاحظ أن مثل هذه الغيرة التي عانى منها مازيار عانى منها آل طاهر أنفسهم، فقد كان من ضمن جيش الطاهريين تحت قيادة الحسن ابن الحسين رجل يدعى حيان بن جبلا، وقد كان مولى لعبدالله ابن الطاهر حاكم خراسان، وأن حيان هذا قد سعى جاهداً للقبض على مازيار قبل أن يقع في قبضة الحسن بن الحسين[2]. ويبدو أن المجهود الذي بذله حيان للقبض على مازيار لم يكن فقط أمر منافسة آنية بين حيان والحسن كقادة عسكريين، بقدر ما هو في أصل منافسة كانت قائمة بين الحسن وابن أخيه حاكم خراسان.

لما تأكد مازيار أنه قد أحيط به أرسل إلى المحتجزين من الرهائن - وفق ما يروي الطبري - وأعلمهم بموقفه وأنه كان يعتقد أن حياتهم ربما كانت مهمة بالنسبة للخليفة، وأنه كان ينوي المساومة بهم، لذلك احتجزهم كرهائن. لقد لعب الحسن ابن الحسين على الخلافات الداخلية والمطامح الشخصية لدى

(١) الطبري: ص ١٢٨٨.
(٢) الطبري: ص ١٢٨٣.

أفراد عائلة مازيار وبذلك نال بغيته. ولم يكن القتال الذي جرى ولا الخسائر التي وقعت بحجم الخسائر التي وقعت خلال حملة بابك.

ومع أن الاستعدادات العسكرية قد أعدت بكفاية، فإن الخطة الرئيسة للحسن بن الحسين قامت على ضرورة إحداث فرقة في صفوف أعوان مازيار وضمان عزلته، ووضع حد لثورته بالتمكن من اعتقاله. ولتحقيق ذلك وعد مازيار بضمان سلامته الشخصية وسلامة أسرته وممتلكاته، فلما قبض عليه أرسله إلى سامراء ليواجه الخليفة المعتصم.

يروي الطبري أن عبدالله بن الحسين كان شديد الحرص على وضع يده على بعض الخطابات التي اتهم الأفشين بإرسالها إلى مازيار تحرّضه على الثورة، وأنه حصل على تلك الرسائل وأرسلها إلى المعتصم وتأكد من وصولها بسلام إلى يد المعتصم شخصياً كما تؤكد رواية الطبري[١]. وفي سامراء قدم مازيار إلى محاكمة تمت في دار العامة ـ المقر الرسمي للخليفة ـ وقد كان من أهم أغراض المحاكمة أن يؤيد الإتهام الموجه إلى الأفشين بأنه قد كان طرفاً في المؤامرة[٢]، وكان الأفشين وقتها قد أودع السجن بتلك التهمة.. وعلى كل فإن مازيار لم يؤكد التهمة،

(١) الطبري: ص ١٢٠٨.

(٢) الطبري: ص ١٣٠٥. ـ وهنا يؤكد الطبري تبادل الرسائل بين الأفشين والمازيار، في حين أن روايته في ص ١٢٩٨ لا تثبت ذلك. وكذلك اليعقوبي: تاريخ، ج ٣، ص ٢٩٣.

وهو تأكيد ما كان ليكتسب أهمية لو أن الخطابات المزعومة ضبطت فعلاً. ويقال إن مازيار جلد أربعمائة وخمسين جلدة شرب على أثرها ماء وقضى نحبه في عام ٢٢٥هـ/ ٨٣٩-٨٤٠م، وقد صلب جثمانه فيما بعد إلى جانب جثمان بابك، وهي نهاية حرّكت مشاعر بعض الشعراء فخلدوها شعراً[١].

- ٦ -

محنة الأفشين

مرة أخرى كانت نهاية هذه الحملة الناجحة عرضة لطمس بهجتها بما تلتها من أحداث، فبعد نهاية مازيار جاء دور الأفشين ليحكم عليه بالموت في محاكمة جرت بعد نهاية مازيار مباشرة. «الأفشين» كان مما يلقب به أمراء أشروسنة قبل مجيء الإسلام. والأفشين المسمى كيذر أوحيدر كما تسميه بعض المراجع العربية، كان قد خلف والده على اللقب. ومثله مثل مازيار، فإن الأفشين ظهر في عهد المأمون حاكماً لبرقة التي كانت تابعة للمعتصم حينما ولي أمر مصر، وبصفته تلك قضى الأفشين على انتفاضة قام بها العرب والقبط في الدلتا في عام ٢١٦هـ/ ٨٣١م. ويقال إنه هو الذي كون للمعتصم كتيبة المغاربة من عرب الدلتا والصحراء الغربية. وخلال خلافة المعتصم صار الأفشين حاكماً على أرمينيا وأذربيجان والسند.

---

(١) البستاني: منتقيات، ص ٨٨.

اتهم الأفشين بالتآمر مع مازيار وبابك، كما اتهم بالتآمر مع مانكجور وهو أحد ولاته في أشروسنة، وكان قاد ثورة في اعقاب إخماد ثورة مازيار[1]، كما أتهم بتكديس الثروة في أشروسنة ليقوم بثورة مستقبلاً، وأنه كان ينوي الخروج على دولة الخلافة كلها. وفوق ذلك اتهم باعتناق وممارسة شعائر مناهضة للإسلام[2]. وهكذا اعتبر صنواً لبابك ومازيار، ولكن موقفه صار أسوأ منهما إذ كان يوماً من المقربين من الخليفة المعتصم. اتهم الأفشين بأنه كان على علاقة ما مع مازيار، ولما قامت ثورة مازيار لم تسند إليه مهمة إخمادها خوفاً من تلك العلاقة المزعومة، إلى جانب تهمة طالته وقتها أيضاً، وهو أنه كان ينوي قيادة ثورة من مسقط رأسه. إن مهمة قيادة الحملة ضد مازيار جانبت الأفشين وهي مهمة كان يعول عليها كثيراً كمفتاح لكل خططه، وكانت قاصمة الظهر إعفاءه من منصبه كقائد لحرس الخليفة[3]، ومن ثم سجنه ومحاكمته. وهنا يظهر الطاهريون مرة أخرى على المسرح إذ شاع أن الأفشين كان قد سمع المعتصم يفصح عن رغبته في إزاحة الطاهريين عن خراسان[4]. ولما كان هو، أي الأفشين، من المقربين من المعتصم، مع ما كان له من قدرات تؤهله لحكم خراسان في

---

(١) الطبري: ص ١٣٠١؛ E.M., pp.108-9 ; E.I.(2). Afshin.

(٢) الطبري: ص ١٠٩٨.

(٣) الطبري: ص ١٣٠٣.

(٤) الطبري: ص ١٣٠٥.

حالة إقصاء الطاهريين عنها، سعى لتحريض مازيار على الثورة طمعاً في أن يبعث به لإخمادها، ومن ثم يجد طريقه ممهداً ليصبح والياً على خراسان.

هكذا مضت رواية الطبري، لكن ما من أحد كان يدري عن الطريقة التي كان سيحقق بها أهدافه، هل ذلك توقع مكافأته بذلك الموقع إذا أضاف إلى انتصاره العظيم ضد بابك انتصاراً أخر ضد مازيار؟ وإذا كان الأفشين مناصراً لبابك ومتآمراً مع مازيار، فكيف تسنى له هزيمة الأول ومنّى نفسه بهزيمة الثاني؟ وهل كان الأفشين حقيقة متآمراً أو حتى متعاطفاً مع أحدهما أو كليهما؟ إن رواية الطبري تبدو متناقضة في هذا الموقف. فالطبري يذكر خبر خطابات أرسلها الأفشين إلى مازيار، لكن تلك الخطابات لم تظهر في محاكمة مازيار ولم تظهر حتى في محاكمة الأفشين نفسه. لقد طلب إلى مازيار أن يعترف بوجود تلك الخطابات لكنه لم يفعل. والطبري يروي مرة أخرى أن مازيار لم يجرم الأفشين بأي اعتراف، ولكنه في رواية له أخرى يقول إن مازيار قد فعل ذلك(1). إن مناشدة الأفشين للمعتصم والتي أوردها الطبري توضح أن تلك الاتهامات لم تكن تقوم على ركائز ثابتة. إن مناشدة الأفشين لم تكن تطلب عفواً، ولكنها كانت محاولة تسعى لدحض اتهامات وصفت بأنها

(1) الطبري: ص ١٢٩٨، ١٣٠٣-١٣١١. كانت بغداد تحت الطاهريين وظلوا ذوي نفوذ في العراق. وكان من مصلحتهم التخلص من الأفشين كما كانت في التخلص من بابك والمازيار.

ماكرة. وطالب الأفشين في مناشدته بالعدل وتقدير جملة الأمور في عناية وحرص[١].

يورد الطبري عن الأفشين وقد حبس:

«... قل لأمير المؤمنين أحسنت إليّ وشرفتني، وأوطأت الرجال عقبي ثم قبلت فيَّ كلاماً لم يتحقق عندك ولم تتدبره بعقلك. كيف هذا وكيف يجوز لي أن أفعل هذا الذي بلغك؟ تخبر بأني دسست إلى مكنجور أن يخرج وتقبله؟ وتخبر أني قلت للقائد الذي وجهته لكمنجور لا تحاربه وأعذر وإن أحسست بأحد ما فأنهزم من بين يديه؟ أنت رجل قد عرفت الحرب وحاربت الرجال وسست العساكر. هذا يمكن رأس عسكر يقول لجند يلقون قوماً افعلوا كذا وكذا؟ هذا ما لا يسوغ لأحد أن يفعله. ولو كان هذا ممكناً ما كان ينبغي أن تقبله من عدو قد عرفت سببه. وأنت أولى بي. إنما أنا عبد من عبيدك وصديقك. ولكن مثلي ومثلك يا أمير المؤمنين مثل رجل ربىَّ عجلاً له حتى أسمنه وكبر وحسنت حاله، وكان له أصحاب اشتهوا أن يأكلوا من لحمه فعرضوا له بذبح العجل فلم يجبهم إلى ذلك، فاتفقوا جميعاً على أن قالوا له ذات يوم ويحك لم تربي هذا الأسد! هذا سبع وقد كبر والسبع إذا كبر يرجع إلى جنسه. فقال لهم ويحكم هذا عجل بقر ما هو بسبع. فقالوا سبع سل من شئت عنه، وقد تقدموا إلى جميع من يعرفون فقالوا لهم إن سألكم عن

(١) مذكورة في المصادر السابقة.

العجل فقولوا له هذا سبع. فكلما سأل الرجل إنساناً عنه وقال أما ترى هذا العجل ما أحسنه، قال الآخر هذا سبع هذا أسد ويحك. فأمر بالعجل فذبح. ولكن أنا ذلك العجل كيف أقدر أن أكون أسداً؟ الله الله في أمري، اصطنعتني وشرفتني، وأنت سيدي ومولاي، أسأل الله أن يعطف بقلبك عليَّ....».

وفي الحقيقة فإن مصادر سابقة وأكثر ثقة كانت تلقي بظلال من الشك على حقيقة الصلة المدعاة بين الأفشين ومازيار[1]، وهذا يجعل الأمر متعلقاً بالعلاقة بين المعتصم والأفشين والطاهريين من جهة ومن الجهة الأخرى إمكانية تعاطف الأفشين مع المجوسية ومن ثم جمعه الثروة وإرسالها إلى أشروسنة.

كان الطاهريون هم الذين راقبوا الأفشين عن قرب، وكانوا يحصون عليه خطواته في تقارير كانوا يبعثون بها إلى المعتصم. وعندما اندلعت ثورة مازيار تنبه المعتصم إلى خطورة الوضع في الشرق، وكانت تلك فرصة اغتنمها الطاهريون ليمضوا قدماً باتهاماتهم ضد الأفشين. ويبدو أن مسعاهم ذلك وجد سنداً من مجموعة من الرجال كانوا ضمن الدائرة الخاصة للمعتصم[2]. ومع ذلك فقد ظل المعتصم نصيراً للأفشين، وإن كان ذلك لم يمنعه من اتخاذ المزيد من الحيطة والحذر.

إن ذكرى الأحداث التي تلت معركة عمورية كانت لا تزال غضة في ذهن المعتصم. والأفشين لم يرسل لإخماد ثورة مازيار

(١) اليعقوبي: تاريخ، ج، ٣ ص ٢٠٢-٢٠٣.
(٢) الدينوري: الأخبار، ص ٤٠.

وأقصي عن قيادة حرس الخليفة الخاص ثم سجن في انتظار المحاكمة. وحسبما يروي الطبري فإن الأفشين حينما أحس صداً من المعتصم عنه وحتى قبل سجنه أعد خطة للهرب إلى أرمينيا ليجد طريقه إلى موطنه أشروسنة. ولتنفيذ مخططه أعد خطة ليدعو المعتصم وكبار قادته المقربين إلى وليمة يقدم لهم فيها طعاماً مسموماً ثم يعمد إلى الهرب. ولكن الخطة لم تصب نجاحاً، إذ إن أحد أعوان الأفشين كشف سرها (وهي قصة غالباً ما تكون من وضع أعداء الأفشين).

وفي المحاكمة الشهيرة التي جرت للأفشين، وفي أجواء كانت مماثلة تماماً للأجواء التي وقعت فيها محنة الإمام أحمد ابن حنبل، كان أبرز التهم هو إتهام الأفشين باتباع سياسات معادية للخلافة في أشروسنة مضافاً إليها ما اتهم به من تبني عقائد وممارسات مجافية للعقيدة الإسلامية. ولم يعدم متهموه ما يدفعون به في هذا المجال وقدموا بعض الرجال الذين شهدوا ضده في التهمة الأولى[1]. أما بالنسبة للتهمة الثانية فقد قدموا أدلة مادية تؤيد الاتهام بعد تفتيش منزل الأفشين، إذ قيل إن بعض الأصنام والكتب البوذية قد وجدت فيه[2]. كان الاتهام بالتآمر مع مازيار أخف وطأة إذا ما قورن بهاتين التهمتين. وهكذا تمت إدانة الأفشين وسجن، ومن سجنه بعث بمناشدته للمعتصم ولكن طلبه لم يجد أذناً صاغية. وبديلاً من ذلك فقد

(١) انظر: الطبري: ص ١٣٠٥؛ اليعقوبي: تاريخ، ج٣، ص ٢٣٩.

(٢) D.S. Rice, **Paintings**, pp. 16-20.

حكم على الأفشين بالموت شنقاً، وشنق وعلق جثمانه أمام بوابة دار العامة ثم أحرق ونثر رماد رفاته على مياه دجلة[1]. أما إبنه وقد كان زوجاً لابنة القائد أشناس فقد تم استدراجه بحذق إلى سامراء، إذ كان يخشى من تسببه بعض المشاكل إذا عرف بمصير والده.

كان في انتفاضة بابك، وثورة مازيار، ومحاكمة الأفشين بعض مؤشرات مهمة ليس لأنها قد صورت طموح قادة هذه الثورات فقط، ولكن لأنها أظهرت ضعف قبضة الخلافة السياسية والعسكرية على الولايات الحدودية، كما كشفت المشاكل الاقتصادية والإدارية التي تسببت فيها. وكانت تشير إلى العوامل الإقليمية والعرقية والثقافية التي أبطأت بخطوات التعريب، إن لم نقل أبطأت بالأسلمة. إن تنامي الولاء الذي صاحب انتشار الاسلام وهجرات العرب خلال القرن الأول من الفتوحات نجح في مجمله لإكساب الشعوب المفتوح أرضها شيئاً من الأسلمة والتعريب الكاملين، وخير مثال لهذا التأثير في هذه الفترة هو موقف الطاهريين، إذ إنهم مع طموحهم السياسي كان ولاؤهم للخلافة لا تشوبه شائبة. ومع ولاء الاصطناع[2]، الذي كان علامة مميزة للحقبة العباسية ولانتشار الاسلام غربي وشرقي وشمالي خراسان في هذه الحقبة، فإنه لا الأسلمة الكاملة ولا التعريب الكامل قد أنجزا!. وأبرز مثال لذلك هو سلوك مازيار

---

(١) البستاني: منتقيات، ص ٨٢-٩٠ .

(٢) F.I.(1), S.V. Wala. ؛ أحمد أمين: ضحى الاسلام، ص ٣٧-٤٣.

الذي اختار أن يسمي نفسه موالياً لا مولى لأمير المؤمنين، وكانت النتيجة هي اضطراب سياسي وعدم استقرار كما كشفت عنه ثورة مازيار.

إن هذه الثورات توضح المنافسة التي كانت سائدة بين رجال مثل الأفشين ومازيار وعبدالله بن طاهر، وتعبر عن مطامحهم الشخصية، وتشير إلى صعوبة موقف المعتصم في علاقاته بهم. وقد أضافت محاكمة الأفشين بعداً آخر، إذ إنها كشفت عن شرخ بين أرباب السيف وأرباب القلم. كان الأفشين ممثلاً للطائفة الأولى، وأحمد بن أبي دؤاد ممثلاً للطائفة الثانية. والطائفة الثانية هي التي تولت تمثيل الاتهام ضد الأفشين وقامت باستجوابه خلال محاكمته، وقبل هذه المحاكمة كان أحمد بن أبي دؤاد يقف في جناح مضاد للأفشين[1]. وكان لعبد الله بن طاهر علاقة بهذه المجموعة وهي التي ألقت بكل ثقلها ضد الأفشين وضمنت إدانته. وهذه المجموعة نفسها هي التي وقفت خلف الاجراءات الصارمة خلال المحنة[2]. وإذا كانت قد فشلت في إنفاذ سياساتها هناك، فقد وجدت متنفساً لرغباتها حينما تزعمت نشر الدعوة الإسلامية وحماية الخلافة، عندما كانت تجري محاكمات بابك ومازيار والأفشين.

وهذه هي الأجواء التي أحاطت بالمعتصم، خروج متكرر

(١) الدينوري: الأخبار، ص ٤٠١؛ التنوخي: الفرج، ج ٢، ص ٦٧-٦٩.
(٢) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

على خلافته ودولته، وتنافس وتقاتل بين ولاته وقادته، وهو في عاصمته العسكر يجهد لأن يسيّر أموره مع الوشايات والتآمر.

ـ ٧ ـ

المحمرة والعلويون

لم تكن هذه الأحداث وحدها هي التي كشفت عن المشاكل والصعاب التي كانت تواجه المعتصم والخلافة العباسية، إذ إنه في العام نفسه الذي بدأ فيه المعتصم حملته ضد بابك تعيّن عليه أن يرسل بعثاً لإخماد اضطرابات تسببت فيها مجموعة خارجة عرفوا «بالمحمرة» في منطقة الجبال[١]. وقد درج هؤلاء على مهاجمة طرق القوافل في المنطقة، ومن ثم هددوا حركة التجارة كما هددوا سلامة قوافل الحجاج المتجهة إلى الحجاز. وكانوا في ذلك مدفوعين بعوامل اقتصادية مثلهم مثل الزط، ولكنهم تميزوا عن الزط بأنهم كانوا يقيمون في مناطق حدودية، ولذلك كان في مكنتهم دائماً وجود طريق ممهد للهرب إلى داخل أراضي الدولة البيزنطية. ومثلهم مثل بعض أصحاب بابك فقد حارب بعض المحمرة إلى جانب الأمبراطور البيزنطي حينما هاجم زبطرة وفي الحملات التي تلتها. وفي الموصل قام الأكراد باضطرابات تشبه اضطرابات المحمرة.

---

(١) الطبري: ص ١١٦٥ هنا الطبري يشير إلى أن الخرمية أتباع بابك الذين بعث المعتصم اسحق بن ابراهيم لحربهم. لكن اليعقوبي: تاريخ، ج ٣، ص ١٩٧ يذكر أن اسحق بن ابراهيم بعث لحرب المحمرة ويبدو أنهم كانت لهم علاقة بثورة بابك من قبل.

وأهم من هذه الأحداث كانت ثورات العلويين وسعيهم لتأسيس خلافة علوية كما تمثل في نشاط العلوي محمد بن القاسم، والذي عرف بصاحب الطالقان وذلك في عام ٢١٩هـ/ ٨٣٤٠٨٣٥م[١]. وانتفاضة اليمني أبو حرب (المبرقع)[٢] في فلسطين في سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١-٨٤٢م. إن أحد أسباب ثورة المبرقع يشير إلى تطرف جنود المعتصم الجدد، وهي تصرفات أثارت حفيظة أهل بغداد من قبل[٣]. إن أية واحدة من هاتين الانتفاضتين لم تمثل تهديداً للخلافة، وأمكن التعامل معهما بسهولة، إذ قضى الطاهريون على الأولى وقضى رافق الحضري أحد قواد المعتصم على الثانية.

وبما أن كلتا الحالتين قد وقعتا في داخل حدود الخلافة، لا على الحدود ولا في المناطق التي ضمت حديثاً، كانت أهميتهما تنبع فقط من علاقتهما بالثورات الأخر. وقد كان القاسم المشترك في كل هذه الثورات هو العامل الاقتصادي خاصة فيما يتعلق بحجم مؤيدي تلك الانتفاضات. فبينما نجد أحد مؤيدي صاحب الطالقان يقول له صراحة بأنه يهتم فقط بالنفع المادي[٤]، كان أصحاب المبرقع من البدو والفلاحين من فلسطين والذين يأملون في تحسين أوضاعهم فكانت

---

(١) الطبري: ص ١١٦٥-١١٦٦؛ أبو الفرج: مقاتل، ص ٣٧٦-٣٨٢؛ البغدادي: الفرق، ص ٢٢-٢٣.

(٢) الطبري: ص ١٣١٩-١٣٢١.

(٣) الطبري: ص ١٣١٩. راجع الفصل الرابع.

(٤) أبو الفرج: مقاتل،ص ٣٧٧ .

الثورات[١]. كان هذا أمراً مشتركاً في بعض جوانبه مع أسباب ثورة الزط وبابك ومازيار، وكان ذلك حقاً موقف من دعموا العباس ضد عمه المعتصم. ومن المناسب أن نلاحظ هنا أنه وفقاً لما جرى عليه العمل ووفقاً لممارسات الخلافة، فإن البدو الرحل خلافاً للمستقرين لم يكونوا لينالوا شيئاً من الفيء[٢]، إذ إن أسماءهم لم تكن مسجلة في دواوين العطاء.

لقد تميزت هاتان الانتفاضتان - المحمرة والعلويون - ببعدهما الديني، لكنهما وإن كانتا ضد العباسيين لم تكونا ضد الاسلام، فالثائر العلوي ـ وكان جارودياً ـ (أي تابعاً للمذهب الزيدي مع توجهات معتزلية)[٣] قام بثورته لا استناداً على إرثه العائلي، ولكن بدعوى تحقيق العدالة والانصاف بالاحتكام إلى شريعة الإسلام. أما المبرقع فقد قام باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٤]، وفي كلتا الانتفاضتين فإن فكرة المهدي المنتظر كانت حاضرة، وكان المبرقع يسمي نفسه أمام بعض مؤيديه بالسفياني الأموي المنتظر[٥]. بينما كان العلوي الثائر يُعرف عند بعض أتباعه بالعلوي المخلص المنتظر.

---

(١) الطبري: ص ١٣٢٠.

(٢) إبن سلام: الأموال، ص ٢١٢.

(٣) Wat, W.M. The Formative Period, pp. 175-176; Zahniser insights.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن رأى منكراً فليغيره .... إلخ واجب كل مسلم، وهو أساس الثورات في الاسلام.

(٥) موالاة الأمويين كانت متمكنة في الشام. إبن عساكر: تاريخ دمشق، ج ١، ص ٦٠٤-٦٠٥، روايات عن السفياني المنتظر. البلاذري: الفتوح، ج ٣، ص ٢٩٦.

- ٨ -

دلالات الثورات والحركات في عهد المعتصم

لقد نجح المعتصم في أن ينتصر في كل هذه الثورات صغيرها وكبيرها، ولكن ذلك لم يسهم في تقوية الخلافة ولا الخليفة، لأن مجريات تلك الأحداث المختلفة كشفت عن طبيعة العلاقات العباسية البيزنطية (تدمير زبطرة وفتح عمورية) كما كشفت المشاكل التي كانت تواجه الخلافة العباسية في الأقاليم الحدودية الوعرة (ثورات بابك ومازيار والأفشين). وكانت تفصح عن الحالة الأمنية والاقتصادية والاجتماعية مما دفع ببعض العناصر للخروج على الدولة (مثل الزط والاكراد وغيرهم)، وكشفت من المشاكل السياسية والصراع حول الخلافة التي قادت إلى التآمر على حياة الخليفة من قبل بعض قواده مع إبن أخيه. إن كل هذه الأحداث كانت تشير إلى تراخي قبضة الدولة على المناطق المختلفة، كما كانت تعبر عن هشاشة ولاء الولاة والقادة بل الرعية أنفسهم للخليفة والخلافة في تلك الأيام.

إن الشرخ الذي ظهر بين الدولة ممثلة في أجهزتها الرسمية، الخلافة والخدمة المدنية والعسكرية من جانب، وسائر الرعية من الجانب الآخر صار حقيقة بارزة للعيان. أصبحت الإدارة بلا كفاية وضعيفة وسلبية لذلك تحتم على الخلافة أن تسعى للتأكيد على أهمية وجودها أمام العامة وأمام كوادرها الخاصة على حد

سواء، ومن ثم كانت تلك السياسة التي تمثلت في المحنة، وفي محاكمة بابك ومازيار والأفشين، وإحياء روح الجهاد كما أبرزتها علاقات كل من المأمون والمعتصم بالدولة البيزنطية. ويبدو أن هذه الأزمة وجدت تعبيراً عنها في كتابات الماوردي لاحقاً حينما كتب عن الحاجة إلى الخلافة[١].

بالنسبة للمعتصم لم يكن الأمر يتعدى اهتمامه بأن يرى كل تلك الثورات قد أخمدت، لينتهي كل شيء بتبديل الولاة. لم يكن يتجاوز ذلك لمعالجة الأوضاع التي تسببت في المشكلة، ولم يكن هناك ثمة تغيير لسياسة تعالج الموقف من جذوره. ويظهر ذلك بجلاء في نهج الكتاب الذين فشلوا في الاهتداء إلى الأسباب الحقيقية التي أدت إلى وقوع الأحداث الجسام فيما انشغلوا بتدوين حوادثها وأخبارها.

لقد أفادت مجموعتان من هذه الأحداث هما: الطاهريون في خراسان، وقادة الجند في سامراء ؛ فأطلقت أيدي الطاهريين في خراسان بلا منافس في الأقاليم المجاورة[٢]، في وقت تضاءلت سطوة الخليفة بعد موت مازيار والأفشين. لقد أصبح القادة الأتراك الجدد وحدهم هم المقربين من المعتصم بعد التصفيات المتتابعة التي نفذها المعتصم، وأصبح هؤلاء القادة وقواتهم هم القسم الوحيد في الجيش الذي يعتمد عليه

(١) CF. Gibb: **Studies**, pp. 151-64.

(٢) إبن الفقيه: البلدان، ص ٣١٩ يورد مقتل المازيار وأخذ طبرستان ليحكمها عبدالله بن طاهر وإبنه طاهر من بعده.

المعتصم، لذلك لم يكن غريباً أن يسطع نجم أشناس في وقت غربت فيه شمس الأفشين. ففي العام نفسه كان أشناس هو الذي ينوب عن المعتصم حين غاب الخليفة في السند، وفي العام نفسه أجلس المعتصم بنفسه أشناس على كرسي وتوجه[1]، وفي العام التالي ٢٢٦هـ/ ٨٤٠-٨٤١م خرج أشناس حاجاً فكان له حكم كل مدينة دخلها منذ مغادرته سامراء حتى دخل مكة والمدينة، وصار اسمه يذكر في خطبة الجمعة[2].

بينما بدأ عصر القادة العسكر الأتراك يتجذر في قلب الخلافة كان صعود نجم الطاهريين في خراسان يتأكد. وفي شمال أفريقية كان حكم الأغالبة من عاصمتهم القيروان أكثر ثباتاً من حكم الطاهريين، إذ كانت عائلة الأغالبة قد تمترست في ديارها تلك منذ أيام هرون الرشيد. ولما كانت ولاية افريقية تحت حكم الأغالبة بعيدة عن الخليفة في العراق فقد استقلّت تماماً عن بغداد إلاّ من الاسم. وفي عهد المعتصم آل حكم الولاية من زيادة الله بن إبراهيم إلى أخيه أغلب في عام ٢٢٥هـ/ ٨٣٩ -٨٤٠ م ، ومن الأغلب آل الحكم إلى ابنه «أبو العباس» في عام ٢٢٦ هـ / ٨٤٠-٨٤١م[3]، وقد تميزت تلك الفترة بانشغال الأغالبة بهجمات بحرية على صقلية، وعلى الأسطول

(١) الطبري: ص ١٣٠٢ ـ يروي أن المعتصم في ربيع الأول من عام ٢٢٥ هـ أجلس أشناس على كرسي وتوجه وقلده قلادة تشريف.

(٢) الطبري: ص ١٣١٨-١٣١٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٣٥٠-٣٥١ .

البيزنطي في ناحيتها، وهناك أخبار تروي بأنهم كانوا في الوقت نفسه يدافعون عن الخلافة العباسية في مواجهة أعدائها من الأمويين في أسبانيا وحلفائهم في شمال افريقيا[(١)]. ولكن تلك الروايات لم تحظ بالذكر لا عند الطبري ولا عند المسعودي أو اليعقوبي عندما أرخوا لعهد المعتصم، كما لم تظهر أية معلومات توضح الصلة بين المعتصم وولاته على أفريقية. وحتى إبن خلدون لم يأت على ذكر لهذا الموضوع حينما أرخ لعهد المعتصم[(٢)]. لقد كان هؤلاء المؤرخون يهتمون في الجملة بالأحداث المتصلة مباشرة بالخليفة وقواته في وقت كان الأغالبة بعيدين عن هذه الأحداث.

أما سوريا التي كانت منطقة دائمة الاضطرابات تحت حكم العباسيين بميولها الأموية، وبدوها الرحل، فقد بدت هادئة نوعاً ما في عهد المعتصم إلاّ ما كان من أمر ثورة المبرقع التي أشرنا إليها آنفاً. ولكن بعد وفاة المعتصم مباشرة وعند تولي الواثق واجهت سوريا الخليفة الجديد بثورة خطرة أججها القيسيون في منطقة دمشق، ولكن تلك الثورة أخمدت بسرعة بوساطة القوات نفسها التي قضت على ثورة المبرقع[(٣)].

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٦، (مصدر سابق).

(٢) ربما يرى البعض أن ابن الأثير كان سيسير على المنوال ذاته لولا إحساسه بعالمه الكبير وأثر الحروب الصليبية عليه.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٣٧٦؛ ابن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٤٧٣. الطبري لا يذكر هذا.. CF. Kennedy, Central Government and Abbasid Elites..

إن من أهم الأحداث التي ينبغي الإشارة إليها، ونحن نعالج أخبار الولايات ومع صعود نجم العسكر، هو التطور الذي حدث في مصر. ففي عهد المعتصم كانت مصر مسرحاً لثورات خطرة أسهم فيها العرب والأقباط على حد سواء[1]. كان لكل من المعتصم والأفشين دور بارز في إخماد تلك الثورات. فولاية مصر في عهد المعتصم كانت أولاً لحيدر بن نصر السُغدي، ومن بعده لابنه مظفر الذي تولاها في عام ٢١٩هـ/ ٨٣٤-٨٣٥م[2]. والمهم هنا أن الكندي والمقريزي يسجلان أن المعتصم كان قد أصدر أوامره إلى حيدر السغدي بإزالة أسماء العرب من سجلات الديوان في مصر وأن يوقف دفع العطايا التي كانوا يتلقونها من الدولة[3]، وقد وضع هذا الأمر موضع التنفيذ في عام ٢١٩هـ/ ٨٣٤-٨٣٥م. ولكن العرب قاوموه[4]. ويعلق المقريزي على ذلك بأن الأيام الذهبية للعرب في مصر قد ولت بسبب تلك الاجراءات، ومن ثم صارت الجيوش في مصر في عهد المعتصم تشكل من غير العرب ومن الموالي[5].

(١) الطبري: الأعوام ٢١٤-٢١٦ هـ، المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٣٣٤-٣٤٠؛ الكندي: الولاة، ص ١٨٥-١٨٧؛ Lapidus, **The Conversion of Egypt to Islam**, p. 256-259.

(٢) الكندي: الولاة، ص ١٩٦.

(٣) المصدر نفسه؛ ص ١٩٣؛ المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٣.

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٤٣.

(٥) المصدر نفسه؛ CF. Kennedy, note 141, above.

إن أهمية هذه الحقبة من تاريخ مصر كولاية عباسية لا يحتاج إلى بيان، إذ إن سوء العلاقة بين العرب المحليين والعناصر المسلمة الأخرى في مصر والأقباط مع حكامها المعينين من العراق أدى إلى أن تفقد تلك العناصر الحاكمة السند المحلي لتعتمد على القوات المجلوبة أساساً من الولايات الشرقية للخلافة العباسية. وهو موقف مماثل تماماً لما وجد الخليفة نفسه فيه في العراق. ومع الدعم المناسب من العراق كان العسكريون من ذوي الطموح وبعد النظر ييممون شطر مصر. وحينما كانت تؤول إليهم السلطة كانوا يسعون لتأسيس أسر حاكمة لهم(١)، تأسياً بمن سبقهم من أسر الأغالبة والطاهريين. كان الفرق الجوهري يتمثل في أن الجنود في مصر ـ كما أشار إلى ذلك المقريزي ـ ينحدرون من أصول أجنبية مثلهم مثل أولئك الذين كانوا يقفون إلى جانب الخليفة في العراق. بيد أن هذا حدث لاحقاً بعد المعتصم.

لقد ظلت مصر خلال الفترة القصيرة من حكم المعتصم هادئة بعد عام ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ -٧٣٥م، وكذلك كانت اليمن. أما الحجاز فقد ظلت هادئة لحقب طويلة، وفيما عدا أهمية الأماكن المقدسة في مكة والمدينة لم يكن لمنطقة الحجاز ما تقدمه سوى القليل، وربما لم تقدم شيئاً خلال هذه الفترة المضطربة.

(١) E.I.(2), S.V. Ahmad b. Tulun; E.I.(1), S.V.,Ikhshidids.

الفصل السادس

خاتمة

في يوم الخميس التاسع من ربيع الأول من عام ٢٢٧هـ الموافق لليوم السادس من يناير عام ٨٤٢م، خُتم عهد المعتصم. ففي صباح ذلك اليوم، توفّي المعتصم وطويت صفحة حياته. إن الصعوبة التي واجهها المؤرخون للتثبت من تاريخ ميلاد المعتصم لم تكن لتواجههم في التثبت من تاريخ وفاته، إذ إن المصادر قد أجمعت على تحديد ذلك التاريخ[١].

يذكر الطبري والمسعودي أن المعتصم ظل مريضاً على مدى شهر بعد أن اعتلّ بعد احتجامه أوّل العام في المحرم. وقد

(١) أبو تمام؛ البستاني: منتقيات، ص ١٠٥؛ اليعقوبي: التاريخ، ج ٣، ص ٢٠٤؛ البلدان، ص ٣٩؛ ابن قتيبة: المعارف، ص ٢٢٦-٢٢٧؛ الدينوري: الاخبار، ص ٤٠١؛ الطبري: ص ١٣٢٢؛ E.M., p. 126؛ المسعودي: المروج، ج ٧، ص ١٤٤؛ التنبيه، ص ٣٥٣؛ السيوطي: ص ١٣٣؛ ابن كثير: البداية، ص ٢٥٩؛ المحبر: ص ٤٢؛ ابن عبد ربه: العقد، ج ٣، ص ٥٥. انظر أيضاً الفصل الثاني من هذا الكتاب Bar Hebreaus, I p. 140; gives the year as 843;E.M.,P. 126 ; gives the date of that Tuesday as the 18 th /5 th. According to Cattenoz, Tables, it was the 19 th /6 th . .

تحسّنت حالته نوعاً ما في الليلة السابقة لوفاته، ومن ثم أمر بإعداد سفينته الزلال لتخرج به في نزهة على نهر دجلة صحبه فيها الزمار زنام. وطلب شراباً وظل يشرب وهو يصغي إلى مزمار زنام، وصادف أن كانت الألحان حزينة وباكية.

يورد الطبري:

«.. ذكر محمد بن أحمد بن رشيد عن زُنَام قال: قد وجد المعتصم في علته التي توفي فيها إفاقة، فقال: هيّئوا لي الزلال لأركب غداً. قال: فركب وركبت معه فمرّ في دجلة بإزاء منازله فقال: يا زنام زمر لي.

يـا منـزِلاً لـم تَـبْـلَ أطـلالُـهُ
حـاشَـى لأطـلالِـكَ أن تـبْـلـى

لـمْ أبـكِ أطـلالَـكَ لـكـنَّـنـي
بـكَـيْـتُ عـيـشِـي فـيـكَ إذْ يـبـلـى

والـعـيـشُ أوْلـى مـا بـكَـاه الـفَـتَـى
لابـدَّ لـلـمـحـزونِ أن يـبْـلَـى

.. وذكر عن غيره أنه جعل يقول إني أخذت من بين هذا الخلق..»[1]

وظل المعتصم يبكي وينتحب طوال تلك الرحلة ويمسح دموعاً غزاراً بلّلت خديه. وبعد ساعتين من منتصف الليل قضى

(١) الطبري: ص ١٣٢٢-١٣٢٤.

المعتصم نحبه، وقُبِر في سامرّاء في قصره الجوسق، وقد كان من أشهر قصوره[1]. ويروي الدينوري أن أحمد بن أبي دؤاد هو الذي صلّى عليه، بينما تقول روايات أخرى إن الذي صلّى عليه كان ابنه وخليفته الواثق[2].

امتد عهد المعتصم لثماني سنوات وثمانية أشهر ويومين وفقاً للتقويم الهجري، وامتد لثماني سنوات وثلاثة أشهر وثمانية وعشرين يوماً وفقاً للتقويم الميلادي[3]. أما عمره عند وفاته، فقد كان بين السادسة والأربعين والثامنة والأربعين، إذ إن تاريخ مولده لم يكن مؤكداً[4]. وإذا كانت حسابات الطبري لا تبلغ بعمره عند وفاته إلى الثامنة والأربعين، إلاّ أن بعض مصادر، ومن ضمنها الطبري نفسه، قد ظلّت تشير إلى أنه قد مات في تلك السن. والسبب في ذلك هو أن الرقم (٨) كان يتّفق تماماً مع اسم المثمن الذي أعطي له. ويبدو أن اسم «المثمن» هذا ألصق به بعد وفاته، ويبدو أنه من غير الممكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك. إن سبب التسمية يجد له مبررات عند مختلف المصادر بدءاً من الإشارة إلى تاريخ ولادته، وتاريخ تولّيه الخلافة، وتاريخ وفاته، وعمره، ومدة حكمه، وعدد بنيه، وكونه

(١) الطبري: ص ١٣٢٢ ـ ١٣٢٤. اليعقوبي: التاريخ، ج ٣، ص ٢٠٤؛ المسعودي: ج ٧ ص ١٤٤؛ خليفة: تاريخ، ص ٥١٨.

(٢) الدينوري؛ اليعقوبي؛ المحبر؛ ابن عبد ربه. انظر: هامش رقم ١ من هذا الفصل.

(٣) تختلف المصادر في عدد الأيام. والمذكور هنا يشمل يومي التخليف والوفاة.

(٤) الطبري: ص ١٣٢٢ ـ ١٣٢٤.

الخليفة العباسي الثامن، ومن الجيل الثامن لأحفاد العباس، وعدد حملاته العسكرية وغزواته. وفي معظم الأحيان، كانت تلك الأسباب تصل إلى ثمانية أسباب إلاّ عند الفخري، فإن أحد عشر سبباً قد أوردت كسبب للتسمية[١].

وُصف المعتصم بأنه كان رجلاً ربعة في الطول، مع قوام متناسق وقوي، وبنية متماسكة مع جمال وجهه وجمال عيونه، ولم يلمّ به شيب، مع لحية طويلة. وقيل عنه إنه كان شجاعاً، كريماً، نبيلاً، متواضعاً، ليّن العريكة، محبوباً. ولكنهم وصفوه بأنه عندما كان يغضب لم يكن يبالي بمن يقتل ولا بما يفعل. وكان متلافاً يهوى المباني الضخمة ويدفع بسخاء لإعداد حملاته العسكرية. وابن حمدون يروي أنه ما من أحد كان في مثل يقظة وانتباه المعتصم في ميدان المعركة[٢]. ولكن المصادر تسعف بالقليل عن المعتصم الرجل وعن المعتصم الخليفة[٣]. فمرة يروي الطبري عن قصة شيخ مسن واجه المعتصم، بكلمات جافة وغاضبة وهو يحتج على سلوك قوات المعتصم، ولمّا حاول حرس المعتصم إسكاته، سارع المعتصم إلى حمايته واستمع إلى شكوى الشيخ صابراً ثم مضى لحاله. وفي مكان آخر، يروي الطبري أنه أثناء حملة ضد بيزنطية تحتّم على المعتصم ومرافقيه عبور نهر، فأوقف المعتصم أعوانه وخاض في مياه النهر ليجد

(١) الأسباب المذكورة لتسميته المثمن ومنها مدة خلافته وعمره وأعماله تؤكد أنه لم يكن يسمى بذلك إبان حياته.

(٢) انظر: هامش رقم ١ من هذا الفصل.

(٣) CF.E.M., pp.xvi-xvii.

معبراً مناسباً وكفى أتباعه شر المخاطرة[1]. والمسعودي يروي حادثة لقي خلالها المعتصم رجلاً كان يجد صعوبة في وضع حمل ثقيل من العشب على ظهر حماره، إذ إن ذلك الحمل كان قد سقط في أرض موحلة مما جعله ثقيلاً ولم يقوَ الرجل على حمله، ورغم الأقذار التي لحقت بالعشب سارع المعتصم، ولدهشة الرجل رفع العشب ووضعه على ظهر الحمار[2]. أما التنوخي فقد ألقى بعض الضوء على شخصية المعتصم الأب، وقال إن المعتصم كان حريصاً على أن يرى ابنه هارون الواثق متعلماً تعليماً مناسباً، لكن لم يكن يريد له أي يُعاقَب بشدة حين تلقي الدروس. وحادثة أخرى تظهر المعتصم حريصاً على ألا يغدق على الواثق كثير مال لينفقه[3].

بتبيّن دوره في الأحداث التي حفل بها عهده، كما وصفناها، يتضح جلياً أن المعتصم كان قائداً عسكرياً مقتدراً وإن كان سريع الغضب. كما تميّز بعادات بذخية، وحباً للمباني الفخمة[4]، وعلى العكس من حكم إلما مارن عليه، فإن المعتصم لم يكن متعصباً كما لم يكن معتزلياً، وإن كان ابن المرتضى قد عدّه كواحد من قادة المعتزلة[5]. وبوفاة المعتصم، انقضت الفترة الأولى من عصر العزلة[6]، وجاء تولي ابنه البكر

(١) الطبري: ص ١١٨١، ١٣٢٦.
(٢) المسعودي، ج ٧، ص ١٣٣-١٣٤.
(٣) التنوخي: نشوار، ج ٨، ص ١٣-١٤؛ ابن العبار: أعتاب، ص ٥٩.
(٤) انظر: الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب.
(٥) ابن المرتضى: طبقات، ص ١٢.
(٦) انظر: الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب.

هرون الواثق للخلافة في الفترة من (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٣٧م) كانتقال طبيعي لم تصادفه معارضة، ولم يحظَ باحتفال. ومع أنه لا يوجد ما يؤكد أن أباه عهد إليه بالخلافة، فقد كانت هناك أدلة كافية تدل على أنه قصد بتولي الخلافة بعد والده، ففي مناسبات متعددة كان يأتي نائباً عن والده. وخلو المصادر من إشارة إلى توليته ولاية العهد رسمياً لا يعني بالضرورة على أن ذلك لم يحدث مطلقاً، وحتى لو كان الأمر كذلك فربما كان بسبب وفاة المعتصم المفاجئة[١].

إن الذي يستحق التنويه به هو أن الأمر كله ـ موت المعتصم وتولي الواثق ـ ورد في كتب التاريخ بصورة مغايرة لما ماثله من أحداث شهدتها بغداد. لقد ساد شعور بالبعد وعدم الاهتمام لدى البغداديين، فبانتقال العاصمة إلى سامرّاء، صارت مسألة ولاية العهد أمراً محلي الاعتبار لا يثير كبير اهتمام مادام ذلك غير مصحوب بأحداث جسام كما صار يحدث لاحقاً. يضاف إلى ذلك أن رواة الأخبار كانوا بعيدين وغير منشغلين بما يحدث في سامرّاء، وهي التي لم تصبح وقتها ولا بعده عاصمة ثقافية مثل بغداد أو القاهرة أو دمشق أو مثل مدن أخريات. إن البلاط في سامرّاء لم يعد مركز التطوّر الثقافي، وإن انحطاط

(١) الطبري : ص ١٨٠، ١٢٢٩، ١٣١٥؛ E.M.. pp. 16,53,120؛ الكامل، ج ٦، ص ٣١٩؛ ابن خلدون: العبر، ج ٢، ص ٢٥٧؛ CF.A. Chejinc: Succession, p. 141؛ أبو تمام؛ البستاني: منتقيات، ص٨٩، يشير إلى المعتصم ليعقد ولاية العهد للواثق. ودعبل: المنتقيات، ص ١٢٤ ـ يشير إلى أن المعتصم عاش حتى بايع للواثق.

الخلافة سياسياً وسلطوياً، مثله مثل عهد «نهاية الدولة»، الذي يدّعي الماركسيون أنه يحدث حينما تتحقّق الشيوعية، قد وقع فعلاً في وقت كانت فيه الحضارة الإسلامية في أوج عظمتها[1]. لقد ساد الدين ورسخت الشريعة وكانت مرجعيتها العلماء لا الخلفاء. ذلك محصلة المحنة وموقف أحمد بن حنبل الذي انتهى بإيقاف المحنة في عهد المتوكل. وبعد الخلفاء الراشدين، لم يعد الخلفاء هم المرجعية وإنما العلماء. وكانت الأمة التي لا تجتمع على ضلالة هي المرجعية بعد القرآن والسنة. لم تبعد الخلافة عن الدين ولكن مرجعية الدين أبعدت عن الخلافة: الدين والدولة والدين.

انحدر كل الخلفاء العباسيين من بعد المعتصم من نسله، ولكن مع ذلك فإن المدينة الحصينة التي بناها المعتصم لم يطل العهد بها كعاصمة، فثمانية من الخلفاء فقط هم الذين حكموا من سامرّاء بمن فيهم المعتصم في خلال الفترة من ٢٢١ ـ ٢٧٨ هـ/ ٨٣٦ ـ ٩٨٢م.

يقول اليعقوبي في كتاب البلدان:

«فلنذكر الآن سرّ من رأى، وأنها المدينة الثانية من مدن خلفاء بني هاشم، وقد سكنها ثمانية خلفاء منهم المعتصم وهو

(١) CF. Mez: Die Renaissance des Islams; B.Lewis, The Arabs in History; Gibb, Interpretation;Goitein, The Rise; Shaban, Islamic History; Souedel, Medieval Islam; Kennedy, The Prophet and the Age of the Caliphates; فاروق عمر: الخلافة العباسية.

ابتدأها وأنشأها، والواثق وهو هرون بن المعتصم، والمتوكل جعفر بن المعتصم، والمنتصر محمد بن المتوكل، والمستعين أحمد بن محمد بن المعتصم، والمعتز أبو عبدالله بن المتوكل، والمهدي محمد بن الواثق، والمعتمد أحمد بن المتوكل....».

إن الصعوبات والمشاكل التي واجهت الخلافة العباسية خلال أقل من ستة عقود من الزمان منذ قيامها، لم تكن محصورة فقط في الثورات المتعددة، ولا الانتفاضات، ولا قيام أسر حاكمة في الشرق والغرب، بل شمل ذلك العاصمة نفسها حيث تعاقب الخلفاء في فترات قصيرة لكل عهد. وفي البيت الحاكم نفسه، وُجد الابن يتآمر على أبيه والأخ على أخيه طمعاً في الخلافة. وكان تدخل القادة العسكريين ووحدات القوات المختلفة في تلك الأحداث نتيجة للأوضاع المحلية بمثل ما كان نتيجة للتطوّر العام في ذلك العصر[1]. كان القادة العسكر هم الذين عملوا على تنصيب المتوكل بعد الواثق في الفترة من ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م. وكان المنتصر، ابن المتوكل وولّي عهده الذي حكم لعام واحد بعد والده هو الذي تآمر مع حرس والده الخليفة وقتله. وإذا كان الخليفة المتوكل هو أوّل خليفة عباسي يلقى ذلك المصير، فإنه لم يكن الأخير.

إن القادة الأتراك لم يكتفوا فقط بتنصيب الخلفاء أو عزلهم، أو بالتآمر مع بعض أفراد العائلة الحاكمة لهذا الغرض أو ذاك،

---

(١) انظر الفصلين الرابع والخامس معاً من هذا الكتاب.

ولكنهم كانوا يسعون بحرص للحصول على سلطات مدنية أيضاً ليكونوا كتّاباً أو وزراء أو ولاة. وفي عهد الخليفة المستعين في الفترة من ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦م، صار القائد التركي أتامش وزيراً. وعندما قرّر المعتمد بالله ـ الذي تولّى الخلافة خلال أعوام ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٠م كآخر خليفة يحكم من سامرّاء ـ أن يرتحل من سامرّاء إلى بغداد، كانت الخلافة العباسية وقتها قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق الانحلال، ولم تجد العودة إلى بغداد فتيلاً. لقد استمرت الاضطرابات، واستمر عجز الموارد المالية، وزاد اقتطاع الخلافة من أطرافها. وفي عام ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م، صار استسلام الخليفة العباسي لقادة عسكره الأتراك كاملاً تقريباً. ففي ذلك العام، أنعم الخليفة العباسي الراضي بلقب أمير الأمراء على ابن رائق، وبذلك صارت لابن رائق ذاك كامل السلطات العسكرية والمدنية التي كانت للخليفة، وصار اسمه يأتي مقروناً باسم الخليفة في خطبة الجمعة(١)، وهكذا أُفرغت الخلافة من معناها بعد أن كانت تفقد دورها بالتدريج.

وأظل الناس عهد العسكر وبدت واضحة ثلاثيّة تمثّل الحكم في العصور العباسية هي «الخلافة» و«السلطة» و«الدولة». وهذا ما سنفرد له دراسة خاصة إن شاء اللّه(٢).

---

(١) Shaban, Islamic History II,pp. 137-158؛ فاروق عمر: الخلافة العباسية، ص ٩٩، ١٠٧.

(٢) عثمان سيد أحمد اسماعيل البيلي: ثلاثية الحكم في الخلافة العباسية (سيصدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر).

المصادر الأولية

١ ـ ابن الأثير عز الدين أبو الحسن: الكامل ج ٦، تحقيق تورنبرج، ليدن، ١٨٨٦ ـ ١٨٧١.

٢ ـ ابن اصفنديار: تاريخ طبرستان. انظر Ibn Isfandiyar, History of Tabaristan, E.G. BROWN, LONDON, 1905.

٣ ـ أبن بلدرون: شرح قصيدة ابن عبدون، تحقيق دوزي، ليدن ١٨٤٨.

٤ ـ ابن حمدون، بهاء الدين محمد، تذكرة ابن حمدون، القاهرة ١٩٢٧.

٥ ـ ابن حوقل: المسالك والممالك، تحقيق دي خويه، ليدن ١٨٧٣.

٦ ـ ابن خرداذية، عبيد الله: كتاب المسالك، تحقيق دي خويه، ليدن ١٨٨٩.

٧ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر، المقدمة وج ٣، القاهرة ١٨٦٧.

٨ ـ ابن خياط، خليفة: تاريخ خليفة بن خياط، ج ١، تحقيق أكرم العمري، النجف ١٩٦٧.

٩ ـ ابن حوقل: المسالك والممالك، تحقيق دي خويه، ليدن ١٨٧٣.

١٠ ـ ابن رستة، أبو علي أحمد: الأعلاق النفيسة، تحقيق دي خويه، ليدن ١٨٩٢.
١١ ـ ابن سلام، القاسم: كتاب الأموال، تحقيق محمد حسن الفقي، القاهرة، ١٩٣٥.
١٢ ـ ابن الطقطقي، محمد بن علي: كتاب الفخري، تحقيق ديرنبرج، باريس ١٨٩٥.
١٣ ـ ابن العبار، محمد عبد الله القضاعي: أعتاب الكتاب (مخطوط: المتحف البريطاني B.M.or.6641).
١٤ ـ أبن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢و٣، القاهرة ١٩٣٥.
١٥ ـ ابن الفقيه، أبو بكر الهمذاني: كتاب البلدان، تحقيق دي خويه، ليدن ١٨٨٥.
١٦ ـ ابن قتيبة، أبو محمد: كتاب المعارف، تحقيق وستنفلد، توبنجن ١٨٥٠؛ عيون الأخبار، ج ١و٢ القاهرة ١٩٢٥، ١٩٢٨؛ رسالة في الرد على المعتزلة، مخطوط SOAS, sg.V. 411,91632.
١٧ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، القاهرة ١٩٣٢.
١٨ ـ ابن مسكويْه، أبو علي: تجارب الأمم، تحقيق دي خويه، ليدن ١٨٧١.
١٩ ـ ابن المرتضى، أحمد محمد بن يحيى: طبقات المعتزلة، تحقيق ولتزر، بيروت ١٩٦١.
٢٠ ـ ابن منظور، محمد: لسان العرب، بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦.
٢١ ـ ابن النديم: الفهرست، تحقيق فلوقل، لينبرج، ١٨٧١ ـ ١٨٧٢.

٢٢ ـ أبو العرب، محمد بن أحمد: كتاب المحن، تحقيق يحيى جبوري، ليدن ١٩٨٣.

٢٣ ـ أبو الفرج العبري، BAR-HEBRAEUS : CHRONOGRAPHY, VOI, X. A. WALIS BUDGE, LONDON, 1932.

٢٤ ـ الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد: تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة ١٩٦٧.

٢٥ ـ الأشعري، أبو الحسن بن اسماعيل: مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق ريتر، اسطنبول ١٩٢٩.

٢٦ ـ الاصطخري، أبو اسحق ابراهيم: كتاب المسالك والممالك، تحقيق محمد جمال الحيني، القاهرة ١٩٦١.

٢٧ ـ الأصفهاني، أبو الفرج: كتاب الأغاني، القاهرة ١٨٦٨؛ مقاتل الطالبيين، القاهرة ١٩٤٩.

٢٨ ـ الأصفهاني، أبونعيم أحمد: حلية الأولياء، القاهرة ١٩٣٨.

٢٩ ـ البحتري: ديوان البحتري، اسطنبول ١٨٦٣.

٣٠ ـ البغدادي: أبو منصور عبدالقاهر: كتاب الفرق بين الفرق، تحقيق محمد بدر، القاهرة ١٩١٠.

٣١ ـ البلاذري، أحمد بن يحيى: كتاب فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦.

٣٢ ـ البلعمي: انظر BALAMI.

٣٣ ـ التنوخي، محسن بن علي: الفرج بعد الشدة، القاهرة ١٩٠٣؛ نشوار المحاضرة، تحقيق مارغوليوث، لندن ١٩٢١، دمشق ١٩٣٠.

٣٤ ـ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل: لطائف المعارف، تحقيق دي يونغ، ليدن ١٨٦٧.
٣٥ ـ الجاحظ: رسالة في النابتة، تحقيق فان فلوتن، باريس ١٨٩٧؛ التبصر بالتجارة، القاهرة ١٩٣٥؛ نفي التشبيه، المشرق ١٩٥٣؛ خلق القرآن؛ مناقب الترك، في رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هرون، القاهرة ١٩٧٩؛ أبو عثمان عمرو بن بحر: البخلاء، تحقيق طه الهاجري، القاهرة ١٩٣٨؛ البيان والتبيين، القاهرة ١٩٤٠؛ الحيوان، القاهرة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧؛ ثلاث رسائل (١) الرد على النصارى (٢) ذم أخلاق الكتاب (٣) رسالة في القيان، تحقيق فنكل، القاهرة ١٩٢٦.
٣٦ ـ الجهشياري، محمد بن عيدوس، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٣٨.
٣٧ ـ الخياط، أبو الحسن المعتزلي: كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي، تحقيق أ. ن. نادر، بيروت ١٩٥٧.
٣٨ ـ الخوارزمي، عبد الله: مفاتيح العلوم، تحقيق فان فلوتن، ليدن ١٨٩٥.
٣٩ ـ الدينوري، أبو حنيفة أحمد: كتاب الأخبار الطوال، تحقيق جورفاس، ليدن ١٨٨٨.
٤٠ ـ السيوطي، جلال الدين: أخبار الخلفاء، القاهرة ١٨٨٧.
٤١ ـ الشهرستاني، محمد بن علي: كتاب الملل والنحل، تحقيق و. فورتون، لايبزج ١٩٢٣.
٤٢ ـ الصولي، أبو بكر محمد: أدب الكتاب، تحقيق م. ب. الأثري، القاهرة ١٩٢٣.

٤٣ ـ الطائي حبيب بن أوس، أبو تمام: الديوان، بيروت ١٩٠٥.

٤٤ ـ الطبري، علي بن ربن: كتاب الدين والدولة، تحقيق منقانا، القاهرة ١٩٢٣.

٤٥ ـ الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، المجموعة الثالثة، تحقيق دي خويه، ليدن ١٩٠١. انظر أيضاً: BAL AMI , E.MARIN.

٤٦ ـ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صبح الأعشى، القاهرة ١٩١٦.

٤٧ ـ القمي، حسن بن محمد: تاريخ قم، طهران ١٩٣٥.

٤٨ ـ الكندي، أبو عمر بن محمد: كتاب القضاة، تحقيق قوتهايل. ج. ن. ريتشارد، باريس ١٩٠٨؛ كتاب الولاة والقضاة، تحقيق قست، ليدن ١٩١٢.

٤٩ ـ المسعودي، أبو الحسن بن علي بن الحسين بن علي: كتاب التنبيه والإشراف، تحقيق دي خويه، ليدن ١٨٩٤؛ مروج الذهب، تحقيق وترجمة للفرنسية دي كورتي ومينارد، باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧.

٥٠ ـ المقريزي، تقي الدين: خطط المقريزي، تحقيق قاستون فايت، باريس ١٩١١.

٥١ ـ الهاشمي، محمد بن حبيب: كتاب المحبر، تحقيق لشتنستيدر، حيدراباد الد كن ١٩٤٢.

٥٢ ـ اليعقوبي، أحمد بن واضح: كتاب البلدان، تحقيق جيونبول، لندن ١٨٦١؛ التاريخ، النجف ١٩٣٩.

٥٣ ـ بهبيتي، نجيب: أبو تمام الطائي، حياته وحياة شعره، القاهرة ١٩٤٥.

٥٤ ـ دعبل بن علي الخزاعي: ديوان دعبل، تحقيق زولندك كنتكي ١٩٦١.

٥٥ ـ طيفور، أحمد بن أبي طاهر: كتاب بغداد ج ٦، تحقيق كلر البينرج ١٨٩٨، الكوثري، القاهرة ١٩٤٩.

٥٦ ـ قدامة بن جعفر: كتاب الخراج، تحقيق دي خويه، ليدن ١٨٨٩.

٥٧ ـ ياقوت الحموي، أبو عبد الله: معجم البلدان، تحقيق وستنفلد، ليبزج ١٨٦٦.

٥٨ ـ يحيى بن آدم: كتاب الخراج، تحقيق بن شمس، ليدن ١٩٥٨.

٥٩ ـ يعقوب بن ابراهيم الكوفي، أبو يوسف: كتاب الخراج، القاهرة ١٩٣٣.

المصادر الثانوية (المراجع)

١ ـ أحمد أمين: ضحى الاسلام، القاهرة ١٩٤٣.

٢ ـ الرفاعي، أ ـ ف: عصر المأمون، القاهرة ١٩٢٨.

٣ ـ بشير ف. و م. علي: جامع أبي دلف في سامراء، ١٩٤٧.

٤ ـ بطرس البستاني: منتقيات أدباء العرب في العصور العباسية بيروت ١٩٤٨.

٥ ـ زهدي حسن جار الله: المعتزلة، القاهرة ١٩٤٧.

٦ ـ عبد الحسين علي احمد: مواقف الخلفاء العباسيين من أهل السنة الأربعة، الدوحة ١٩٨٥.

٧ ـ عبد العزيز الدوري:

ـ العصر العباسي الأول، بغداد ١٩٤٥.

ـ دراسات في العصور الاسلامية المتأخرة، بغداد ١٩٤٨.

ـ نشوء الأصناف والحرف في الاسلام، (مجلة كلية الآداب، بغداد ١٩٥٩).

٨ ـ فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ٢٤٧ ـ ٣٣٤هـ/ ٨٦١ ـ ٩٤٦م، بغداد ١٩٧٧.
ـ عباسيات، بغداد ١٩٧٦.
٩ ـ محمد ضياء الدين الريس: الخراج، القاهرة ١٩٥٧.
١٠ ـ محمد كرد علي: رسائل البلغاء، القاهرة ١٩٣٤.
١١ ـ ميخائيل عواد: دير قنى، (المشرق، عدد ٣٧، بيروت ١٩٣٩).

12 - ALI, S.A. EL-, **The Foundation of Baghdad**, in Hourani and Stern (eds), **The Islamic City**, Oxford, 1970.

13 - ANAWATI, M.M. See Gardet.

14 - ASHTOR, E. **Essai sur les Prix et les Salaires dans l'empire Califien**, RSO, XXXVI, 1961.

15 - ASHTOR, E. **Histoire des Prix et des Salaires dans l'Orient medieval**, Paris, 1969.

16 - AYALON, D. **Prelimary Remarks on the Mamluk Military Institution in Islam**, in V.J. Parry and Yapp (ed.) War, **Technology and Society in the Middle East**, London. 1875.

17 - AYALON, D. **The Military Reforms of al- Mutasim: Their background and consequences**. Unpublished, Library of the School of Oriental and African Studies,, London.

18 - BARTHOLD, K. **Histoire de Turcs dAsie Centrale**, Paris, 1945.

19 - BARTHOLD, K. **Turkestan Down to the Mongol Invasion**, London, 1928.

20 - BECKER, C.H. **Islam Studien**, Leipzig, 1924.

21 - BOSWORTH, C.E. Recruits, muster and review in medieval Islamic Armies, in V.J. parry and M.E. Yapp (ed) War, **Technology and Society in Middle East**, London, 1975.

22 - BOWEN, H. **Life and Times of Ali b.** Isa, London, 1928.

23 - BROWNE, E.G. **Literary History of Persia**, London 1902.

24 - BUCAILLE, M. **La Bible, le Coran et la Science** Eng. Trans. A.D. Pannel and the author, Indianpolis, American Trust Publication. 1978.

25 - CAHEN, C., **Mouvements Populaires et l'Autonomisme Urbaine dans l'Asie Musulmane du Moyen Age**, I& II, Arabica V (1958) and VI (1959) .

26 - CAHEN, C., **The Turkish Invasion, in Setton and Waston (eds.) History of the Crusades**, Vol. I, New York, 1957.

27 - CANARD, M. **Deux Episodes des Relations Diplomatiques Arabo-Byzantine au Xe Siècle**. Bulletin d'études orientales (Damas), XIII, 1949-50.

28 - CANARD, M. **Les Expeditions des Arabes contre Constantinople dans** l'Histoire et dans la Legende, J.A.,1926.

29 - CANARD, M., **Chivalerie Arabe Dhat al-Himma wa-l-Battal**, Arabica, VIII.

30 - CANARD, M., **Quelques "a-cote" de l'Histoire des Relations entre Byzance et Arabes**. Studi orientalistici in onore de G. Levi della Vida, Rome 1956, vol. I, pp. 98-119.

31 - CATTENOZ, H.G. **Tables de Concordance des ères Chretienne et Hegirienne**, Rabat, 1961.

32 - CHEJNE, A. **Succession to the Rule in Islam**, Lahore, 1960.

33 - CRESWELL, K.A.C. **A Short Account of Early Muslim Architecture**, London, 1958.

34 -CRONE, P. **Slaves on Horses**, Cambridge, 1980.

35 - CRONE, P. and HINDS, M., **God's Caliph, Religious Authority in the First Centuries of Islam**, Cambridge, 1986.

36- DIETRICH, A. **Das Politische Testament des Zweiten Abbasidin-Kalifen al-Mansur' Der Islam, 1952.**

37 -DIMAND, M.S. **Samarrã the ephemeral**, Bull. N.Y. Metropolitan Museum of Art, 23, 1928.

38 -FRYE, D.R. and SAYILI, A.M., **Turks in Khurasan and Transoxania at the tim of the Arab Conquest**, MW 35,1945.

39 -FRYE D.R. and SAYILI, A.M., **Turks in the Middle East before the Seljuqs** JAOS, 63,1943.

40 - GABRIELI, F. **al-Mamun e gli Alidi**, Leipzig, 1929.

41 - GABRIELI, F. **La-Succession de Harun ar-Rashid e la guerra fra al-Amin e al-Mamun**, RSO, XI, 1928.

42 - GARDET, L. and ANAWATI, M.M. **Introduction à la Theologie Musulmane**, Paris, 1948.

43 - GIBB, H.A.R. **The Arab conquests in Central Asia**, London. 1923.

44 - GIBB, H.A.R. **An Interpretation of Islamic History**. see Gibb, **Studies**.

45- GIBB, H.A.R. **The Argument from Design**: A Mu' tazilite Treatise attributed to Jahiz in I. Goldziher, Mem. Vol. I.

46 - GIBB, H.A.R. **Government and Islam under the Early Abbasids: The Political Collapse of Islam, L'Elaboration de l'islam**, Paris, 1961-2.

47 - GIBB, H.A.R. **The Evolution of Government in early Islam**, see Gibb, **Studies**.

48 - GIBB, H.A.R. **The Social Significance of the Shu' ubiyya'**. See Gibb, **Studies**.

49 - GIBB, H.A.R. **Structure of Religious thought in Islam**. See Gibb, **Studies**.

50 - GIBB, H.A.R. **Studies on the Civilization of Islam**, London 1962.

51 - GOITEIN , D.S. **Turning Point in the History of the Muslim State**, in D.S. Goitein, **Studies in Islamic History and Intstitutions**, Leiden, 1966.

52 - GOITEIN, D.S **The Rise of New Eastern Bourgeoisie in Early**

Islamic Timeš in D.S. Goitein, **Studies in Islamic History and Intstitutions**, London, 1966.

53 - GREGOIRE, H., **Digenis Akritas et le Calife Mu' tasim**. Ann. Lit. Phil. Hist. Gr. 3., 1935.

54 -HAQ, M. Abdul. **The Historical Contents of Diwan of Abu Tammam** IC,14, 1940.

55 -HELL, Joseph. **Die Kultur der Araber**, Eng. Trans., **The Arab Civilisation**, London, 1925.

56 -HERZFELD, E. **Geschichte der Stadt Samarrã**. Hamburg, 1948.

57 -HINDS, M., See Crone P. and Hinds, M.

58 -HOLT, P.M. See B. Lewis.

59 -INOSTRANZEV, M. **Iranian Influece on Muslim Literature**, Eng. Trans. G.K. Norman, Bombay, 1910.

60 -ISMAIL, O.S.A., **Mu' tasim and the Turks**, BSOAS, XXIX, 1966.

61 - ISMAIL, O.S.A., **The Foundating of a New Capital**: Samarrã BSOAS, XXIX, 1968.

62 - KENNEDY, H. **The Prophet and the Age of the Caliphates**, London, 1986.

63 - KENNEDY, H. **The Early Abbasid Caliphate** London 1981.

64 - KENNEDY, H. **Central Government and Provincial elites in the early Abbasid Caliphate** BSOAS, 44, 1981.

65 - LAMBTON, A.K.S. **Landlord and Peasant in Persia**, Oxford 1953.

66 - LAMBTON, A.K.S. **An Account of the Tarikhi Qummi** BSOAS, 12, 1948.

67 - LAPIDUS, I.M. **The Conversion of Egypt to Islam**, Israel Or. St. 11,1972.

68 - LE STRANGE, G., **Baghdad during the Abbasid Caliphate**, London, 1924.

69 - LEWIS, B. **The Arabs in History**, London, 1950.

70 - LEWIS, B. **The Origins of Isma' ilism**, Cambridge, 1940.

71 - LEWIS, B. **An Arabic account of a Byzantine palace** revolution, B. Lewis, **Studies in Classical and Ottoman Islam**, London, 1976.

72 -LEWIS, B. **An Epistle of Manual Craft**, in B. Lewis, **Studies**, London, 1976.

73 - LEWIS, B. **Islamic Guilds**, Eco. Hist. Rev., 1937.

74 -LEWIS, B. **Some observations on the Significance of Heresy in the History of Islam**, in B. Lewis, **Islam in History**, London, 1973.

75 - LEWIS, B. and HOLT, P.M., **Historians of the Middle East**, London, 1962.

76 - LICHITENSTADTER, Iise., **From Particularism to Unity: Race, Nationality and Minorities in the Early Islamic Empire**, IC, 1949.

77 - MADELUNG, W. **New documents concerning al-Mamun. Al-Fadl b. Sahl and Ali al-Rida**, in Wadad al-Qadi (ed.) **Studia Arabic et Islmica**, Beirut 1981.

78 - MARIN, Elma. **The Reign of Mu'tasim 833-842**, trans from Tabari, New Haven, Connecticut, 1951.

79 - MARGOLIOUTH, D.S. **Lectures on Arabic Historians**, Calcuta, 1930.

80 - MASSIGNON, L. **La politique Islamo-Chretienne des Scribes Nestoriens de Dier Qunna à la coup de Baghdad au IX Siecle de Notre Ere**, Vivre et Penser, 1942.

81 - MEZ, A. **Die Renaissance des Islams**, Heidelberg, 1922.

82 - MIAH, S. **The Reign of al-Mutawakkil**, Dacca, 1969.

83 - NIZAM AL-MULIK, **The Siyasat Nama or Siyar al-Muluk**, Eng. Trans. H. Darke, London, 1960.

84 - NOELDEKE, T. **Sketches from Eastern History**, Eng. Trans. J.S. Black, London, 1892

85 - NORTHEDGE, A., **Planning Samarrā, Iraq, XLVII, 1985.**

86 - OSTROGORSKY, G. **History of the Byzantine State**, trans. J. Hussey, Oxford, 1956.

87 - PELLAT, C. **Le Milieu Basrien et la Formation de Jahiz**, Paris 1956.

88 -PELLAT, C. **Esai d' invetaire de l œuvre Jahiziennē**. Arabic III,1956.

89 - PELLAT, C. **The life and Works of Jahiz**, London, 1969.

90 - PELLAT, C., **Le Culte de Mu'awiya au siècle de L'hegire**, SI,VI, 1956.

91 - PLANHOL, X. de; **The Muslim World**, N. York, 1959.

92 - PLANHOL, X. de; **Les Fondaments Geogrphiques de l'histoire de I Islam**, Paris, 1968.

93 - PIPES, D. **Slaves Soldiers and Islam**, London, 1980.

94 - REKAYA, M. **La Place des Provinces Sud-Caspiennes dans l'histoire de l'Iran** RSO, 48, 1973-4.

95 -REKAYA, M. **Mise au Point sur Theophobe et l'Alliance de Babak avec Theophile** Byzantion, 44, 1974.

96 - REKAYA, M. Mazyar: **Resistance ou Integration d'Une Province Iranienne au Monde Muslman au Milieu de Ixe Siècle**, Studia, II, 1973.

97 - RICE, D.S. **Deacon of Drink**: **Some paintings from Samarrā re-examined Arabica**, V, 1960.

98 - ROGERS, J.M. **Samarra' Study in Medieval Town-Planning**, in Hourami and Stern (eds.) **The Islamic City**, Oxford, 1970.

99 -ROSENTHAL, F. **A History of Muslim Historiography**, London, 1952.

100 - SADIGHI, G.H. G.H. **Les Mouvements Religieux Iraniens au lle et au IIIe Siècle de l'hegire**, Paris, 1948.

101 - SCHACHT, J., **The Origins of Muhammadan Jurisprudence**, Oxford, 1950.

102 - SHABAN, M.A. **The Abbassid Revolution**, Cambridge, 1970.

103 - SHABAN, M.A. **Islamic History II, 750-1055**, Cambridge, 1971.

104 - SIDQI, Hamdi, **The Civil War between Amin and Mamun**, Thesis SOAS, London.

105 - SOURDEL, D., **Le Vizirat Abbaside de 749-936**, I, Damascus, 1959.

106 - SOURDEL, D., **La Politique religieuse de Calife Albaside al-Mamun**, Rev, des. Et. Islaiques, Vol., XXX, 1962.

107 - SOURDEL, D. **Medieval Islam**, trans . W.M. Watt, London, 1983.

108 - SPULER, B., **Geschichte der Islamichen Lander**, I, Leiden, 1952; Eng. trans. **The Muslim World: A Historical Survey, Part I, The Age of the Caliphs**, Leiden 1960.

109 - SPULER, B., **Iran in Fru-Islamischer Zeit**, Weisbaden, 1952.

110 -STEINER, H. **Die Mutazileiten oder die Freidenker in Islam**, Leipzig, 1865.

111 - TOLLNER, H., **Die Turkischen Garden am Kalifenhof von Samarrā** Walldorf-Hessen, 1971.

112 - VASILIEV, A.A. **Byzance et les Arabes**, I, 820-867, Brussels, 1935.

113 - VASILEV, A.A. **History of the Byzantine Empire**, I, 324-1453, Madison, 1958.

114 - VASILEV, A.A. **Description du Palais de al-Mutasim**, Paris 1909.

115 - VIOLET, S.H., **Un Palais Muselman de IXe Siècle**, Paris, 1911.

116 - WATT, W.M., **The Formative Period of Islamic Thought**, Edinburgh, 1973.

117 - WILSON, C.E. **The Wall of Alexander against Gog and Magog and the Expedition sent to by Khalif Wathiq in 842 A.D.** Hirth Ann. Vol. 1923.

118 - WITTECK, P., **Devshirme and Shari'a**, BSOAS, 17, 1955.

119 - WITTECK, P. **Turkentum und Islam**, Archiv fur Sozial Wissenschaft und Sozial Politik, Band 59, Heft 3, 1928.

120 - WRIGHT, E.M, **Babak of Badhdh and al-Afshin**, MW, 38, 1948.

121 - ZAEHNER, R.C., **The Dawn and Twilight of Zoroastrianism**, London, 1961.

122 - ZAHNISER, M., **Insight from the 'Uthmaniyya of al-Jahiz into the Religious Policies of al-Mamun**, MW, 69, 1979.

سلسلة تاريخ العرب والإسلام

صدر من هذه السلسلة:

- الفن العسكري الإسلامي — تأليف الدكتور اللواء الركن ياسين سويد
- في تاريخ إسبانيا الإسلامية — تأليف مونتغمري وات
- الخليج العربي، بحر الأساطير — تأليف قدري قلعجي
- صلاح الدين الأيوبي — تأليف قدري قلعجي
- هارون الرشيد — تأليف د. عبد الجبار الجومرد
- عمر بن عبد العزيز — تأليف د. صالح أحمد العلي
- المصباح المضيء في خلافة المستضيء — تأليف ابن الجوزي تحقيق د. ناجية عبد الله ابراهيم
- نكت الوزراء — تأليف المؤيد الجاجرمي تحقيق د. نبيلة عبد المنعم داود
- أهل الفسطاط دراسة في تركيبهم القبلي ومراكز إدارتهم — تأليف د. صالح أحمد العلي
- تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية — تأليف د. صالح أحمد العلي
- تاريخ المدن العربية الإسلامية — تأليف د. عبد الجبار ناجي
- عُمان في العصور الإسلامية الأولى — تأليف د. عبد الرحمن عبد الكريم العاني
- الإدارة في العهود الإسلامية الأولى — تأليف د. صالح أحمد العلي
- دولة الرسول (ص) في المدينة دراسة في تكونها وتنظيمها — تأليف د. صالح أحمد العلي
- سامراء وأهلها إبان إقامة الخلفاء فيها — تأليف د. صالح أحمد العلي
- المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى — تأليف د. صالح أحمد العلي
- المعتصم وعسكرة الخلافة العباسية — تأليف د. عثمان سيد أحمد إسماعيل البيلي
- ثلاثية الحكم في العصور العباسية — تأليف د. عثمان سيد أحمد إسماعيل البيلي

سيصدر لاحقاً:

- أدب الوزراء — تأليف أحمد بن شاذان — تحقيق د. نبيلة عبد المنعم داود
- الكوفة في صدر الإسلام دراسة في معالمها العمرانية وتركيب سكانها وتنظيمهم — تأليف د. صالح أحمد العلي
- الفتوح الإسلامية — تأليف د. صالح أحمد العلي
- دراسات في كتابة تاريخ العرب — تأليف د. صالح أحمد العلي
- آراء أبي يوسف الاقتصادية والمالية من خلال كتابه الخراج — تأليف د. أحمد عبد الرزاق مصطفى
- الخراج (أحكامه ومقاديره) — تأليف د. حمدان عبد المجيد الكبيسي